عادل الجندى
رواية
ذكريات محكوم عليه
بالإعدام
تصميم الغلاف : إسلام نصار
عصير الكتب
بالعربي COVER

ذِكْـــــــــــــريات مَحْكوم عليه

بالإعـــــــــدام

لـــ

عادل الجندي

جميع الحقوق محفوظة © عصير الكتب للنشر الإلكتروني

http://book-juice.com

ذِكْـــــــــــريات مَحْكوم عليه بالإعـــــــدام

المؤلف : عادل الجندي

نشر في : مارس 2016

تصميم الغلاف : فريق " cover بالعربي "

تنسيق داخلى : عصير الكتب للنشر الالكترونى

إهداء..

إلى تلك التي استغنيتُ بها عن كل الدنيا، وكل الدنيا لا تغنيني عن نظرة واحدة إلى عينيها الحانيتين.

إلى أمي التي أعشق تراباً تطأه بقدميها أهدي هذا العمل المتواضع، وأسأل الله أن يبارك في عمرها، وأن يمتعها بدوام الصحة والعافية.

عرفانٌ بالجميل..

إلى الصديق الذي غدر، والقريب الذي خذل، والصاحب الذي توانى..

إلى تلك المحنة التي عصفت بي عام ٢٠١٤ فجعلتني ألازم غرفتي شهرين متتابعين متدثراً بأحزانٍ تنأى بحملها الجبال الرّواسي .

شكراً لكم جميعاً، فقد هرولتُ من خيبتي فيكم إلى العزلة مع الكتابة، وهذا العملُ وليد عزلتي وخذلانكم.

(الفصل الأول)

الأربعاء ١٩مارس ٢٠١٤م

في منتصف الليل، وبينما الصمت يرفع أعلامهُ في كل مكان في زهو طاووس، وغرور حسناء، إذ بصوت بكاءٍ يُنازع ذلك الصمت سلطانه، ثم يعلو شيئاً فشيئاً حتى أفرغه من زهوه وغروره، بعد أن بدد له أعلامه المنصوبة.

كان البكاء يصدر من ذلك المسجون الذي سيطبق عليه حكم الإعدام في صباح ذلك اليوم، والذي أثار صوت بُكائه مأمور السجن الذي يبدو أنه كان موجوداً عن عمدٍ لينطلق متوجهاً إلى زنزاته الفردية في خطوات ثابتة بين العجلة والبطء ليجده جالساً في زاويةٍ من زوايا الزنزانة وهو غارق في دموعه المُحرقة التي تكاد تذيب من حرارتها الحجارة الصماء.

ألقي المأمور عليه نظرة عطف، بعد أن وجد الحزن والحسرة قد بريا جسده، حتى كأنه مصاب بالسرطان.

ثم تذكر أول عهده به حين كان في أول أيام سجنه، وقارن بين هيئته ساعتها وهيئته في هذه اللحظات التي يراه فيها.

ساعتها كان شابا ذا بنية قوية، حتى أنك ليخيل إليك أنه لو أراد أن يخترق جدارا من الفولاذ لربما استطاع ذلك بهذه البنية القوية، وكان عريض المنكبين، وجسمه كان مُتناسقا بشكل كبير مع قامته الطويلة والتي تقدر بمائة وثلاثة وثمانين سنتيمتر تقريبا، وكانت بشرته السمراء تعطيه جاذبية من نوع خاص لاسيما وجميع أمارات الذكاء والنباهة

تسطَعُ في جميع أجزاء وجهه، وعلى الرغم من وجود سحابة من الرّقة والطيبة كانت تعلو وجهه إلا أن عينيه كانتا تدلان على أن صاحبهما ذا شخصية تشتعل ذكاء ونشاطا.

وأما الآن فهو يرى أمامه شبحا في ثوب إنسان، أو إنسانا في ثوب شبح، قد شحب لونه، واصفر وجهه، ووهنت قواه، ودب الضعف والعجز في جسمه، وعلى جبينه قد اشتعلت علامات اليأس والحزن معا في آن واحد كما يشتعل الشيب في رأس العجوز إيذانا بالرحيل.

ثم انحني عليه بهدوء ليوقفه عن البكاء ويسليه في مصابه قائلا له:

ــ هون عليك يا بني.

إذا كنت تخشى من الموت فلماذا ظللت محتفظا بصمتك دون أن تدافع عن نفسك حتى هذه اللحظة!

ألا تعرف أن حكم الإعدام سيطبق عليك في صباح هذا اليوم؟

ــ بلى أعرف، وكيف لا أعرف وأنا أنتظره منذ قدومي إلى هذه الزنزانة الحقيرة بصبر قد نفد، ولكني أشعر أن عقارب الساعة تعاندني فلا تريد الحراك لتخلصني مما أنا فيه.

ــ منذ أن رأيتك للمرة الأولى لم أشك للحظة واحدة أنك قد تكون قاتلا، وكيف لوجه فيه كل هذه البراءة أن يكون قاتلا، فتحدث يا بني وأنقذ نفسك إن كنت مظلوما، إلى متى تظل محتفظا بصمتك!

ــ وبماذا سيفيد كلامي لو أني تكلمت، هل سينقذني من الموت؟!

ــ نعم يا بني سينقذك من الموت بكل تأكيد إن كنت بريئا.

ــ ولكني أريد أن أموت.

ــ أنت تكذب، إن كنت تريد أن تموت حقا فلماذا تغرق الآن في نحيبك كالثكالى؟!

ــ كلا يا سيدي، أنت مخطىء، فأنا لا أبكي على رحيلي عن هذه الدنيا، وهل رأيت فيها يوم سعادة فأذكره لها، أو ساعة هناءٍ فأشكرها عليه!

إنما بكائي على زمان كنت أحسب فيه أن الغلبة للحق لا للقوة، والرفعة لأصحاب العلم لا أرباب النسب، والتوقير لأصحاب الفضيلة لا مُلّاك العقارات، والرجل بأخلاقه لا بأمواله، وبشرفه لا بجاهه، ومكانته بين الناس بعلمه وما يحسنه، لا بمنصبه وما يقدر عليه، وفخاره بين الناس بفعله الخير وإعانته للمحتاج، لا بقدرته على النيل ممن شاء وقتما شاء، وأن الصديق لصديقه في النكبة كالرقعة للثوب لا كالنخجر في الظهر.

وبعد أن ضاع العمر مني أو أوشك على الضياع عرفت أني إنما كنت أعيش في عالم آخر، عالم بعيد كل البعد عن ذلك الذي كان في مخليتي، لقد كنت أعيش في عالم المثالية والخيال، أو إن شئت فقل في عالم الحماقة والسذاجة.

خرج المأمور في صمت كما دخل في صمت، ثم أغلق باب الزنزانة مُتجها إلى مكتبه ليخيم السكون على أرجاء المكان ويعود الصمت مسدلا ستائره مرة أخرى بعد أن توقف خالد عن البكاء.

مضت ساعة تجر في ذيلها ساعتين، اقترب الفجر، يبدو أن هذا هو آخر فجر سيشهده خالد، بل آخر ليلة سيشهدها في حياته قبل أن تسلب منه روحه.

قام فتوضأ بفضل ماء كان معه وصلى لله ركعتين ظل يبكي خلالهما كثيرا حتى أنه لا يكاد يستطيع أن يتفوه فيهما بتكبيرة أو يسبح تسبيحة واحدة من شدة بكائه، وما إن أنهى الركعتين وفرغ منهما حتى شعر بالطمأنينة والسكينة تغشيانه من أعلاه لأسفله، أدرك حينها كم كان بحاجة إلى هاتين الركعتين، لم يكن يتذكر آخر مرة صلى فيها، ولكنه كان يتذكر جيدا كم كان مُحافظا عليها قبل أن يطأ بقدميه تلك الزنزانة، لم يكن يدري ما الذي أشغله عنها منذ قدومه وهي التي ما كان يتخلف عن أدائها مطلقا، هل كلمات السجان الساخرة التي كان يقذفه بها أحيانا كلما طلب منه ماء للوضوء، أم نظراته الدائمة التي كانت تقول له كلمات كثيرة والتي كان منها أنه لا يجدر بك وأنت مجرم قاتل أن تُعفر جبينك بالسجود بين يدي الله، فهذا شرف لا يستحقه أمثالك من المجرمين سفاكي الدماء.

أم أن المناخ العام الذي يسود الزنزانة لم يكن يشجع عى أي شيء سوى الاستغراق في المزيد من التفكير والذي بدوره يجلب المزيد من الحزن والشجن.

أنهى الركعتين ثم قام بإسناد ظهره إلى الجدار مُحدقا بعينيه في جميع أركان وزوايا الزنزانة التي حبسوه فيها وكأنه ينظر إليها آخر نظرات الاحتقار والازدراء التي كان دائم النظر بها إليها منذ أن وضعوه فيها؛ فقد ذاق فيها من الهوان ألوانا ومن الشقاء صنوفا وأنواعا في أثناء انتظاره ساعة الخلاص.

فساعة الألم شقيقة لساعة الانتظار، كلاهما قد رضع من ثدي واحدة، ولا يخلو الانتظار من الألم، كما لا يخلو الألم من الانتظار المتجسد في ترقب ساعة زواله.

أما جدران تلك الزنزانة التي شقي بها وشقيت به فلم يكد يعرف لونها من كثرة الحشرات العالقة بها والمستوطنة لها، والتي كانت تتفكه ليلها ونهارها بامتصاص شيء من دمه كلما سنحت لها الفرصة منغصة عليه نومه، ومُعَكِّرة له صفو

فكره، ولم يكن له معها من حيلة غير السب واللعن مع المطاردة بما أوتيَ من غيظ، ولكن كانوا يتكاثرون عليه، فإن مل من مطاردته لهم لم يملوا هم من الهجوم عليه، وما بين الهجوم والدفاع فقد القليل من دمه والكثير من الراحة والطمأنينة التي رجاها في حبسه الانفرادي.

وعلى الرغم من أن سقفها كان عاليا حتى كأن سقفها السماء إلا أنها كانت ضيقة، وكأنها ما أعدت إلا لتسع سجينا واحدا ولا أكثر من ذلك، ومع هذا فقد عرف أن من قبله كانت تحتوي أحد عشر سجينا مجتمعين في آن واحد!

ولأن الشمس لم تكن تعرف إليها طريقا فلم يكن يفرق فيها ما بين الليل والنهار، فقد تساوى فيها كل شيء، فكأن الأيام فيها وإن طالت ما هي إلا ساعة من كبد الليل المظلم.

ولم يكن حال الهواء مع الزنزانة بأفضل من حال الشمس معها، إضافة إلى أن درجة الحرارة فيها كانت مرتفعة دوماً حتى في أشد أيام الشتاء قرا وزمهريرا؛ فكانت كأنها قطعة من نار جهنم، أو كأنها قبر أعدوه له ليعودوه على ما هو مقبل عليه بعد قليل، وكأنه فيها مقبورٌ غير أنه بقلب نابض، ونفس يتردد.

كثيرا ما كان يحسب أن أجله سينتهي في هذه الزنزانة الموحشة التي لم يرَ في حياته ما هو أكثر منها بشاعة قبل أن يحين موعد تنفيذ حكم الإعدام عليه، بل كثيرا ما كان يرجو أن يحدث هذا، ولولا أنه كان يخاف عاقبة قتله لنفسه في الآخرة يوم يقف بين يدي ربه لأسرع إلى التخلص من حياته بإزهاق روحه.

لم يكن يؤلمه أنه حبيس هذه الزنزانة قدر ما كان يؤلمه أنه حبيس أحزانه التي رمت شباكها عليه فأخذته في كهفها أسيرا.

الشيء الوحيد الذي كان يُسليه في مصابه هو تلك الصداقات التي أقامها مع بعض المساجين قبل أن يضعوه في حبسه الانفرادي.

(ياما في السجن مظاليم).

جملة لم يكن من المؤمنين بها حتى ولج بقدميه ساحة السجن فرأى فيه مظاليم كثر لا مظلوما واحدا!

لا زال يتذكر وهو في أول عهده بالسجن ذلك الشاب ذو القامة الطويلة والمنكبين العريضين والبشرة البيضاء والذي كان في مطلع العشرين من عمره وقد جاؤا به إلى زنزانته وهو في حالة إغماء، بعد أن نال في ضيافة الشرطة وجبة عشاء دسمة من اللكم والصفع وبعض الشتائم!

كان ذلك المشهد مألوفا عند المساجين، ولأنه كان حديث العهد بالزنزانة وما يجري فيها فقد بادر إليه كي يعينه على استعادة وعيه وقوته.

أخذ يضمد له جراحه، ويزيل عن وجهه الدم المتدفق منه ومن فمه وأنفه إلى أن بدأ يستعيد وعيه.

في اليوم التالي حكى له ذلك الشاب قصته من غير أن يطلب منه سردها فقال له:

ــ أنا طالب في الفرقة الرابعة كلية اللغات والترجمة جامعة الأزهر.

نشأت في بيت متواضع في قرية من قرى الصعيد، لم يكن لنا أي دخل سوى عمل والدي والذي لم يكن يدر علينا

غير بعض الجنيهات القليلة والتي كانت بالكاد تكفينا، كان أبي يعمل مزارعا، ولم يكن يزرع غير بعض القراريط التي ورثها عن أبيه.

وكنا نعيش على ما يرزقنا الله تعالى به شاكرين له إنعامه علينا وكفه لأيدينا عن السؤال، إلى أن أصيبت أمي بمرض في، الكبد فكانت تحتاج في كل أسبوع إلى علاج بمائتي جنيه، ولم يكن عبء تكاليف مرض والدتي هو العبء الوحيد على كاهل أبي؛ ولكن قبل ذلك كان هناك عبء تعليمي الجامعي، وأخي الذي كان طالبا في المرحلة الثانوية، وأختي التي كانت في المرحلة الإعدادية.

وأما شقيقاتي الثلاثة الأخر فكانوا قد تزوجوا وجميعهم رزقوا بأطفال والحمد لله وأصبح لكل واحدة منهن زوجا مسؤلا عنها.

لم يكن أمام أبي خيار سوى أن يبدأ في بيع قطعة من الأرض التي ورثها عن أبيه، والتي لم يكن لنا في الدنيا بعد الله سواها حتى يلبي لنا ما نحتاج إليه، وحتى يقدر على الصمود أمام مرض أمي.

ولم يكن علاج أمي ينتهي، ولا لوازمي أنا وإخوتي تنتهي، وهكذا كلما با ع أبي قطعة أرض ونفد ثمنها راح يبيع أخرى ملحقا بها التي سبقتها.

وظللنا على ذلك زمانا حتى تقلصت الأرض، وأبى الزمان إلا أن يفجعنا بمصيبة أكبر من كل ما مضى.

أصيب والدي أيضا بمرض في الكبد جعله طريح الفراش، وفي لمح البصر وجدتني مسؤولا عن أبي وأمي وإخوتي الصغار، وعن أجرة الأطباء وثمن الأدوية لأمي وأبي وما يحتاجه إخوتي!

لم يمضِ على مرض والدي غير أيام قليلة، في الحقيقة كان مريضا منذ فترة طويلة ولكن لم يكن يعرف بذلك أحد، ولا حتى أبي نفسه!

لذلك فقد عرفنا حقيقة مرضه في وقت متأخر كانت حالته فيه قد ازدادت سوءا وما هي إلا بضعة أيام حتى لحق بالله تعالى في إحدى غرف مستشفى الحسين الجامعي بالقاهرة.

ظل يوصيني قبل موته بأمي وإخوتي، وظل يلح علي في أن تكمل أختي الصغيرة تعليمها، وقبل أن يغمض عينيه لآخر مرة كنت قد عزمت تنفيذ وصيته كاملة وبالحرف من غير أن أهمل منها شيئا.

لم يكن أمامي غير أن أعمل بجانب تعليمي الجامعي وأن أقلص من حجم نفقاتي.

وقبل أن آخذ قراري بالعمل كنت قد بعت (الجاموسة) التي كان يرعاها أبي من أجل أن نعيش على ما تنتجه لنا، وتركت ثمنها لشقيقتي الكبرى والتي تكبرني بستة أعوام حتى تنفق على البيت منها وتجلب لأمي وإخوتي ما هم بحاجة إليه لحين أن أمدهم ببعض المال من عملي الجديد.

وما هو إلا شهر واحد مضى على وفاة والدي وإذ بي وأنا في الجامعة أجد مظاهرة طلابية تهتف ضد النظام،كعادتي مع تلك المظاهرات أعرضت عنها، ونأيت بنفسي مبتعدا عن المتظاهرين، وفي أقل من لمح البصر كانت قوات الأمن قد أقبلت بالخرطوش والعصي والقنابل المسيلة للدموع، وإذ بي أجدني في لحظات في عربة الشرطة وما إن وصلت إلى هنا حتى وجدت الصفع واللكم يأتيني من أمامي ومن خلفي، ولا أعرف لي تهمة غير أني استأذنت من صاحب العمل يوما كي أذهب إلى الجامعة لأعرف ما فاتني من محاضرات ودروس.

وأما هم فلم يقتنعوا إلا بأني من الثائرين على النظام المروجين للبلطجة والإرهاب!

ثم بكى بحرقة وهو يقول:

أنا لا يعنيني من أمري شيئا، كل ما يقلقني هو أمي وإخوتي، كيف يعيشون إن أنا حدث لي مكروه، لا عائل لهم بعد الله سواي.

لو عرفت أمي بالأمر لماتت من شدة وقع المصيبة عليها.

لم يملك خالد من أمره غير أن احتضنه ثم أخذ يربت على كتفيه وهو يقول له:

ـــ لا تقلق، كل شيء سيكون على ما يرام إن شاء الله.

تناسى ذلك ثم رجع إلى خواطره مع الزنزانة مرة أخرى فأخذ ينظر إليها بإمعان وهو يتأملها ويطوف بعينيه على كل ركن وزاوية من زواياها وكل جزء في جدرانها الأربعة العالية،وحاله معها كالسائح يطوف بجسمه وعينيه وعدسات كاميراته في المكان الأثري يريد معرفة كنهه والكشف عن غواره وأسراره.

ظل يحدق فيها وكأنه ما لبث فيها بضعة أشهر يعاني مرارة الحبس بين جدرانها الصلبة كقلوب كثير من الأشخاص الذين التقى بهم في مشوار عمره القصير.

أخذ يناجيها بينه وبين نفسه خفية لآخر مرة في حياته،فقال معاتبا إياها عتابا هو أقرب إلى الزجر والتوبيخ منه إلى العتاب:

أيتها الزنزانة الحقيرة،كم من سجين جلبوه إليكِ مقيدا بالسلاسل الحديدية وهو بعد في ريعان شبابه وزهرة حياته ومقتبل عمره، فما رحمتِ شبابه،ولا ترفقتِ بدموعه،بل استبدلت عافيته بالسقم، ونضارة وجهه بالصفرة، وشبابه بشيخوخة مبكرة، ثم وددت أن لو أبكيته بدلا من الدموع الدماء، وبدلا من أن تكوني عونا له على مصيبته، وزادا له يتغلب به على فجيعته، كنت له أكبر مصيبة، وأجل فجيعة.

قد فتحت الدنيا له ذراعيها الوردية، فبادرته أنت بفتحك لأبوابك المخيفة، وبدلا من أن يلج بقدميه إلى حديقة السعادة، ويسبح في نهر الهناء، ولج إلى رحم الشقاء، وسبح في نهر الدموع، وما رحل عنك يوم رحل إلا وقد دفن بأرضك القذرة أحلامه التي كانت تتلألأ بين عينيه، بعد أن قضيتِ عليها أنتِ أولا بما عندك من بشاعة، وما بأجزائك من جبروت.

وكم من مظلوم زجوا به في أحشائك، من حيث لا يدري ولا يحتسب وجد نفسه مطروحا على عتبة بابك في غير شيء فعله، فأتاك مثقلا بالأحزان مما فات به، محملا بالهموم مما هو مقبلٌ عليه، ودموع المظلوم المحرقة في عينيه الحزينتين، وسحابة الهوان على جبينه يقرأها كل عالم وجاهل، فأغضيتِ عنها طرفكِ ،وكأنكِ لا تريدين الاعتراف بمشاركتك إياهم في الظلم الذي أصبح لهم عادة وسجية، أو كأنكِ ترفضين أن تطلعي على ظلمه حتى لا تشعري بتأنيب ضمير، أو شعور بذنب، أو مواقعة جرم، ولسان حالك:

هنا يتساوى الظالم والمظلوم، والمستأجر والمأجور، وما أنا إلا كالدرة في يد الجلاد، أو السيف في يد مقيم الحدود، ليس لي من الأمر شيء، بل ما أنا إلا كالبحر يرمى فيه الرجل مكتوف اليدين والرجلين فيلقى فيه حتفه وعند الله تجتمع الخصوم، ويقتص من الظالم للمظلوم.

ثم نكّس رأسه إلى الأرض ورفع بصره مرة أخرى إلى جدران الزنزانة وكأنه يعتذر منها على تحامله عليها واحتقاره الدائم لها، وأخذ يلقي عليها نظرات الوداع الأخيرة، ويشكر لها وفاءها حيث أنها الوحيدة التي آوته واحتضنته من غير أن تنتظر منه جزاء ولا شكورا، والوحيدة التي اطلعت على سره فما أفشته لإنس ولا جان.

ولأنه كان لا يزال محتفظا بالوفاء الذي اندثر من دنيا الناس فقد عرف لها فضلها، وشكر لها أياديها عليه بالرغم مما لقيه فيها.

ثم أخذ في مجاهدة شئ من البغض وجده في قلبه لأصدقائه اللذين تخلوا عنه وخذلوه في أشد أوقاته احتياجا إليهم، فلم يجد منهم مواسيا ولا مؤانسا، وما زاره منهم طوال فترة حبسه واحدٌ، فعرف أن ظنه السيء فيهم بالأمس قد بات اليوم يقينا، فتمثل بأبيات ابن النديم الموصلي حين زجوا به في السجن لإدمانه شرب الخمر:

ألا طال ليلـــــي أراعـــــــي النـــجـــــوم

أُعـــالِـــجُ فـــي السَّاق كـــبـــلاً ثـــقـــيـــلا

بـــدار الـــهـــوانِ وشَـــــــــــــــــرِّ الـــدّيـــار

أُسام بها الخسف،صـــبراً جـــميـــلا

كـــثـــير الأخـــــــــلاءِ عـــند الـــــــــرخاءِ

فـــلما حُـــبـــست أراهــــــــــــــــم قـــلـــيـــلا

لـــطـــــول بـــلائِـــــــي مـــلَّ الـــصـــديـــق

فـــــــــــــــلا يأمـــنـــن خـــــلـــيــــلٌ خـــلـــيـــلا

غير أن ابن النديم كان يرى الأخلاء في الحبس قليلا، أما هو فلم يكن يرى منهم في حبسه قليلا ولا كثيرا.

كانت عنده قناعة كبيرة ساعتها بأنه لا شيء في الدنيا اسمه الصداقة، أو ربما كانت موجودة ولكن لم يسبق له أن التقى بالشخص الذي يمكن أن يسميه صديقا.

إذ المحن هي أفضل اختبار يمكننا من خلاله أن نعرف الصديق الحق من المزيف، ولأنه قد مرت به محن كثيرة فقد سقط مع كل واحدة من محنه بعض منهم، وما إن ولج باب الزنزانة حتى كانوا قد سقطوا جميعا سقوط الأوراق عن الشجرة في فصل الخريف، فلم يبقَ منهم واحدٌ يثلج الصدر ويريح الفؤاد.

تناسى كل هذا ثم أخرج الشمعة الأخيرة من تلك الشموع القليلة التي أخذها من السجان بعد كثير من التوسلات بحجة أنه يجب أن يقرأ القرآن في الليل من المصحف واللمبة دائما في عطلة عن العمل بسبب انقطاع الكهرباء المتكرر.

أشعل الشمعة بأعواد ثقاب استطاع أن يحتال على السجان في أخذها منه مع الشموع، ثم ضم رجليه إلى صدره مُحكما ضمهما بكلتا يديه، ثم هوى برأسه بين صدره وركبتيه لتلوح ذكرياته أمام عينيه فكأنه يشاهدها في فيلم سينمائي.

لم تكن عنده الرغبة التي تدفعه لأن يتجول في حظيرة ذكرياته المؤلمة عبر ذاكرته التي تأبى إلا أن تحتفظ داخلها بجميع تفاصيل فجائعه التي شهدها على مدار ستة وعشرين عاما كانوا قد مروا عليه، كان به من الألم وقتها ما يغنيه عن استدعاء المزيد منه، ولكن الألم شأنه شأن الدموع، لا يحلو له أن يأتي إلا وهو مصطحب معه المزيد منه، أو ربما قرر ذلك لكي يلقي نظرة الوداع الأخيرة على ذكرياته التي ظلت وفية له حتى ذلك اليوم الذي ستغرب فيه شمس حياته مع شروق شمس هذا اليوم، وكم هو مفجع أن يلتقي الغروب والشروق في آن واحد، فالشروق يحمل في متنه كل معاني البهجة والأمل والتفاؤل، والغروب يلملم كل هذه المعاني مستبدلا بها ضدها، ولكن يبدو أن الغلبة في هذا اليوم لن تكون إلا للغروب، ربما لأنه هو الأقوى بجيوش الظلام التي يستخلفها في رحيله، أو لأنه هو الذي يزف إليه الليل الذي يعشقه أكثر من عشق الأطفال الصغار ضوء النهار، أو ربما لأنه قدره الذي حتما سيصطدم به عما قريب شاء ذلك أم أبى.

تجرد من كل شئ وتأهب لأن يغوص في أعماق ذاكرته التي كان يخشى قبل ذلك من أن يقترب من شاطئها فتهلكه؛ وما أخطر السباحة في الذاكرة،فهي سباحة عكس التيار في بحر مظلم ليس له شاطئ.

ولكن هلاكه الآن قد أصبح مؤكدا، فكان سيان عنده أن يتم في غياهب الذاكرة، أو على حبال المشنقة، ما دامت النتيجة في كلتا الحالتين واحدة.

كان يعلم أن الإبحار عبر الذاكرة مع ما فيه من حزن يجتاح نفس المبحر فيها إلا أنه نادرا ما يخلو من لذة السير على جثث الماضي المتعفنة، وأنقاضه البالية، إضافة إلى ما فيه من مشاهدة العبر والعظات، ومراجعة الدروس التي اكتُسبت من مدرسة الحياة.

ولكن ما حاجته الآن لهذه العبر والعظات أو تلك الدروس المستفادة!

إنما ينتفع بدروس الماضي من يسير نحو المستقبل، أما هو فما عاد له من مستقبل، بل حتى حاضره لم يعد بينه وبين أن يفقده سوى بعض الساعات القليلة التي تعد على أصابع اليد الواحدة.

لم يكن يأسف على حياته التي ستنتزع منه لأنه ما كان يخشى من الموت، بل كان يتمنى أن تتأتى له الشجاعة كي يرمي بنفسه في أحضان الموت غير مبال ولا مكترث.

فصدمة الإنسان أكثر من مرة في أقرب المحيطين به كفيلة بأن تجعل الموت في عينيه طبقا شهيا يلذ تناوله.

بدأ إبحاره بتذكره لحياته البائسة التي لم يسعد فيها إلا قليلا، ولو أن العمر يحتسب بعدد الأيام السعيدة التي عشناها لكان مكتوبا على باب قبره بحروف حزينة:

مات قبل أن يولد.

تذكر بيتهم الذي عاش فيه أكثر عمره في الباطنية إحدى المناطق الشعبية في الدرَّاسة والتي تضم القاهرة العديد من أمثالها، ذلكم البيت الذي قضى فيه طفولته وصباه، والذي كان يتكون من ثلاث غرف صغيرة، إضافة إلى صالة شأنها شأن الغرف الثلاثة في مساحتهم الصغيرة، والحمام الذي كانت أرضيته من الأسمنت، ومطبخ متطرف في آخره، وكان له هو وأخيه غرفة بسرير واحد لكليهما ينامان عليه معا؛ إذ أنها لم تكن تسع أكثر من سرير، وغرفة كانت من نصيب أخته الصغيرة، والغرفة الأخيرة كانت لأمه، وكان على الرغم من تواضع البيت في كل شيء ابتداء من مساحته الصغيرة، وانتهاء بمفروشاته البدائية البسيطة إلا أنه كان بالنسبة له العالم بأسره، وأما الباطنية فكانت مزدحمة

بالناس كسائر الأحياء الشعبية التي تضمها القاهرة، غير أنها كانت تحظى بالعديد من المآثر التي تفردت بها عن غيرها من كل الأحياء؛ فكانت مجاورة للأزهر الشريف جامعا وجامعة، أما الجامعة فكان يحمل لها في نفسه كل إجلال وإعظام وتقدير لها ولطلبتها ومعلميها، وكان يراها قلعة العلم وقبلة العلماء، وكثيرا ما كان يتمنى أن لو كان من طلبتها وقاصديها، وأما الجامع الأزهر فكان يحمل له في نفسه كل الحب والود الممتزج بالإكبار والإجلال حيث قضى فيه أكثر أيام عمره طفلا حينما كان يقصده للهو والتتزه، وشابا حينما كان يقصده للعبادة وتلاوة القرآن الكريم، ولاسيما في شهر رمضان المبارك، وما تأسف على شيء ولا حزن عليه أسفه وحزنه على انقطاعه عنه وعن التردد عليه بسبب ما هو فيه، وكان بجوار الجامع الأزهر على الناحية الأخرى مسجد سيدنا الحسين بن علي بن أبي طالب، وما أكثر ما كانت أمه تأخذه إليه وهو صغير مع أخته فتطوف بهما وهي حاملة له على كتفها وأخته بين ذراعيها لعل البركة تحل فيهما، وعلى مقربة منهم أكبر حديقة في مصر والتي أنشأت بعد ذلك، ألا وهي حديقة الأزهر التي ما شهد في حياته حديقة تدانيها في الروعة والجمال فضلا عن أن تزيد عليها أو تساويها.

وتذكر والده الذي توفي وهو ابن عامين،فبدأ فجر حياته وعلى جبينه ذلة اليتامى وانكسارهم،وفي قلبه وحشة الوحدة ومرارتها.

حينما بدأ يتمتم بكلمة أبي لم يجد له أبا يطرب بسماعها منه وهي تنطلق من فمه الدقيق، وشفتيه الصغيرتين، ولم يبصر أمامه الأب الذي تأخذه به وبحداثة سنه وضعفه الشفقة، فتارة يلاعبه، وتارات أخرى يقوم بتدليله وملاطفته.

لم يرَ الأب الذي يرى فيه الدنيا بأسرها، والعالم بما فيه، فيقوم بمحاكات حركاته وتقليده في قيامه وجلوسه وذهابه وإيابهِ كما هو شأن كل الأطفال في أول عهدهم بالدنيا، وإطلالهم عليها في سِنِي حياتهم الأولى.

ومن يومها فقد صارت أمه هي الأم والأب بالنسبة إليه هو وشقيقه الذي يكبره بخمسة أعوام وأخته التي تصغره بقرابة العامين، فكانت تؤدي دورين، وتبرز في مسرحية الحياة بمشهدين، فتارة تخرج عليهم بحنان الأم ورأفتها، تطعمهم رحمة وتسقيهم حنانا، فتسكت هذا إن بكى، وتداوي هذا إن مرض، وتحتضن هذه إن تألمت، وتارة تخرج عليهم في ثوب الوالد الذي يهذب ويقوم، في يمينه النصيحة التي يعلم بها، وفي شماله العصا التي يقوم بها، فتعاقب المخطئ والمخالف، وتكافئ المطيع والمحسن، وقد أجادت الدورين، وأحسنت فيهما أيما إحسان، غير أنها كانت أكثر إتقانا وإجادة في دور الأم؛ إذ ليس الطبع كالتطبع، ولا النائحة الثكلى كالمستأجرة، وما أغنتهم عن والدهم يوما، وهيهات هيهات أن تفعل أو تستطيع، لا عن تقصير منها نحوهم في شيء، فهي ما وهنت يوما ولا قصرت؛ ولكن لأن للأب دور لا يقوى على القيام به إلا هو حتى وإن توافدت على القيام بها نساء الأرض جميعا.

وكما أن رجال الدنيا بأجمعها لا يغنون الطفل عن أمه حين يفجعه الدهر بها، فكذلكم الحال والشأن مع الأب.

ولأن أمه امرأة بسيطة ليس لها من العلم حظ أو نصيب، وليس بينها وبين أحد من أصحاب الوجاهة والثراء صلة أو طريق، فقد كان من البديهي أن يفتح لها الفقر ذراعيه، وأن تخيط لها الفاقة ثوبا من الذلة والهوان، فتلبسها إياه هي وجميع أبنائها وقد كان.

مخطئ من ظن أن الفقر ليس عيبا، ففي زمان تكون قيمة المرء فيه هو ما يملكه وليس شيئا آخر يكون أكبر عيوبك التي عليك أن تخجل منها هي أنك فقير، حتى وإن كان فقرك هذا هو إرثك الوحيد عن والدك الذي تركه لك ليلتصق بك التصاق اسمه باسمك، ولكي تسلم من شظايا هذا العيب فعليك أن تفر منه إلى الثراء، أو إلى بقعة تواريك

وتواريه ولو أن تكون هذه البقعة هي بطن لحد أو رحم قبر؛ إذ الناس يتغاضون لك عن سائر عيوبك إلا ذلك العيب.

كانت ضريبة تلك الفاقة التي نسجت شباكها على البيت بمن فيه أنها كانت ترى الشيء يلوح أمامها وهي في أشد الاحتياج إليه فتعرض عنه، لا عن رغبة عنه أو زهد فيه؛ ولكن عن عجز عنه ويأس منه، وكان حريا بها وقد رحل عنها زوجها وهي بعد في مقتبل العمر ومطلع الحياة مخلفا لها ثلاثة من الأولاد كبيرهم لا يزال طفلا، وأقبل عليها الفقر في أسوأ وجه وأقبح صورة مكشرا لها عن أنيابه، ومظهرا لها صلابة مخالبه، أن تزهد في الحياة زهد الكافر في الجنة وقد تراءت له ملائكة العذاب عند سكرات الموت، والقعيد في الركض وقد أيس من العافية، وأن تبحث لها عن قبر يستر فاقتها عن الأعين، ولكنها ما زهدت في الحياة يوما، لا حبا لها أو طمعا في زخرفها، فبينها وبين زخارفها كما بين المشرق والمغرب، ولكن خوفا على أولادها من بعدها أن تنفرد بهم الأيام فتذيقهم بطشتها، وتريهم فتكتها، فكانت أحرص على حياتها من الشحيح على درهمه وقد صحبه الفقر حقبة من الزمان، والمسافر على زاده وقد توسط الصحراء كما تتوسط النقطة حرف الجيم المعجمة.

كان أول ما يلفظه الأطفال عن أبيهم هو قولهم: أبي.

أما هو فكان أول ما نطق به عن أبيه هو قوله: أمي.. أين أبي؟

فلم تدرِ ما تقول لصغيرها؟

هل تقول له أن يد الزمان مدت يدها نحوه لتفجعهم جميعا فيه في وقت هم أحوج ما يكونون فيه إليه.

أتقول له أن والده قد سافر السفر الذي لا يرتجى له من بعده الرجوع، ورحل الرحلة التي لا لقاء لهم به بعدها إلا أن يرحلوا بأنفسهم إليه.

أتقول له أن الدهر رماه بالمصيبة التي لا يجني مرارتها سواهم، ولا تكدر عيش أحد من الناس غيرهم، فعانى من ألم الموت وسكراته لحظات، ليعانوا هم بموته شهورا وأعواما.

أم تقول له أن والده قد رحل من الدنيا مورثا إياها مرارة الوحدة والعيش بغير أنيس ولا رفيق، ومورثا لهم لوعة اليتم، وألم الفقد، وذل الفاقة.

مخلفا لهم جميعا في آن واحد عار الخيانة، وخزي الغدر، ومرارة الغربة وهم في أحضان الوطن ما فارقوه.

فنظر إليها نظرة مكللة ببراءة الطفولة فإذ بدمعة في عينيها تجاهدها بما أوتيت من قوة ألا تسقط منها، وما أصعب مدافعة الدمعة الأولى، فإما أن ننتصر عليها فنوقفها مكانها في حدقة العين فتبقى في العين كالخنجر في القلب، وإما أن تنتصر علينا فتنزل من العين وهي تجرِّئُ عشرات الدموع خلفها على الإقدام، وفي كلتا الحالتين فنحن أمامها منهزمين سواء عليها أتحجرت في العيون أم سالت على الخدود.

تجلدت قدر طاقتها أمام سؤاله، وقد آلمها كثيرا أنه سألها أول ما سأل أين أبي، وأحزنها أن يدرك لوعة اليتم ومرارته بهذه السرعة وهو ابن الأربعة أعوام الذي كان قريب العهد بثديها، ثم خافت أن يكون سؤاله التالي أمي، كيف مات أبي؟

فهي وإن استطاعت أن تجيبه على سؤاله الأول بما يجاب به الأطفال في مثل سنه على مثل سؤاله فلا طاقة لها بإجابته على الثاني.

****

وتمضي الأيام والشهور ويكبر خالد، ويصبح على مشارف الالتحاق بالمدرسة، ولا هم لأمه إلا أن توفر له ولإخوته اللقمة التي تقيم صلبهم، وتعينهم على مواصلة الحياة، ولو أن تأتي بها من بين أنياب الليث.

فمخطئ هو من قال بأنه لا أحد يموت من الجوع، وربما كان فاقدا للبصر فلم يرَ هؤلاء اللذين يتضورون جوعا باليومين والثلاثة وهم لا يجدون ما يأكلونه حتى يصبحون هم لقمة سائغة وطعاما شهيا للكلاب الضالة والشريدة، بعد أن يلفظوا أنفاسهم الأخيرة بين أنياب الجوع المفترس.

وحتى لا يكون مصير أبنائها على يد هذا الجوع وخشية أن ينال منهم أو يمسهم ولو من بعيد فقد امتهنت جميع المهن حتى عملت في البيوت خادمة، إلى أن تمكنت بشق الأنفس من أن تجمع مبلغا متواضعا من المال، أضافته إلى المال الذي ساعدها به أحدهم، ثم اشترت ماكينة خياطة تتكسب منها ما يقدره الله تعالى لها، وأيضا كي تكون مع أبنائها أكبر وقت ممكن؛ إذ كانت لهم الأم والأب وكل شيء في الدنيا، لاسيما وصحتها لم تعد تساعدها على العمل في البيوت، وأيضا لأن ابنتها زينب كانت تعاني من إعاقة تمنعها من الحركة والكلام بشكل طبيعي، وهي بحاجة إلى من يعتني بها، ويعطيها الأدوية في موعدها.

بدأت تعمل في الحياكة ليلها ونهارها، ولكن أنى لهذه الجنيهات القليلة التي تتحصل عليها بشق الأنفس أن تقوم بالبيت وأعبائه، لاسيما وخالد سيذهب هذا العام إلى المدرسة ليبدأ رحلته مع الدراسة والتعليم، فمن أين لها بدفع المصاريف اللازمة لكي يلتحق بالمدرسة وهي تعاني الأمرين مما تتكبده دراسة منصور، فكيف بمنصور وخالد معا في آن واحد معاً، فضلا عن الأدوية التي تشتريها بشكل دوري لزينب!

لم يكن خالد يدرك في ذلك الوقت أي شيء مما تعانيه أمه، غير أنه دائما ما كان يقرأ في عينيها الواسعتين الكثير من الآلام التي لم تكن تنطق بشيء منها، والتي لم يكن يعرف أي سبب لها نظرا لحداثة سنه.

كان منصور في هذا العام قد انتهى في دراسته من المرحلة الابتدائية ليستقبل عامه الأول في المرحلة الإعدادية بشغف ولهفة، ولكنه كان ناضجا بالقدر الذي يسمح له بأن يدرك أعباء أمه وما تعانيه، فما كان منه إلا أن انتظر أن تحين الفرصة المناسبة التي تسمح له بأن يتحدث معها ليعرض عليها أن يمد لها يد العون، فقد كثرت عليها الأعباء، وازدادت بها الهموم، ولم يكن يحول بينه وبين أن يحدثها في ذلك إلا انشغالها الدائم بالماكينة والثياب التي تخيطها وتطرزها ليلا ونهارا.

وأخيرا سنحت الفرصة، فوجدها جالسة على سريرها النحاسي فارغة من كل شيء إلا الفكر، ومتجردة من كل شيء إلا الهم، فجلس بجوارها في خفة وهدوء حتى أنها ما شعرت بدخوله حين دخل، ولا أحست بجلوسه حين جلس، فعلم أنها سابحة في أفكارها غارقة في همومها كما هو شأنها كلما خلت بنفسها ساعة من ليل أو نهار.

بدأ معها الكلام قائلا لها حتى تنتبه لدنوه منها:

ــ أمي.. هل اشتريتِ لخالد الحذاء الذي سيذهب به إلى المدرسة؟ فالدراسة ستبدأ بعد أسبوعين اثنين.

ولأنها لم تسمع من كلامه قليلا ولا كثيرا لم تجبه بشيء سوى الصمت.

أدرك أنها مستغرقة في التفكير لدرجة أنها لم تنتبه لما قاله، ثم عرف أنها لن تنتبه له حتى يلمس يدها ويتحسسها أو يضع يده عليها، فقام بوضع يده على كتفها بهدوء ورقة ثم أعاد عليها قوله رافعا من صوته أكثر:

ـــ أمي.. هل اشتريتِ لخالد الحذاء الذي سيذهب به إلى المدرسة؟ فالدراسة ستبدأ بعد أسبوعين اثنين.

نظرت إليه وهي تقول له في شبه اعتذار:

ـــ كلا يا منصور، إن شاء الله سوف تأتي أم محمد جارتنا لتأخذ العباءة التي أعمل عليها مساء الليلة، فقد أوشكت على الانتهاء منها، ولم يتبقَّ منها إلا اليسير، وستعطيني ما تبقى من الحساب، وغدا أشتري له الحذاء الذي يحظى بإعجابه.

ـــ وماذا عن ثياب المدرسة؟ ألن تشتريها له؟

ـــ ومنذ متى يا ولدي وأنا أشتري لكم ثيابا!

إن شاء الله قبل أن تبدأ الدراسة سأكون قد انتهيت من خياطة ثوبين له أو ثلاثة يذهب بهما إلى مدرسته، وسأخيط لك أنت أيضا يا منصور ثوبا أو ثوبين.

ـــ كلا يا أمي،كل الأولاد يذهبون إلى المدرسة بثياب جاهزة يتفاخرون بحسنها فيما بينهم، فلماذا نذهب نحن بهذه الثياب المصنوعة على هذه الماكينة البدائية؟

ـــ لو أني أمتلك من المال الكفاية لاشتريت لك ولأخيك ثيابا جديدة يا منصور، ولكن ما حيلتي يا ولدي.

ـــ أعرف هذا يا أمي، وهذا ما جئت الآن كي أحدثك عنه، إنني لم أعد صغيرا، وقد أصبحت الآن في السن التي تسمح لي بأن أدرك معاناتك، والتي تسمح لي أيضا بأن أشمر عن ساعدي كي أمد لك يد العون، وأساعدك في إدارة البيت وأعبائه.

ـــ وكيف تفعل هذا يا منصور؟ وأي شئ في يدك يا بني؟

ـــ لقد قررت أن أغادر المدرسة، وأن أبحث لي عن مهنة أمتهنها، أو صنعة أتعلمها تدر علينا مالا ولو قليلا يضم إلى ما تتحصلين عليه فتتحسن حالتنا إن شاء الله ولو يسيرا.

ـــ لا يمكنك أن تفعل هذا، سوف تكمل دراستك وتحصل على أعلى الشهادات كي ترفع رأس أمك التي تحبك عاليا، أبوك لم يكن رجلا من أصحاب العلم أو الشهادات، وكذلك أمك، وقد كان أملنا أن تكونوا أنتم كذلك، وأن تصلوا إلى حيث تمنينا نحن أن نصل.

دعك من كل هذه الأفكار ولا عليك من أي شيء يا منصور، فربك لا ينسى أحدا.

هيا اذهب كي تلاعب أختك زينب قبل أن تنفجر في بكاء ليس له انقطاع، وأنا سأعود إلى العباءة التي كنت أعمل فيها، فقد أشغلتني عنها بحديثك هذا.

لم يكن راضيا عن كلامها ولا مقتنعا به، ولكنه خرج مطأطأ الرأس منكس الطرف، كأنما حالت بينه وبين قطعة حلوى اشتهتها نفسه وكادت روحه تخرج عليها.

كان خالد يبلغ في ذلك الوقت خمسة أعوام وبعض الشهور، ومع ذلك فقد أصرت أمه على أن يلتحق بالمدرسة هذا العام مع أن المدرسة لا تقبل من هم دون الستة أعوام إلا بشق الأنفس.

استطاعت بمعاونة أحد المدرسين أن تجعله يلتحق بالمدرسة من غير أن يكمل السن المطلوب كما اقترحت عليها إحدى الزبائن والتي فعلت مع ابنها نفس الأمر والذي كان في مثل عمر خالد.

بدأت الدراسة ولم تتمكن أمه من أن تخيط غير ثوب واحد لخالد، فاضطرت إلى أن تشتري له ثوبا آخر جديدا، وما أسعفها الوقت لأن تخيط مثله لمنصور، ولا ساعدتها النفقة على أن تشتري له ولو ثوبا واحدا جديدا كما اشترت لخالد، فاضطر لأن يذهب إلى المدرسة بثياب قديمة وبالية لحين يسعفها الوقت بأن تخيط له ثوبا أو ثوبين.

وأما خالد فلم تكد الدنيا تسعه من فرط سعادته بثوبه الجديد وبدخوله المدرسة، فذهب في اليوم الأول إلى المدرسة بصحبة أخيه منصور بعد أن أعدت له أمه الطعام الذي يكفيه في حقيبته، وبقدر ما كان خالد فرحا وسعيدا بقدر ما كان منصور متضجرا وحزينا؛ فأما سعادة خالد فلأنه كان يتوق لأن يحمل حقيبته على كتفيه كما كان يرى منصور يفعل، ولأنه سيذهب إلى المدرسة التي يذهب إليها منصور هو وأصدقاؤه، وكان كلما يراهم ذاهبين يقول لأمه:

أريد أن أذهب مع منصور إلى المدرسة، فتمنعه فلا يجد غير البكاء حيلة له.

وأما عن ضجر منصور وحزنه فلأنه كان يعلم أن معايرته من قبل أصدقائه ستبدأ بعد لحظات من لقائه بهم كما هو الشأن في أول كل عام دراسي، وأن كلا منهم سيفاخر بثيابه الملونة الجميلة، وحذائه الجديد، وحقيبته التي يوجد في خارجها شبكة أعدت لحمل زجاجة ماء من الحجم المتوسط.

****

مرت ستة أعوام، ولا تزال والدة خالد مستمرة في كفاحها مع الأيام، وصراعها مع الليالي، فكانت تغلبها مرة، وتتغلب عليها مرات، ومن رحمة الله بها وبمن هم مثلها أن الأيام تمر على الجميع، فلا تقف لفقر أحد، ولا لفجيعة أحد بأحد.

لم يكن يكدر صفو حياتها غير تلك الإعاقة التي احتلت جسد ابنتها الصغيرة البالغة من العمر عشرة أعوام على غير اختيار منها فأقعدتها في البيت حزينة مهمومة، ولكنها لم تيأس لحظة واحدة من أن تعود إليها عافيتها، وتتخلص من أسر إعاقتها لتقوم وتمرح وتركض كما هو شأن كل الأطفال في مثل عمرها، فأخذت تطوف بها على الأطباء شرقا وغربا، ويمينا وشمالا، على قلة في المال والنفقة، فكانت كأنها تنحت في الصخر لتجلب لها أجرة الطبيب والدواء، وكلما شعرت بكلل أو نصب، أو دب فيها قنوط أو يأس جالت مع اللحظات التي ترى فيها ابنتها وقرة عينها مبرأة من المرض، شأنها شأن باقي الفتيات، فيرجع إليها الأمل والتفاؤل مرة أخرى في أحسن صورة، وأجمل ثوب.

وأما منصور فقد بلغ مبلغ الرجال، وانتهى من المرحلة الثانوية، وكان يرغب في أن يلتحق بكلية الشرطة؛ وكان يعلم أن بينه وبين أن يلتحق بها كما بين السماء والأرض، لا لكونه من أسرة فقيرة ومعدمة، تعيش يوما بيوم وفقط، ولكن أيضا لأن الالتحاق بها كان بحاجة إلى واسطة قوية ترفعه من رتبة فقير لا عائل له ولا معين، إلى رتبة طالب بكلية الشرطة، فدفن حلمه في المقبرة الجماعية التي وضعها لسائر أحلامه السالفة، لاسيما وقد أعطته أمه من جرعات اليأس فيها ما يقطع عنه أي أمل أو رجاء فيها.

وبعد أن يئس من أمنيته تلك، عاد إلى أمنيته الأولى في أن يساعد أمه ويمد لها يد العون، وكان يعرف أن أول إعانة عليه أن يقوم بها هي أن يقلص من حجم نفقاته في دراسته، ولكن هو الآن سيبدأ حياة الطالب الجامعي والتكاليف فيها لا تقارن بغيرها مما سبقها، وهنا قد قرر أن يغادر حياته الدراسية مكتفيا بحصوله على الشهادة الثانوية.

ثم ذهب إلى أمه ليعرض عليها الأمر، فوجدها تشتكي ألما برأسها وقد شدت رأسها بخرقة قديمة عندها، فتردد ما بين الإقدام والإحجام، تارة تحدثه نفسه أنها متوجعة الآن وغير مستعدة لحديث كهذا، وتارة تحمله عجلته في إنفاذ الأمر على الإقدام، وأخيرا قرر مفاتحتها فيه، فبدأ معها قائلا:

ــ ما بكِ يا أمي؟ هل تشتكين من شيء؟

ــ كلا يا منصور، صداع برأسي يزول عن قريب إن شاء الله.

ــ إن شاء الله تكونين بخير يا أمي، ولكن ترفقي بنفسك قليلا، فأنت تجهدين نفسك بشكل كبير.

ــ لا تخشَ على أمك من الجهد المضاعف يا منصور، فهذا شأنها منذ زمان يا ولدي، حتى أصبح لها عادة وسجية.

ــ ولكن آن لك أن ترتاحي ولو قليلا يا أمي.

ــ عندما تتخرج من الجامعة أنت وأخوك وتعملان سأرتاح إن شاء الله.

ــ الجامعة! مالي وللجامعة؟ لقد قررت أن أكتفي بما حصلت عليه، ولن أدخل الجامعة، فليست لي بها حاجة.

ــ كيف تقول هذا يا منصور؟ لا قيمة للإنسان في هذا الزمان إلا بشهادته.

ـــ ومن الذي قال هذا يا أمي! بل لا قيمة للإنسان في هذا الزمان إلا بما معه من مال، سوف أبحث عن عمل أحصل من خلاله على المال الذي يرفع من مستوى معيشتنا، ويغنيك عن كثير من المشقة التي لم تعد عندك الطاقة الكافية التي تعينك على تحملها، وأيضا لأجل علاج زينب الذي أرهقك وكاد يقصم ظهرك.

وبعد طول إلحاح منه على أن يمضي ما برأسه، ولأنها استشفت من نبرة صوته أنه لا يناقشها في الأمر، ولكنه يعلمها بقرار قد اتخذه فليس له عنه محيد؛ فقد سلمت له بما عزم وهي متألمة وحزينة، ثم قالت له بصوت خافت ونبرة حزينة كأنما خرجت ممتزجة بألمين، ألم الصداع وألم القرار الذي اتخذه:

ـــ افعل ما تراه صوابا يا منصور، فأنت لم تعد صغيرا، وها قد بلغت مبلغ الرجال، وأنت أدرى بالنفع أين يكون يا ولدي.

وقبل أن يرد عليها منصور إذ بصوت جلبة وضجيج مفزع، فتتبعوا الصوت فإذا به يأتي من المطبخ، أسرعوا مهرولين،فإذا بزينب كانت هناك تحاول أن تقوم بغسل الأطباق والأواني المتسخة في محاولة منها لمساعدة أمها بعد أن رأتها تشتكي برأسها، فاختل توازنها وهي واقفة أمام الصنبور، فلما همت بالسقوط حاولت أن تستعين بشيء كي لا تقع فأمسكت وهي تسقط بأكبر إناء يحوي سائر الأطباق والأواني الصغيرة، فسقطت على ظهرها واصطدم رأسها بأرضية المطبخ الصلبة، ثم تبعها في السقوط سائر الأواني والأطباق التي استنجدت بها لتهوي جميعا على وجهها وسائر جسدها.

فأقبل عليها منصور يقيمها بعد أن أزالت أمها عنها الأواني، فإذ بجروح طفيفة في وجهها ودم كثير يسيل منها، وفي محاولة لتتبع مصدر الدماء الغزيرة تبين أنها تسيل من شج في رأسها يستدعي ذهابها إلى المشفى في الحال كي يعالجوا ذلك الشج بخياطته.

اختلط بكاء سميرة بصراخ زينب، فأقبل عليهم خالد وهو لا يعرف شيئا غير أنه كان يلعب في الشارع، فدخل البيت ليجد أمه غارقة في البكاء والنحيب، وأخته غارقة في الدماء والصراخ.

هرول منصور بزينب إلى المشفى وهو يحملها بين يديه، وأمه تتبعه من خلفه، فاستقلوا سيارة أنزلتهم أمام باب المشفى، فاستقبلوها في قسم الطوارئ، وهناك قاموا بخياطة الشج، ثم وجهوا لسميرة تهمة الإهمال وعدم الاعتناء بابنتها المعاقة!

عندما رجعوا إلى البيت سألتها أمها قائلة لها:

ــ ما الذي حملك على أن تفعلي ما فعلته يا زينب؟

فردت عليها قائلة لها بصوت مرهق من الألم الذي كانت قريبة العهد به، وأيضا بصعوبة في النطق من جرَّاء ثقل لسانها الذي أورثتها إياه إعاقتها المزدوجة في الحركة والكلام:

ــ أردت أن أساعدك يا أمي.

ما إن قالت لها هذه الجملة حتى سالت الدموع على خديها جراء شعورها بالفشل في مساعدة أمها.

ــ وهل طلبت منكِ أن تساعديني يا زينب؟ ثم قالت لها مداعبة لها:

ــ إن شاء الله عندما يعافيك الله ويأذن بشفائكِ سوف أجعلك تقومين بمساعدتي في كل وقت حتى أنني لن أترك لك وقتا تلعبين فيه.

فردت عليها بقليل من التفاؤل مع الكثير من التلقائية:

ـــ متي سأشفى يا أمي؟

فخرجت الكلمة من فمها كأنها سهام نارية تخترق قلبها المكلوم، ثم سكتت هنيهة لم تدرِ ما تقول فيها، فاغرورقت عيناها بالدموع، ثم احتضنتها وقالت لها:

ـــ قريبا إن شاء الله، قريبا يا ابنتي، ليس بعيدا على الله أن يأذن بشفائك.

ثم تركتها تخلد إلى النوم بعد أن أطعمتها وأعطتها الدواء، فدخل عليها خالد وهي في سريرها، وجدها صامتة حزينة فعزم أن يدخل عليها السرور، فظل يداعب فيها تارة ويشاكسها تارات، ثم شرع في تمثيل أدوار بهلوانية أمامها، فتارة يقلد الفيل في مشيه على أربع في بطء، ثم يبدأ بالسخرية من خرطومه الطويل وأذنيه الكبيرتين، وتارة يقف على يديه ويمشي عليهما خطوتين أو ثلاثة ورجليه منتصبتان للأعلى، فما تركها إلا وهي غارقة في الضحك، ناسية للحادثة التي مرت بها، والدماء التي سالت منها فأصابتها بالذعر.

بعد هذه الحادثة بأيام قليلة خرج منصور من المترل كي يبحث عن عمل بعد أن ظلت أمه تدعو له بالتوفيق والسداد، فظل يفتش يمينا وشمالا عن أي شيء يمكنه أن يفتح له بابا من الرزق، إلى أن وفِّق بشق الأنفس للعمل في ورشة للنجارة، على أن يكون راتبه في اليوم طوال فترة تعلمه عشرة جنيهات قابلة للزيادة بعد ذلك إن هو أبدى ذكاء ونباهة وتعلم الحرفة.

فرح بذلك العمل الجديد، ورأى فيه نافذة للأمل ربما تشرق منها شمس السعادة عليه وعلى أمه وإخوته، ثم راح يزف البشرة لأمه وجبينه يتلألأ فرحا وسرورا.

وكان كلما تحصل على العشرة جنيهات أعطاها لأمه من غير أن يقوم بأخذ شيء منها، عدا ما تعطيه هي له.

ومع ما كان يعانيه في هذه الورشة في بداية تعلمه من الإهانة والشتم، فضلا عن التعب والإرهاق، فقد كان حريصا على أن يستمر فيها إلى أن يتعلم مهنة النجارة ويحترفها.

بالرغم من أن أمه كانت سعيدة لأنها رأت فيه الرجل الذي يمكن الاعتماد عليه حتى، أنها رأت فيه صورة والده وشعرت أن الله عوضها به عن والده كي يكون مصدر أمان لها ولإخوته، إلا أنها في نفس الوقت كانت حزينة لكونه تحمل المسؤلية باكرا وهو ابن ثمانية عشر عاما!

وأما خالد فكان ساعتها قد أنهى المرحلة الابتدائية، وكان هو مصدر الأمل لأمه حيث كان متفوقا في دراسته بشكل كبير، وكان في كل عام يأتي ترتيبه الأول على صفه عدا ذلك العام الذي رسب فيه في الصف الخامس.

كان رسوبه في ذلك العام بسبب مادة العلوم التي تخلف عن حضور الاختبار الخاص بها بسبب إفراطه في مذاكرتها حتى ساعة متأخرة من الليل، والتي تسببت في أن ينام نوما عميقا إلى ما بعد انتهاء وقت الاختبار.

كانت أمه في ذلك اليوم مستغرقة في العمل على الماكينة وتحسب أنه في المدرسة يؤدي الاختبار، إلى أن تفاجأت بوجوده في البيت!

وعندما بدأت امتحانات الدور الثاني أخذ جدول الاختبارات خطأ من أحد زملائه، مما أسفر عن تخلفه أيضا في اختبار مادة العلوم في الدور الثاني، ومن ثَمَّ رسوبه في ذلك العام.

ومع رسوبه في ذلك العام، والذي كان أمرا مؤلما له ولجميع البيت، إلا أن كل معلميه كانوا لا يزالون فخورين به برغم ما حدث معه في ذلك العام، وأيضا برغم فقره إلا أنه كان متفوقا في دراسته بشكل ملحوظ، حتى أن حائط الصالة في بيتهم قد امتلأ بشهادات التقدير والإشادة من معلميه وهو بعد على مشارف المرحلة الإعدادية .

ومع أنه كان معروفا في صفه عند زملائه ومميزا بشكل كبير نظرا لتفوقه إلا أنه لم يكن يحب أن يصاحب الكثيرين منهم.

كانت علاقته بهم سطحية لأبعد الحدود.

الوحيد الذي اتخذه صديقا له كان ولدا نبيها اسمه محمود وكان يصغره بعام واحد، وقد ابتدأت صداقتهما معا في ذلك اليوم الذي اجتمع فيه ثلاثة أولاد على خالد يريدون ضربه لأنه لم يغششهم في امتحانات الصف الخامس الابتدائي قبل أن يرسب فيه.

يومها أدركه محمود وقد تمكنوا منه وسببوا له جرحا في ذراعه، ثم أخذ يتشاجر معهم منضما إلى خالد حتى انضم إليه بعض أصدقائه ممن معه في الصف الرابع إلى أن انتهى الشجار بخسائر طفيفة لخالد بفضل معاونة محمود له، ومن ذلك اليوم فقد أصبحا صديقين حميمين، ثم بدأت صداقتهما تزداد قوة وصلابة بعد رسوب خالد حيث أصبحا معا في نفس الصف.

****

ما إن وصل خالد إلى الصف الثالث الإعدادي حتى بدأ يلمع ويسطع ويتجلى نبوغه بشكل كبير.

كان بالرغم من حداثته وصغره يميل إلى العزلة والتفرد، فلم يكن يحب الاختلاط الكثير بزملائه ولا اللعب معهم، كان يشعر أنه غريب عنهم لا لأنه كان المفترض أن يكون فوقهم في الدراسة بعام فقط، ولكن لأنه أيضا لم يكن يجد منهم من له نفس الميل إلى تلك الأشياء التي كان يميل إليها.

كان يجد اللذة والمتعة في القراءة والمذاكرة، وهذا بدوره جعله محبوبا عند أساتذته ومعلميه، مكروها عند زملائه وثقيلا عليهم، فكانوا يتعمدون مضايقته ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا، فمرة بالكيد له وإقحامه في المشاكل، ومرات بالسخرية منه ومن ملابسه المتواضعة وحقيبته الممزقة وحذاءه البالي.

بدأت مواهبه تظهر وتتلألأ، فكانت ثمرة قراءته أنه أصبح متكلما فصيحا، إذا وقف يخطب في إذاعة الصباح في المدرسة أنصت لسماعه الجميع ابتداء من الناظر، مرورا بالمدرسين، وانتهاء بالطلبة، فما هو إلا أن ينتهي من إلقاء كلمته حتى يسمع من الجميع تصفيقا حادا يكاد يصم أذنيه إعجابا بفصاحته وبيانه وقدرته على الخطابة، والتي كان بارعا ومتميزا فيها بشكل يلفت الانتباه ويجذب الأنظار.

وكان مولعا بالشعر وقد أسعفته ذاكرته القوية على أن يكون حافظا للكثير من الأبيات والعديد من القصائد حتى أصبحت لديه القدرة على نظمه.

كانت ذاكرته القوية من أكبر الأشياء التي أعانته على النبوغ والتفوق، فلا يكاد يقرأ الشيء مرتين أو ثلاثة حتى يصبح حافظا له فلا ينساه بسهولة.

لم يكن يحب أحدا مثل أستاذه في اللغة العربية، إذ كان هو سبب تألقه في الخطابة والشعر، وكان أكثر من جعله يعشق اللغة العربية منذ التحق بالصف الأول الإعدادي، كان اسمه الأستاذ سامي، وللأستاذ سامي من اسمه حظ ونصيب، حيث كان ساميا في كل شيء.

كان حلو الطلعة، حسن القول، رفيق الجانب، لين الحديث، وكان متواضعا بشكل كبير لدرجة أنه كان يتعامل مع التلاميذ على أنهم كلهم أصدقاء له، وكثيرا ما كان يدعو بعضهم إلى زيارته في بيته ليشرح لهم ما كان عويصا عليهم، وأيضا ليستمع إلى ما عندهم من مشاكل وهموم ويعمل جاهدا على إزالتها عنهم.

ولكنه اصطفى من بينهم جميعا خالد ليتعامل معه على أنه شقيقه الصغير، أو ربما ابنا له؛ حيث كان يكبره بقرابة الخمسة عشر عاما.

كان أستاذه يرى فيه الابن البار به، ربما لأنه قد تجاوز عمره الثلاثين عاما وهو بعد يعيش فردا بلا ولد أو زوجة.

كان من أكبر الأسباب التي جعلت خالد يحترم أستاذه، ويكن له كل حب وإجلال وتقدير، أنه المدرس الوحيد الذي لم يكن يجعله يشعر أنه بفقره أقل شأنا من غيره.

حيث أنه كان يجلس على أول مقعد في فصله، وكان كلما أتى مفتشا من الوزارة إلى المدرسة يخبرون جميع المدرسين بالأمر كي يتأهبوا للقائه بتحضير كشكول الدروس الخاص بهم مع بعض الابتسامات المصطنعة، وكلمات النفاق التي لا يقصد بها شيئا من معناها.

ولأنه من الوارد أن يدخل المفتش أي فصل من الفصول فقد كان خالد ينفى من مقعده الأول إلى المقعد الأخير على يد كل المدرسين حتى لا تقع عين المفتش عليه وهو بتلك الهيئة المزرية من ثياب قديمة وحذاء بال وهيئة رثة.

الوحيد الذي كان يكسر هذه القاعدة ويبقيه مكانه هو الأستاذ سامي الذي كان يرى أن اجتهاده جدير بأن يجعل الصدارة ملكا خالصا له وحده دون جميع زملائه.

كان دائما يتنبأ له بمستقبل باهر في الشعر والأدب إن هو استمر على ما هو عليه من القراءة وحفظ الشعر ثم محاكاته.

وما أكثر ما كان يصحبه معه إلى منزله وربما أعاره من مكتبته ما شاء من الكتب، بل وكثيرا ما كان يهديه منها لما يعرفه فيه من شغف بالقراءة وحب للاطلاع.

وعندما زاره الأستاذ سامي في بيته في أول العام الدراسي لم يكد يصدق نفسه.

وذلك أنه أثناء صعوده إلى الفصل مع زملائه سقط بسبب الزحام والتدافع على ذراعه الأيمن مما أسفر عن كسره.

ذهب إليه مصطحبا معه هدية له، فكانت زيارته بالنسبة إليه أحلى من العافية التي عرف قيمتها عندما كسرت ذراعه.

وفي آخر أيام امتحانات الصف الثالث الإعدادي جمع الأستاذ سامي أنجب طلبته وأقربهم منه وأحبهم إليه وكان على رأسهم خالد وصديقه المقرب محمود فأجلسهم ليلقي عليهم خطابا. كان أشبه بالوداع منه بأي شيء آخر فقال لهم بنبرة خافتة وصوت يغلب عليه الأسى والحزن:

ـــ إنني اليوم أتكلم، ولكن ما أتكلم به اليوم ليس كسائر كلماتي، هذا لأني في الغالب أتكلم بلساني ما يمليه علي عقلي، أما اليوم فإن الأمر يختلف اختلافا كبيرا؛ هذا لأن روحي هي التي تنطق بما تمليه علي مشاعري، ويمدني به وجداني، ويتحفني به قلبي وتحس به نفسي، وتهديني إياه ذاكرتي من خزانة الذكريات.

وما هذا إلا لأني أتحدث عن أحب الناس إلى قلبي، وأقربهم إلى نفسي، وأمتعهم لروحي.

إنني اليوم أتحدث عن إخوة لي لم تلدهم أمي، عن أبناء لي وإن لم يخرجوا من صلبي، عن أساتذتي وإن كان الناس يقولون أنهم طلبتي.

وكيف لا أتحدث عنكم وقد عشنا معا أجمل أيام العمر في رحاب اللغة العربية وعلومها التي حرصت على أن أجعلها محببة إليكم دانية منكم.

أيها الصغار الكبار قد تعلمت منكم الكثير والكثير.

تعلمت من خالد فن المجاملة، وروعة المحاورة، وسرعة البديهة، وحلاوة الحديث، وسحر الابتسامة، ورقة القلب، وكم أعجب من بيانه وفصاحته.

ولخالد عندي مكانة خاصة، ومنزلة ينفرد بها لا يشاركه فيها غيره؛ لأني أرى نفسي فيه، فكم بيني وبينه من التشابه، وإني لأعلم أنه يتخذني قدوة له، وكم نهيته عن ذلك؛ لأن الله تعالى قد منحه مواهبا عديدة تؤهله إن استعملها لأن نتخذه أنا والمئات ممن هم مثلي قدوة لنا، وأن نجلس بين يديه متعلمين لا معلمين.

وتعلمت من محمود معنى الجود، وحب الإيثار، وشدة الوفاء، وصدق الحديث، وأشهد الله أني ما جربت عليه كذبة واحدة على مدار ثلاثة أعوام، فهو بإيجاز مثال للصبي الذي سمت به أخلاقه حتى صار قدوة لمن أراد أن يقتدي.

نعم أنتم كلكم أصدقائي اللذين أفتخر بهم إذا افتخر امرؤ بصديقه.

تبثونني همومكم وأبثكم همي، وتشاركونني سروري وأشارككم سروركم، فكان سروري لكم سرور، وكان ألمكم لي ألم.

كم جلسنا لنستمع إلى آيات من كتاب رب العالمين، من صوت عذب يجعل العبرات تداعب العيون، ونتعظ بالموعظة فتتساقط من بعضنا الدموع دون أن يستحي من أن يُرى باكيا؛ لأن الكلفة قد سقطت بيننا كما تسقط الورقة اليابسة من على غصن الشجرة في فصل الخريف.

وكم اجتمعنا على طعام شهي قد تعاونا جميعا على إحضاره حين أدعوكم لزيارتي في جو مفعم بالحب والمودة، فنجلس حوله لتناوله مستمتعين بحلاوة اللقاء، وبهجة المجلس، وتلاقي الأبدان بعد تلاقي الأرواح، وما اجتماعنا على تناوله بأحب إلينا من اجتماعنا على إعداده.

وكم اجتمعنا على شراب نحتسيه، مستمتعين بذلك أيما استمتاع، لا من حلاوة الشراب، فهو في الغالب لا يعدو أن يكون كوبا صغيرا من الشاي؛ ولكن من حلاوة الاجتماع، وبهجة الحديث، وظرف المجلس، وهكذا كل مجالسنا

عامرة بالسرور، نتجول في المجلس الواحد من الطرفة إلى القصة، ومن القصة إلى الفائدة، ومنها إلى المعلومة، تليها الدعابة، فنتفاجأ بمرور الساعات التي تمر علينا وكأنها الدقائق.

إذا مرض أحدنا عدناه، وإن حقق نجاحا هنأناه، وإن حل به مكروهٌ واسيناه.

ولا أنسى أبدا يوم أن رقدت طريح الفراش إثر حمى أصابتني كادت تذهب بروحي يوم ذهبتْ، فما عادني باستثنائكم أحدا.

وقد مر على تاريخ هذه الحمى أكثر من عامين وما زلت أحفظ لكم هذا الجميل.

أبنائي الأعزاء:

لقد عشت معكم أياما هي من أروع أيام العمر، حتى أنني لأتمنى إن لم يقدر الله تعالى دوام الاجتماع بكم ألا يحرمني بقاء تلك الأيام في الذاكرة حتى تستمتع روحي ونفسي بجمال بهجتها، ولذة محياها كلما حاولت استرجاعها.

وإنني لأتشوق شوقا عظيما إلى أن أراكم بعد أن تمضي السنين، وتمر الأعوام تجر خلفها الأعوام، لأرى مستقبلكم المزهر الباهر بالإنجازات والنجاح الدائم والمستمر.

إنني لأتمنى أن يمد الله تعالى في العمر حتى أراكم وقد كبرتم وأصبحتم رجالا؛ لأرى ثمرة ما غرسته بيدي من القيم والأخلاق والسعي دائما خلف المعالي في سبيل الظفر بها والحصول عليها.

لأرى أأثمر ما غرسته بيدي ما كنت أؤمله فيكم من المكانة العالية والمنزلة السامية، أم أنني غرست غرسي يوم أن غرست في أرض بور لا يرتجى منها خير، ولا ينتظر منها ثمر.

لقد بذلت لكم ما وهبني الله تعالى من الفوائد والفرائد، مما خرجت به من بطون الكتب، ومما أطلعني الله تعالى عليه من خلال سيري في دنيا الناس.

بذلت لكم النصيحة مكللة بالحب تارة، وبالشفقة أخرى، فكانت نصيحتى لأحدكم أقرب إلى نصيحة الوالد لولده منها إلى المعلم لطالبه.

وإني لأتشوق إلى رؤيتكم وقد رجحت عقولكم، وتم بنيانكم؛ لأرى أحفظتم العهد ووفيتم به، أم نقضتموه ورميتموه وراءكم ظهريا.

ولكن كلي ثقة بأنكم لن تخيبوا أملي، بل ستكونون فوق ما رجوت وأملت فيكم.

وسنجلس إن الله تعالى قدر وشاء مرة أخرى، ربما بعد عشرين أو ثلاثين سنة، وربما أكثر من ذلك أو أقل.

سنجلس لنستعيد الذكريات، ونروي الحكايات.

لنرى إن كنت سأقول في زهو وخيلاء أمام الدنيا هؤلاء طلبتي اللذين كبروا على يدي، وكنت أول من وضع اللبنة الأولى في بنيانهم، أم أنني سأتوارى خجلا وحياء من نسبتي إليكم ونسبتكم إلي.

سنجلس لنرى إن كنت سأفتخر بكم كبارا كما كنت أفتخر بكم صغارا، أم أنه سيكون لكم في ذلك رأي آخر.

ووالله إني إذا جال بخاطري أن سيقع فراق بيني وبينكم لتكاد عيني تمتلئ بالدمع، ويكاد قلبي يعتصرمن الألم.

ولم لا والعبرات تنسكب على فراق الأحبة، وأنتم أحب أحبتي وأدناهم من نفسي.

ولله در القائل:

وتــفـــــــرُّق الــبُــعـــــداءِ بــعــد مـــــودةٍ

صــعــبٌ فــكــيـــــفَ تــفـــرق الــقـــــرباءِ

وأخيراً أقول لكم:

اعلموا أن العلم هو مال من لا مال له، وجاه من لا جاه له، ونسب من لا نسب له، وكم رفع العلم من صعلوك حتى جعله من جلاس الملوك.

فإياكم أن يزهدكم فيه ما تلقونه في سبيل تحصيله من تعب ونصب، وسهر وإعياء، فإن هذه الأمور قد حفت بكل أمر عظيم، وأي شيء في الدنيا أعظم من العلم.

وإياكم أن يشغلكم عنه إقبال دنيا، فإن الدنيا عادتها الإقبال والإدبار، والجاهل من اغتر بإقبالها، ونسي أن لها إدبارا.

ثم احذرو من أن تنجرفوا خلف الأهواء، واعلموا أن من اتبع الهوى هوى، وضل وغوى.

وإياكم أن يثنيكم عن مرادكم تثبيط مثبط، أو حسد حاسد، واحذروا أهل زمانكم حذركم اللصوص، واتقوهم اتقاءكم الجرب، فإن الطبع لص، وأكثر الخلق مفرطون.

فاتركوا أهل الزمان وكونوا مع السالفين من الأئمة والعلماء، من المحدثين والفقهاء، والشعراء والأدباء، إن لم يكن مع أجسامهم، فمع ما خلفوه من علم في مصنفاتهم.

ثم اعلموا أن العلم شجرة، والعمل ثمرته، ولا خير في شجر لا ثمر فيه.

فإذا حرصتم على الازدياد من العلم، فكونوا أشد حرصا على الازدياد من العمل، وإلا كنتم من المستكثرين لحجج الله تعالى عليهم يوم القيامة.

ورحم الله القائل:

لا يزال العالم جاهلا حتى يعمل بعلمه، فإذا عمل فقد علم.

وإن منحكم الله تعالى شيئا من علمه فلا تضنوا على الناس بأن تنشروه وتبثوه بينهم، فلا خير في علم لا ينتفع منه الناس، واعلموا أن للعلم زكاة، وزكاته هي أن تعلموه غيركم، فإن لم تفعلوا أوشك الله أن يمحقه ويمحقكم.

وقبل أن أودعكم أرجو منكم أن لا تنسيكم زحمة الحياة، وكثرة الأعباء، واقتحام الهموم، شخصا أحبكم وأحببتموه، وأدناكم من نفسه وأدنيتموه، واتخذكم أبناء له يوم لم يكن له ولد.

فإن كان أحد منكم يرى أن له عليه فضلا ولو يسيرا فلا أقل من يقابل الإحسان بالإحسان، بأن يسأل عنه حيا بين الحين والآخر، وأن يترحم عليه كلما تذكره بعدما يواريه التراب.

وأما عنه فلا يحتاج بعدما أسلف أن يقول لكم:

لن أنساكم ما حييت.

****

(الفصل الثاني)

٢٠٠٥م

كبر خالد وأحلامه وأمانيه تكبر معه يوما بعد يوم إلى أن أصبح في السنة الأخيرة من المرحلة الثانوية، ولم يعد أمامه سوى بضعة أشهر ليصبح على مشارف الولوج بقدميه إلى باب الجامعة التي كان يتوق إلى دخولها، كان لا يزال يحمل بين جنبيه أمنية أخيه منصور حينما كان في مثل عمره، وهي أن يدخل كلية الشرطة، ولكن أمه لم تشأ له إلا أن يكون طبيبا، فلعله يكون في يوم من الأيام سببا في أن ينتشل أخته من بين أنياب إعاقتها التي نغصت عليها عيشها، وكدرت عليها حياتها.

كما أن منصور قد كبر أيضا وأصبح رجلا مِلْأ العين والمكان، كانت أمه دائما تقول لهم أن منصور هو أكثرهم شبها بأبيهم.

كان منصور طويل القامة عريض المنكبين، وسطا بين النحافة والبدانة، ولكنه أقرب إلى النحافة منه إلى البدانة، غير أن بشرته لم تكن سمراء كوالده وأخيه وإنما شابه أمه في هذه الصفة، فكان أبيض البشرة، ولم يكن وجهه مستديرا كوالده، وإنما مطاولا كالسيف، لم يكن يكدر صفو هذه الوسامة التي يتلألأ وجهه فيها إلا ما كان يعلوه من تعب العمل، وما كان يظهر عليه من الإرهاق والمشقة من عمله طوال النهار.

كان شاربه الطويل يعطيه هيبة وعمرا أكبر من عمره الحقيقي، ومع هذا فقد كان حريصا على إبقائه بشكل غريب، لدرجة أنه ذات يوم تشاجر مع الحلاق لأنه قام بتقصيره أكثر من القدر الذي طلب منه أن يتركه عليه.

كان له في الشارب فلسفة غريبة، وهي أنه إحدى علامات الرجولة!

كان خالد يحب أخاه منصور كثيرا ويرى فيه الرجل الذي يجب أن يكون مثله لهذا كان يقلده من غير أن يشعر في أمور كثيرة، وإذا تكلم معه لم يرفع فيه وجهه هيبة له وإجلالا.

ومع كل هذه الهيبة التي كانت له عنده إلا أن هذا لم يكن حاجزا بينه وبين صداقته معه، فكان يخبره بالكثير مما يدور بداخله، ويطلعه على الكثير من أسراره التي لم يكن يخص بها أحدا باستثنائه هو وصديقه محمود.

كان يرى فيه الأب الشفيق، والأخ المعين، والصديق المخلص.

الشيء الوحيد الذي كان ينقمه عليه هو إدمانه للسجائر وشراهته في التدخين، وكثيرا ما كان ينصحه بأن يقلع عنها مغلفا كلماته بالأدب وهو على ذكر بأنه يتحدث مع أخيه الأكبر.

كان يعرف أنه لا يشربها اشتهاء لها أو طمعا في لذة يجنيها من وراءها؛ ولكن ليتسلى بها عن بعض همومه التي كان على رأسها أنه قد أصبح مسؤلا عن أسرة كاملة قد وضعت على عاتقيه كل آلامها وآمالها وهو بعد في مطلع الشباب.

فالهموم بحر مغرق ليس له ساحل، السابح فيه يحاول أن يتشبث بأي شيء في محاولة منه للهروب قبل أن تبتلعه أمواجه العاتية، وكان هذا الشيء الذي لجأ إليه منصور هي تلك السجائر.

لم يكن يجهل ما بها من ضرر، ولا ما يجنيه من ورائها من خسائر أهونها ما يبذله فيها من أموال، ولكنه كان يعرف أيضا أنها لن تكون أضر عليه من بعض أحزانه.

كان يرى الأحزان تحيط به من كل جانب، فكان يراها في التعليم الذي اضطر لأن يغادره وهو على عتبة الجامعة، وفي أخته القعيدة التي سلبت منها عافيتها، وفي نظرات أمه الحزينة إليها والتي بدورها تجدد عليها الآلام، ويراه في الفقر الذي استوطن البيت فقال له بلسان حاله: لا تتعب نفسك في طردي فإني هاهنا من القاعدين!

وفي الوحدة التي كان يشعر بها دائما من جراء إقامته في مكان ليس له فيه قريب.

فاجتمعت له في أسرته كل أسباب التعاسة من يُتم ومرض وفاقة وغربة.

وأما خالد فقد كان شأنه شأن أخيه، كان يحمل نصيبا من تلك الهموم التي يحملها، غير أنه لم يكن بيده أي حيلة معها غير أن يذاكر ويجد ويجتهد قدر استطاعته، فكان يواصل في مذاكرته الليل بالنهار، واضعا نصب عينيه أمنية أمه في أن يصبح طبيبا، مع أنه لم يمضِ على بداية الدراسة غير أسبوع واحد.

كان يعرف أنه أمل الجميع في أن يتغير وضع المنزل على يديه، فجعل أملهم نصب عينيه.

لم يكن يخاف من شيء كخوفه من أن يخذلهم في أملهم، أو أن يخيب ظنهم فيه على غير اختيار منه.

ولأنه لم يكن يحب أن يكون عالة على البيت أو ثقيلا على منصور فقد عرض عليه أكثر من مرة أن يعمل معه في الورشة حتى يعينه في النفقة، ولكنه لم يكن يلقى من منصور غير الرفض.

وفي آخر مرة عرض عليه أن يعمل معه في الورشة أو في أي شيء آخر نهره منصور ثم قال له بعض الكلمات التي ظل صداها يتكرر في أذنه وقتا طويلا:

ـــ لا تحدثني في هذا مرة أخرى يا خالد حتى لا أغضب منك.

أنا لا أريدك أن تكون مثلي، ما أنا فيه الآن هو قدري الذي كنت حتما سأصطدم به، فلماذا تريد أنت أن تسعى إليه مع أن بإمكانك الفرار منه!

كنت أتمنى أن أواصل دراستي وأدخل الجامعة وأن أتفوق فيها ثم أتخرج منها وأنا من أرباب العلم.

ولكن لو فعلت هذا لما كان أمامنا إلا أحد خيارين، إما أن نموت جوعا، أو أن تحترف أمك مد يدها للناس تسألهم الإحسان إليها.

لقد تركت دراستي يا خالد من أجلك أنت، فأنا أرى نفسي فيك، كل منا انعكاس للآخر يا خالد، لن أشعر أبدا بأي خسارة مادمت تسعى جاهدا نحو الأفضل.

لست أريد منك شيئا أكثر من ذلك، أن تكون ذلك الشخص الذي حلمت أن أكون مثله في يوم من الأيام، أريد أن أفتخر بك أمام الدنيا وأنا أشير إليك وأقول أمام الجميع هذا أخي.

وكن على يقين بأني لن أبخل عليك يوما من الأيام بأي شيء تحتاجه.

ثم أخرج من جيبه عشرين جنيها فأعطاهم له وهو يبتسم ويقول له:

وهذا أكبر دليل على كلامي، خذ هذه الجنيهات، لابد وأنك تريد شراء بعض الكتب وتستحيي أن تخبرني.

كانت سميرة والدة خالد في ذلك الوقت قد اعتزلت الخياطة بعد إلحاح شديد عليها من منصور وخالد، لاسيما وقد بدأ الإرهاق والتعب يستوطنان جسدها من آن إلى آخر، وضعف نظرها حتى أمرها بضرورة ارتداء نظارة، ولكنها رفضت أن ترتديها رفضا مطلقا، متعللة بأنه لا يليق بامرأة أمية لا تقرأ ولا تكتب أن ترتدي النظارات التي أعدت للمثقفين والمتعلمين.

وكأنها كانت ترى أن الرؤية بشكل جيد ليست حقا لامرأة أمية مثلها!

ومن حينها فقد أصبح العائل الوحيد للأسرة هو منصور، والذي كان من جانبه يعمل في الورشة بجد، إلى أن أصبح فيها نجارا محترفا، وكان راتبه في اليوم يصل إلى أكثر من خمسين جنيها، فكان يعطيهم جميعا لأمه، باستثناء ما يكفيه لشراء السجائر، وكانت تأخذ منهم ما يحتاجه البيت والباقي تدخره له لأجل زواجه.

وفي أحد الأيام بعد أن انتهى منصور من العمل رجع إلى البيت فوجد أمه جالسة على كنبة الصالة منتظرة عودته.

فقالت له:

ــ تعالَ يا منصور اجلس بجواري، أريد أن أحدثك في أمر هام.

أقبل نحوها،ثم جلس عن يمينها وقال لها:

ــ خيرا يا أمي، ما الأمر؟

ــ خيرا إن شاء الله يا ولدي، أريد أن أتكلم معك في شأن زواجك.

ــ زواجي أنا!

ــ نعم يا منصور، ومن غيرك إن لم يكن أنت.

ــ لكنك تعرفين يا أمي أني لا أفكر في هذا الأمر الآن، ليس قبل أن ينتهي خالد من دراسته، وإلا فمن أين لي أن أتمكن من إعانة البيت والتفكير في زواجي في آن واحد!

ــ الأيام تجري يا ولدي، وأنا إن عشت لكم اليوم فلن أعيش لكم غدا، وكما ترى فقد بدأ الضعف يدب في جسدي، وأنت وأخوك بحاجة إلى من يعتني بكم، ويقضي لكم حاجاتكم، وأختك المريضة أيضا بحاجة أيضا إلى من يعتني بها، وأخاف أن يدركني الأجل قبل أن أطمئن على مصيرها من بعدي.

ــ أطال الله عمرك يا أمي، لا تقولي هذا.

ــ الله وحده هو من يعلم متى يحين الأجل وينتهي العمر، وقد اخترت لك عروسا لا أظنك تعترض عليها.

ــ ومن هي يا أمي؟

ــ علياء ابنة عمك عبدالفتاح جارنا بائع الأحذية، هي فتاة عاقلة، وقد حصلت على الدبلوم هذا العام، وهي من أسرة تشبه أسرتنا في حالتها المادية، فلن يرهقونا في شيء.

ــ خيرا إن شاء الله يا أمي، دعيني أفكر في الأمر وأسأل عن الفتاة جيدا، وسأرد عليك بعد يومين إن شاء الله.

ثم قام من جوارها بعد أن استأذنها في القيام ليدخل إلى غرفته التي يشاركه فيها خالد، فوجده جالسا على السرير ممسكا بكتابه يذاكر فيه، فسأله:

ــ كيف حالك مع المذاكرة يا خالد؟

ـــ الحمد لله يا أخي، أذاكر دروسي أولا بأول حتى لا تتراكم علي، أحتاج فقط إلى دعائك.

ـــ دعائي فقط هو الذي تحتاج إليه؟ ألا تحتاج إلى شيء آخر؟

ـــ أي شيء تقصد؟

ـــ أقصد الوعد الذي كنت قد وعدتك به منذ أسبوعين، لا أظنك قد نسيته، فقد بدا البِشر والسرور على وجهك عندما أخبرتك به.

ـــ لعلك تقصد المكتب الذي وعدتني أن تصنعه لي بنفسك حتى يُيسر علي المذاكرة.

ـــ هو ذاك، لقد انتهيت منه بالأمس، واليوم سوف نقوم بطلائه بلون مناسب، ثم أجلبه لك بنفسي إلى البيت حتى يعينك على المذاكرة يا طبيب الأسرة.

ابتسم خالد ابتسامة رضى وإعجاب بأخيه واهتمامه وهو يقول له في بشر وابتهاج:

ـــ لا حرمني الله منك يا منصور، وأعانني الله على رد جميلك وأياديك التي لا حصر لها.

ـــ أيها الطبيب الأحمق، هل يوجد ما يسمى بالجميل بين الأخ وأخيه!

لا أحب أن أسمع منك هذا الكلام مرة أخرى، والآن دعك من الثرثرة والكلام الكثير وأكمل مذاكرتك، ولكن ستواصلها على الأرض لأنني في غاية الإرهاق الآن وأحتاج إلى أن أنام قليلا، وأنت تعرف أني دائم التقلب أثناء نومي، فإن ظللت مكانك بجواري وأنا نائم على السرير فلن تتمكن من مذاكرة حرف واحد.

فبادره بابتسامة أخرى ثم قال له:

خذ راحتك، قد انتهيت من المذاكرة، وسأخرج لبعض الوقت كي أستعيد نشاطي.

ــ بالتوفيق يا خالد، ولكن رجاء أغلق الباب وأطفئ المصباح وأنت خارج.

أفعل إن شاء الله، السلام عليكم.

ــ وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته.

****

اقتربت امتحانات خالد، ولم يعد بينه وبينها غير أيام قليلة، وفي هذه الأثناء كان قد اقترب موعد زواج منصور وعلياء ابنة جارهم الحاج عبدالفتاح، والتي اقترحتها عليه أمه فنالت إعجابه بعد أن رآها ورأته، ومع كونها لم تكن على قدر عال من الجمال إلا أنه وافق على الارتباط بها حتى تعين أمه على أعباء المنزل التي لا تتفرغ لها إلا بشق الأنفس بسبب انشغالها بزينب وخدمتها لها، وأيضا لأن الحالة المادية لوالدها كانت تشبه حالتهم، فاطمأن إلى أنهم لن يرهقوه في شيء يتعلق بالماديات.

حين تكون معوزاً في زمان الماديات فعليك أن تتنازل عن أشياء كثيرة في عروس المستقبل مقابل أن ترضى أن تشاطرك لقب فقير.

على الرغم من أن علياء كانت تتعامل مع خالد وأمه بطريقة مهذبة، وتتودد إلى زينب ببعض الهدايا المتواضعة التي كانت ترسلها لها مع منصور إلا أن خالد كان يجد في نفسه شيئا منها.

كان يشعر بوجود حاجز نفسي بينه وبينها يجعل كلامها ثقيلا عليه، بل حتى مجرد الجلوس معها لم يكن أمرا مرغوبا فيه عنده، ولكنه لم يكن يتفوه بهذا الأمر مع أي أحد.

ولأن منصور قد اشترط على والدها أن تعيش معه بعد زواجه منها مع أمه وإخوته فقد كان البيت واقفا على ساق وقدم استعدادا لزواجه، في كل يوم يتم استدعاء عاملٍ أو أكثر لأجل تصليح بعض الأمور في المنزل من سباكة وكهرباء وسيراميك وغير ذلك حتى يكون مؤهلا لاستقبال العروس الجديدة، مما خلق لخالد مناخا غير مشجع بالمرة على المذاكرة، فتارة كان يسمع التخبيط المزعج الذي يفقده انتباهه وتركيزه أثناء المذاكرة، وتارات أخرى ينادي عليه أحد العاملين في المنزل ليطلب منه كوبا من الماء، أو كوبا من الشاي، وكثيرا ما كانوا يستدعونه للوقوف بجانبهم؛ فلربما احتاجوا إلى إحدى أدواتهم فيناولها لهم، أو يحتاجونه لشراء شيءٍ من الخارج فيذهب لجلبه.

بشق الأنفس ربما تمكن من اختلاس بعض الوقت، فيذهب إلى الجامع الأزهر مستدعيا كامل ما عنده من نشاط وانتباه ليتدارك ما ضاع منه من الوقت، إلى أن تم زواج أخيه.

كان زواج منصور يحمل في متنه سعادة كبيرة لسميرة، إذ كان هو الفرحة الكبرى التي طال انتظارها لها.

كانت دائما ما تردد قولها:

ــ أخشى أن أموت قبل أن تتزوج وأحمل أبنائك يا منصور.

كانت سعادتها لا تحد بشيء لكونها قد حققت النصف الأول من أمنيتها التي طال انتظارها لها.

وأما خالد فلم تكد الدنيا تسعه في يوم زفافه، فقام بدعوة جميع أصدقائه المقربين منه وعلى رأسهم محمود صديق طفولته.

وبعد ساعة ونصف من الغناء والرقص الذي لم ينقطع من أهل علياء وأقاربها وكذلك من بعض أصدقاء منصور وخالد حانت لحظة قيام العروسين، وانتهى ذلك الضجيج المحبب والذي كان يعج به شارعهم عجّاً.

فرغ خالد من زواج منصور فوجد الأيام قد أسلمته إلى الامتحانات، والتي لم يكن قد استعد لها الاستعداد اللازم نظرا لانشغاله بزواج أخيه، وأيضا نظرا لحمى شديدة نزلت به أثناء الامتحانات فظل يصارعها وتصارعه حتى نجا من بين أنيابها بأعجوبة بعد أن تمكنت من الحيلولة بينه وبين كلية الطب التي كانت ترجوها أمه له من أجل أخته المعاقة، فأتت النتيجة بعد ذلك مُبشرة بالسوء، حيث أن مجموعه الكلي في قسمه العلمي الذي اختاره كان ٩٠% فلم يلمه على مجموعه هذا أحد في البيت؛ حيث أنهم ما توقعوا له غير هذا بعدما فعلت به الحمَّى ما فعلت.

كانت أمه على يقين بأن الذي حدث له إنما هو من جرَّاء الحسد الذي كانت تخاف عليه منه طوال الوقت.

ما كان منه إلا أن حبس نفسه في غرفته التي تفرد بها وحده بعد أن أصبحت زينب تنام في غرفة أمها تاركة غرفتها لمنصور وعروسه الجديدة بشكل دائم، ظل فيها يومين كاملين بلا طعام أو شراب حزنا وأسفا على أمل أمه المنشود، والذي كان عسيرا عليه أن يجد نفسه يخذلها فيه.

وأيضا لأنه كان يعلم أن سهام الشماتة ستصوب نحوه بمنتهى الشراسة عن قريب من قبل بعض زملائه في الدراسة الذين كانوا دائمي الحقد عليه والحسد له لا لشيءٍ إلا لأنه كان متفوقا عليهم، وحاصلا على الصدارة دونهم.

لم تكن تؤلمه الشماتة قدر ما كان يؤلمه شعوره بخذلان أقرب الناس إليه.

فحبس نفسه، وفي حبسه زادت أحزانه حتى تضاعفت بعد أن تصورها شبحا يريد التهامه فبكى وصرخ ولكنه في النهاية رضي بالأمر الواقع والذي لم يكن بيده أي حيلة أمامه إلا أن يرضى وقد وقع المقدور.

ثم رجع إلى حلمه الأول والذي كان حلم أخيه منصور من قبل، ألا وهو أن يلتحق بكلية الشرطة، كأنه كان يريد أن يحقق أمنية أخيه التي حالت الظروف القاسية بينه وبينها

ثم يهديها له كتعبير عن حبه له، وإقراره بما له عليه من فضل ومنة.

ومع أنه كان يعرف أن الأمر فيه من الصعوبة ما فيه، إلا أنه أيضا كان يعرف أنه ليس بمستحيل، لاسيما ووالد صديقه باسل والذي يعمل عقيدا في الجيش يحبه كثيرا ولا يفرق بينه وبين باسل في المعاملة.

وأما عن مجموعه فكان يتجاوز المجموع الذي تشترطه كلية الشرطة بكثير، فزاد في أمله وضاعفه في نفسه أنه أصبح مستوفيا لجميع شروط الالتحاق بالكلية؛ فمجموعه كبير، والواسطة التي ستعينه على ما عزم والتي لن يتم الأمر بدونها موجودة، وبنيته لائقة بشكل كبير.

عرض الأمر على منصور فرفض أول الأمر فما زال به حتى أقنعه بأنه لا بأس من المحاولة حتى وإن باءت بالفشل في النهاية.

وذهبا معا لعرض الأمر على أمهم، فما أن سمعت منهم ما عرضوه عليها ورأت الحماس في صوت خالد، والتفاؤل جلي على نبرة صوته وصفحة وجهه حتى صعقت من فورها، وغطت الكآبة وجهها فلم تدرِ ما تقول.

أخذت تتمتم وتتلجلج في الكلام، ثم سيطرت على أعصابها واستجمعت تركيزها المشتت وقالت له:

ــ أما وجدت كلية غير هذه؟ ما لنا نحن بها يا خالد؟!

ـــ وماذا فيها يا أمي! إنها كلية رفيعة الشأن عالية المقام، إن تم قبولي فيها فسوف يتغير وضعنا كله رأسا على عقب، وسيكون الزمان قد تبسم لنا بعد طول عبوس.

ثم عقب منصور على كلامه فقال:

ـــ نعم يا أمي، صدق خالد فيما يقول، ثم إنها كانت أمنيتي الأولى، وقد سرقها مني ذاك الشقي، ثم قال مداعبا:

ـــ ذاك الشقي دائم التقليد لي.

ـــ ولكن من الممكن أن يحاول ذلك ثم يفشل فيه.

ـــ بالتأكيد يا أمي هذا أمر وارد بلا شك، ولكن لن يخسر شيئا من المحاولة، وربما وفقه الله لذلك فيكون فاتحة خير علينا جميعا، ويكون قد عوضنا الله بدلا عن الطبيب الذي كنا ننشده ضابطا في الشرطة.

أقبلت علياء من غرفتها، وعلى ما يبدو فقد كانت مصغية لكل ما دار بينهما، فقالت:

ـــ لا أدري لماذا يا عمتي أنت مصممة على الرفض، لا تكسري بخاطر خالد، دعيه يجرب حظه، من يدري فربما كان حظه أوفر من حظ أخيه.

ـــ ومن قال أني أريد أن أكسر بخاطره! أنا فقط أريده أن ينأى بنفسه عن أي أمر قد يكون سببا في إحباطه مرة أخرى، فهو حديث العهد بصدمته في المجموع الذي حصل عليه.

نكس خالد رأسه، ثم قال وقد انقلب حماسه إلى حزن، ونبرة صوته المتفائلة إلى نبرة منهكة ويائسة:

ـــ كما ترين يا أمي، ثم قام من مجلسه ودخل إلى غرفته، فاستأذن في الانصراف منصور كي يذهب إلى الورشة، وذهبت علياء كي تقوم بتنظيف الأواني في المطبخ، وظلت سميرة جالسة في مكانها وقتا طويلا غارقة في الفكر وحالتها على ما يرضي العدو ويُسِئ الحبيب.

مرت عدة ساعات إلى أن خرج خالد من غرفته متجها إلى باب المترل، فسألته أمه:

ـــ إلى أين أنت ذاهب يا خالد؟

ـــ إلى صلاة العصر يا أمي.

ـــ لا تتأخر، فعلياء تحضر الغداء.

ـــ إن شاء الله يا أمي.

مضى متجها إلى الجامع الأزهر، ومع كونه لم يكن أقرب المساجد من مترلهم إلا أنه كان لا يصلي غالبا إلا فيه.

وبعد صلاة العصر قابل صديقه المقرب إليه محمود.

كان محمود يشبه خالد في بعض الصفات الخِلقية ويختلف عنه في بعضها، فكانت قامته طويلة مثله، وربما كان أطول منه ببعض السنتيمترات القليلة، وكان معتدل البنية، عريض المنكبين، وأما بشرته فلم تكن سمراء ولكنها كانت وسطا بين السمرة والبياض، ولكنها كانت أقرب إلى البياض منها إلى السمرة، وكان وجهه في الجملة وسيما وجذابا بشكل كبير.

سأله محمود وقد أدرك تغيره:

ـــ مالي أراك مهموما حزينا يا خالد؟

لا شيء يا محمود، ربما فقط بعض الإرهاق.

ـــ خالد، هل ستخفي عني ما بك؟ تعلم أنني أعرف كل ما بداخلك من نظرة واحدة إلى عينيك.

هل أنت حزين من أجل الشماتة التي تلقاها من بعض زملائنا فيك بعد ظهور النتيجة؟

ـــ كلا يا محمود، فأنا لا أكترث لمثل هذه الأمور التافهة.

ـــ فما بك إذن؟ هل حدث خلاف بينك وبين أخيك منصور؟

ـــ قطعاً لا، ليس شيئا مما تتوهم، ثم أخبره بالذي جرى بينه وبين أمه وأخيه من أوله إلى آخره، ثم أردف قائلا:

ـــ أشعر أن جميع أحلامي وطموحاتي تتحطم أمامي في تتابع يوما بعد آخر من غير أن أتمكن من فعل أي شيء، فلا أنا بالذي دخلت كلية الطب، ولا حتى أدركت كلية الصيدلة أو الهندسة كما أدركها البعض ممن لم تكن بيني وبينهم مقارنة كما كنت تقول أنت دوما لي، والآن حينما أردت أن أمضي قدما نحو حلمي القديم أيام الصغر إذ بي أجد أمي تحول بيني وبينه من غير أن تبدي أسبابا مقنعة لذلك.

بدأت أشعر باليأس من كل شيء، لا أعرف لماذا كل الأشياء تسير عكس ما أخطط لها!

ـــ لا بأس يا صديقي، هكذا هي الأيام، تمر على الجميع بالسعد والنحس، فارض بما قسمه الله لك واقنع.

ـــ قد رضيت وقنعت يا محمود، وليس مع القدر حيلة، ولكن هل ينافي الرضا بالقضاء أن أحاول إمضاء حلم لي، وأن أسعى إليه حتى وإن كانت النتيجة في النهاية هي الفشل أو الإخفاق!

على أي حال دعك مني الآن وأخبرني كيف هو حال والدك، ألا يزال يتعامل معك بفظاظة؟

ـــ أجل يا خالد، من لحظة ظهور النتيجة وهو يتعامل معي باحتقار وازدراء شديد، حتى أنني حدثت نفسي أكثر من مرة بأن أترك له المترل وأذهب إلى أي مكان بعيدا عنه وعن فظاظته، ولكني لا أعرف أي مكان يمكنني أن ألجأ إليه فرار منه.

يعاملني وكأنني بحصولي على ٨٠% في الثانوية قد أذنبت أو أتيت جرما لا يغتفر، وكأنه لم يكن هو السبب في ذلك، كان يمنعني بخله من كثير من الأشياء التي كنت أحتاج إليها، بل لم يكن يسمح لي بأخذ الدروس الخصوصية التي كنت أحتاجها بحجة أنها تطغى على وقت المذاكرة وتلتهمه، والجميع في البيت وأنا أولهم يعلم أنه ما منعني عنها إلا لبخله وشحه. سامحه الله.

ـــ إذن فكلنا في البلاء يا صديقي.

ما رأيك في أن نذهب إلى حديقة الأزهر لعلنا نخرج مما نحن فيه ولو قليلا.

ـــ مع أنني لا أكن للحديقة كل هذا العشق الذي تكنه لها، ولكن لا بأس بأن أذهب معك، لعلها تروح عنا وتخرجنا من هذا الهم الذي نزل بكلينا، هيا بنا.

****

وفي الحديقة وهما يتجولان معا بدأ محمود الحديث قائلا:

ــ حدثني عن سر عشقك يا خالد لهذه الحديقة، فأنا أعرفك مولعا بها.

ــ تعرف أن الجمال بشكل عام يستهويني، وما إن أدخل هذه الحديقة حتى أجد الجمال فيها متجسدا في كل شيء، فأجده في هذه النوافير التي تصادفها أمامك بمجرد أن تدخل من باب الحديقة فتنطلق من بطن الأرض وكأنها سهم يريد أن يصيب كبد السماء، وكلما فشل في الهدف أعاد الكرة من جديد من غير يأس أو فتور، والأطفال حولها يستمتعون بمنظرها، ويتلهون باختراقها مرة بعد أخرى.

وأجده في هذا اللون الأخضر الذي ينتشر في أرضية الحديقة انتشار الجراد في عنان السماء في موسم الهجرة، وأجده في هذه الأشجار الكثيرة المتناسقة التي تحيط بها من جميع جوانبها إحاطة العقد بنحر الحسناء، والنخيل الذي يقف شامخا في تيه وزهو مفتخرا بحسن منظره وطول قامته.

وأجده في بحيرة الماء التي راحت تمكث بعيدا في آخر الحديقة تنشد السكون، وما أروعها حين تكون صافية والناس يقفون حولها فكأنها عروس يوم زفافها، تلقى الجميع بوجه طلق وثغر باسم، وما أروع هذه النوافير المستقرة في رحمها حين تعلن التمرد على سكونها وهدوئها، ثم ترفع في وجهها راية العصيان على مرأى ومسمع من جميع الشجيرات الصغيرة الملتفة بها والتي تحيطها من كل جانب، والنخيل الشامخ الذي يكاد من شدة زهوه يخترق السحاب.

وإني لأعشق هذه الحديقة الساحرة على جميع حالاتها.

فأعشقها حين تكون مزدحمة في أيام العطلة بصنوف الناس من الأطفال الذين أقبلوا مع أهلهم وذويهم يقصدون اللهو والمرح وبراءة الأطفال تنعكس على وجوههم الصافية من جميع الأدران والأحقاد، والشباب اللذين يقصدونها لما فيها

من جو مفعم بالعشق والحب الذي يتطلعون إليه ويحلمون به، ومنهم من حصل عليه بالفعل فيأتي بمحبوبته إليها ليسمعها أروع كلمات الحب وأبدع جمل العشاق في أكثر الأماكن تشجيعا على الحب وعلى الإبداع في التعبير عنه بشتى الطرق والوسائل، وكأنهم يريدون شاهدا مرهف الإحساس مثلهم على صدق مشاعرهم يبعثون به شفيعا إلى من يحبون فلم يجدوا غير هذه الحديقة بما فيها من هيبة وجلال، ورقة ووداعة.

والشيوخ الذين أضناهم السير في طريق الحياة الذي طال بهم، فأتوها كي يستريحوا قليلا من عناء السفر، ومشقة السير، ويسترجعوا ذكريات بداية الرحلة، وأول عهدهم بها حين شرعوا فيها وهم أطفالٌ صغارٌ، فانتهت بهم وهم شيوخ قد أحنى الزمان ظهورهم، وأشعل الشيب في رؤوسهم.

وهؤلاء الأطفال والشباب والشيوخ قد أتوا جميعاً وبداخل كل منهم من الآلام والآمال ما لا يعلمها إلا الله، ولم يتفقوا جميعا إلا على شيء واحد، وهو الظفر بالسعادة من خلال بعض الدقائق التي يختلسوها من الزمان داخل هذه الحديقة.

وأعشقها حين تكون صامتة من كل شيء إلا صوت خرير الماء، خالية من كل شيء عدا أشجارها المتمردة، متجردة من كل شيء إلا نسماتها التي تُبرئ العليل من علته، والمريض من سقمه.

وحينها تسمعك الحديقة أجمل الألحان والأغنيات التي يتحد كل جزء فيها من ورد وشجر، وماء وحجر،وأغصان تستضيف على متنها العصافير، ونسمات تداعب وجنتيك كالحرير، في إخراجها لك في أبدع صورة، فتخرجك من عالم الواقع إلى عالم الخيال، وتحملك على بساط من الأحلام لتطير بك خارج الزمان والمكان.

وأنت حين تستمع إلى ألحانها وتطرب مع العصافير بأغانيها لا تسمعها بأذني رأسك، ولكن بأذني قلبك، ولا تبصر مما فيها شيئا بعيني وجهك، ولكن بأنوار بصيرتك.

ثم تابع كلامه قائلا:

ـــ انظر يا محمود إلى هؤلاء الصبية الصغار الذين يلعبون غير مكترثين بالأمس ولا مبالين بالغد، يلعبون ويمرحون ويركضون فاتحين للدنيا أذرعهم، هذا المشهد كلما رأيته اغتبطت الأطفال، فمن أراد أن تغمره السعادة فلينظر إلى الدنيا بعيني طفل.

كم وددت أن لو رجعت إلى طفولتي ولو يوما واحدا، ولكني أريد يوما سعيدا من أيام هؤلاء الأطفال المحظوظين بآبائهم وأمهاتهم، لا من طفولة البؤس والحرمان التي عشتها في صغري.

قاطعه محمود قائلا:

ـــ وأي حرمان قد رأيته مقارنة بما رأيته أنا يا خالد!

فقد حرمني بخل أبي من متع كثيرة أنا وأمي وسائر إخوتي حتى جعلنا جميعا نتمنى رحيله اليوم قبل الغد؛ حتى نتمتع بأمواله التي جمعها وحرمنا منها.

قل يا رحمة الله على أبناء البخيل يا صديقي؛ إذ كيف يهنأ لهم عيش في الدنيا مع والدهم والجنيه أحب إليه منهم.

إن فقد جنيها كاد الحزن يفلق كبده وكأنه قد فقد بفقده سعادته فبانت منه بضياع جنيهه بينونة كبرى فلا رجعة بعدها إليه أبدا!

قد أحال بينهم وبين استمتاعهم بالدنيا وزهرتها ما بوالدهم من شح، فإن طالت به الحياة أهلكهم بخله وأضناهم، وإن قصرت به مزقهم ألم اليتم ولوعة الفراق.

إن فتشت عنهم في الأغنياء لم تجدهم، فما حياقم هذه بحياة الأغنياء، وإن فتشت عنهم في الفقراء لم تجدهم، وكيف يكون الأبناء فقراء ولأبيهم من مال قارون نصيب!

ما أراهم إلا أغنياء مع إيقاف التنفيذ، أو فقراء إلى أن يأتي ملك الموت لأبيهم زائرا، أو أن يشاء ربك شيئا.

وأي شقاء كشقاء الأبناء بوالدهم البخيل الذي يزداد مع الأيام بخلا، فكلما تقدم به العمر كلما ازداد هو على بخله بخلا، حتى ليكاد يُحرِّج عليهم الاستنشاق بفتحتي الأنف، والرؤية بكلتا العينين؛ لأن هذا عنده من الإسراف المذموم، والتبذير الممقوت، وهو لا يعرف من كتاب الله غير قوله تعالى: (إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين).

ــ ذكرتني بشيء كنت قد كتبته عن والدك منذ بضعة أشهر حينما ضاعت مني النقود التي أخذها من أمي كي أساهم بها في شراء الفاكهة التي كنا سنأخذها معنا عند زيارتنا لباسل حينما كان يرقد مريضا، ساعتها ذهبت معك إلى والدك أملا في أن يجود عليك بجنيه واحد زيادة تدفعه بدلا عني للسائق عند ذهابنا إلى المشفى حيث أن النقود كلها كانت قد سقطت مني بما فيها أجرة السيارة، فذهبت تطلب من والدك بعض الجنيهات كي نذهب، وقد صادف ذلك وقتها ساعة غضبه فانفجر فيك كالبرق وهو يقول لك:

ــ لعنة الله عليك وعلى صديقك وعلى الأموال التي كادت تجننكم، أما تعرفون في دنياكم غير هات وفقط!

لن أعطيك أي شيء، اغرب عن وجهي، فأخذنا نهرول معا خوفا من الشرارات التي كانت تطلقها عينيه المحمرتين، وخشية أن تنال قبضته القوية من وجه أحدنا فتجعله عظة للمتعظين، وعبرة للناظرين، وأضحوكة للمستهزئين.

فاضطررنا ساعتها إلى أن نذهب إليه في المشفى مترجلين، فما إن وصلنا حتى وجدنا موعد الزيارة قد انتهى، فجلسنا أمامها بعد أن كادت أرجلنا تتكسر من كثرة المشي، هل تذكر ذلك اليوم يا محمود؟

ــ وهل هذا يوم ينسى، لقد كان سبب غضب والدي يومها كما أخبرتني أمي بعد عودتي إلى البيت في محاولة إرضاء منها لي هو أن التلفاز قد سقط من أعلى المكتب بسبب شجار بين إخوتي الصغار، فتهشم حتى أصبح هو والخردة سواء، تهورت أمي وطلبت من أبي أن يجلب لنا تلفازا جديدا، فهاج وماج، ثم كان لنا من ثورته يومها نصيب.

ولكن ماذا كتبت عن والدي أيها الشقي، ولماذا لم تخبرني ساعتها؟

ــ خشيت أن تأخذ الأمر بحساسية فتغضب.

ــ وهل أغضب منك أنت يا خالد! هيا اقرأ علي ما كتبت.

ــ حسنا، استمع في صمت إذن:

والد صاحبنا قد بلغ في البخل مبلغا عظيما.

رؤية الدرهم أحب إليه من رؤية الأم ولدها وقد نأى عن الدار، وأحب من رؤية العليل النهار.

إذا أعطيته درهما فكأنما أعطيته ياقوتة،أو أهديته وقد أحرقه الجوع قوته.

أبغض الوجوه إليه وجه السائل، والفقير والعائل، الدراهم عنده في أمان، فلا يقربها إنس ولا جان.

قد أطال لدراهمه الحبس، ودون تسريحها النفس.

أبناؤه فتيان في أجسام شيوخ، وقد أسكنهم في أحقر كوخ.

يقرضك ولده ولا يقرضك دينارا، ولا يرى في نعته بالبخل عارا.

فما أن انتهى خالد حتى انفجر كليهما في الضحك، فقال له محمود:

ــ أحسنت يا خالد، وقد أحسن الكثيرين حين تنبأوا لك بمستقبل باهر في عالم الشعر والأدب، ووالله يا خالد ما قلت غير الصدق ولا نطقت بغير الحق.

ــ شكرا لك يا محمود على مجاملتك، وعلى أي حال فبخل والدك حرمك من متع كثيرة، ولكن موت أبي حرمني من جميع متع الدنيا، كنت أتمنى أن أحرك شفَتَيَّ ولو مرة واحدة بكلمة أبي، تلك الكلمة التي حذفت من قاموسي وكأنها من لغة غريبة عني لم أتعلمها فأنا بها جاهل.

كنت أود أن أشعر بدفء الأب وحنانه الذي قرأت عنه كثيرا من غير أن يكون عندي أي إدراك له، فكأني أقرأ عن وصف شيء مما أعده الله للمتقين في الجنة فليس لي عنه أي تصور أو إدراك حتى أغشاها في الآخرة إن قدر الله تعالى ذلك لي.

ــ دعنا من كل هذه الأحاديث التي تجلب الحزن، فما جئنا هنا إلا لنصرفه عنا لا أن نستحضره بتذكرنا لمآسينا السالفة، هيا بنا نعود إلى الحديث عن الحديقة.

وما إن قال محمود ذلك حتى وقعت عينه على شاب جالس بجوار فتاة وهو ممسك بيدها ومحدق في عينيها، فقال له:

ــ انظر يا خالد إلى هذين العاشقين، كنت منذ قليل تقول عندما رأيت الأطفال أنك تود أن تعيش يوما واحدا من أيام الطفولة، والآن يا صديقي ألا تريد أن تقول بأنك تود أن تعيش ولو ساعة واحدة من ساعات العشاق؟

ــ هل أصدقك؟

ــ ما عرفت عنك غير الصدق.

ـــ إنني أحيانا كثيرة أجول بخاطري في تلك الساعة التي أجدني فيها قد وقعت أسيرا في شباك العشق والغرام، فأظل أسبح في أفكاري وخيالاتي وأنا أحلم بفتاة الأحلام التي تكون بالنسبة إلي ليلى الزمان وأكون لها قيس الأحلام، وفجأة أجدني مستيقظا من أحلامي أو إن شئت فقل من هذياني على حالي البائس الذي قدر الله أن يكون لي واقعا ومصيرا، وأنت أدرى الناس به يا صديقي.

ـــ ولكن منذ متى كان الفقر يحول بين المرء وأحلامه؟

ألست أنت من تقول ذلك دوما!

ـــ نعم أنا من أقول ذلك، ولا زلت أقول به، ولكن يبدو أنني أنا فقط من يقول ذلك، فحتى أمي لا تعترف بهذا الذي أردده دوما كلما سنحت الفرصة، بل وتنكره علي.

لذلك ما إن ألج بقدمي داخل هذه الحديقة الغناء حتى أجدني متحررا من كل شيء ومتجردا من جميع همومي وآلامي، ثم أشعر بالسكينة تغشاني، والسكون يحيط بنفسي الثائرة فيطفئ ثورتها؛ ومن ثم أترك لفكري العنان كي ينطلق مشرقا ومغربا من غير أن يوقفه شيء، وربما كان هذا من أكبر الأسباب التي تجعل خطاي تتسابق إليها كلما غزتني الهموم أو صوبت الأحزان سهامها تجاهي، فأحصل على المتعة التي حرمت منها في عالم الواقع في عالم أحلامي الذي لا يملكه غيري، ولا يدير أحداثه سواي.

ـــ دعني أسألك يا خالد عن أكثر شيء يعجبك في المرأة،هل هو جمالها؟

ـــ كثير من الرجال لا ينظرون إلى المرأة إلا نظرات بهيمية قد تجردت من كل شيء إلا الشهوة! أولئك يرون أن رأس مال المرأة هو جمالها، وما عداه فهو من الأرباح التي تنفعها إن تأتت لها ولا تضرها إن غابت عنها.

فما دامت جميلة فقد جاوزت قنطرة الشقاء، وإن لم يكن لها من الجمال أكبر حظ وأوفر نصيب فهي عندهم مجرمة أو آثمة حتى وإن بلغت فضائلها عنان السماء!

فقليلون هم الذين يجعلون محل نظرهم في المرأة الباطن لا الظاهر، ويحكمون عليها من خلال الجوهر لا المظهر، ويقدرون قيمتها بمدى علمها وثقافتها، لا بقدرتها على الإغراء والفتنة، ويخضعون لرأيها لكمال عقلها وجلاء بصيرتها، لا لحسن وجهها ودقة نحرها وإثارة جسدها.

ولا أخفيك سرا، فأنا يعجبني في المرأة أن تكون جميلة الظاهر، ولكني يعجبني أكثر أن يكون باطنها أجمل من ظاهرها.

إذ جمال الظاهر لا يغني المرأة شيئا إذا كان الباطن مشوها.

ـــ وأنا يعجبني فيك يا خالد هذا العقل الراجح الذي يجعلك تتكلم كالكبار تماما، حتى أنه يصعب على من يسمعك أن يصدق أنكَ لا تزال شابا صغيرا على أبواب الجامعة.

ها هو الليل قد أقبل يا صاحب الأحلام، فهيا بنا نذهب من هنا قبل أن يجعلني أبي أحلم بالطعام بعد أن يمنعه عني بسبب تأخرنا.

نظر إليه خالد متبسما ثم قال له:

ـــ هيا بنا.

****

رجع خالد إلى المترل عشاء فوجد أمه جالسة على كنبة الصالة منتظرة عودته، فلما دخل ألقى عليها السلام، فردت عليه سلامه ثم قالت له:

ـــ لماذا تأخرت يا خالد؟ لقد أقلقتني عليك كثيرا.

ـــ كنت في الحديقة مع صديقي محمود يا أمي، ولكن لم القلق؟ فليست هذه هي أول مرة أتأخر فيها!

ـــ نعم يا بني، ولكنها أول مرة تغادر فيها البيت كل هذا الوقت وأنت غاضب.

ـــ كلايا أمي، لست غاضبا.

ـــ تعال يا خالد اجلس بجواري، أريد أن أتحدث معك.

تقدم نحوها ثم جلس بجوارها، فقالت له:

ـــ هل تحسبني يا خالد أرضى أن أكون حجر عثرة بينك وبين أحلامك؟ كلا يا ولدي، موتي أهون علي من أن أحول بينك وبين شيء تريد أن تحققه ويجلب عليك النفع.

ـــ ولكني لم أقل هذا يا أمي أنا فقط...

وقبل أن يكمل كلامه قاطعته قائلة:

ـــ لا أريد أن أسمع منك تعليلا، لست محتاجا لهذا.

الآن سأطلعك على السر الذي أخفيته عنكم كل هذه السنين، ولكن نادِ على أخيك منصور حتى يشهد ذلكم السر الذي يحول بينك وبين كلية الشرط التي تريد أن تلتحق بها.

ـــ فظهرت علامات الاستغراب والتعجب على وجه خالد، ثم قال لها مندهشا:

ـــ سر؟ أي سر هذا الذي تتحدثين عن إخفائه عنا يا أمي؟ وما علاقته بكلية الشرطة ورغبتي في أن ألتحق بها!

ـــ لا تتعجل يا بني، ستعرف كل شيء الآن بمجرد أن ينضم إلينا منصور.

ذهب إلى غرفة منصور يطرق على بابها طرقا خفيفا حتى خرج، فقال له:

ـــ أمك تريدنا يا منصور لتحدثنا في أمر هام.

فخرج إليهم على الفور ثم جلس عن شمال أمه، ليصبح خالد عن يمينها وهو عن شمالها.

فقال لها منصور:

ـــ ما الأمر يا أمي؟ فتبعه خالد قائلا:

ـــ تقول أمك الآن أنها ستخبرنا بسر قد أخفته عنا زمانا طويلا، وأن لهذا السر صلة بعدم رغبتها في أن ألتحق بكلية الشرطة.

فبدأت كلامها قائلة:

ـــ هل تعرفون كيف مات والدكم؟

فأجاب منصور:

ـــ بالتأكيد نعرف يا أمي، لقد مات في حادث سيارة عندما كان يعبر الطريق فصدمه أحدهم بسيارته ثم هرول مسرعا من غير أن يلقى الخبيث جزاءه، وقد كان عمري حينها سبعة أعوام تقريبا، وكان خالد يبلغ من العمر عامين.

فنكَّست رأسها في الأرض ثم تنهدت وقالت:

ــ هذا ما جعلتكم تعتقدونه.

فبدا التعجب والدهشة على وجه كليهما، ثم قال خالد على الفور مستنكرا:

ــ هل معنى كلامك هذا أن أبي لم يمت في حادث سيارة!

ــ ليته كان كذلك، لهان خطب موته قليلا.

بدا الغضب على وجه منصور ثم قال في حنق وهو يرفع صوته:

ــ وكيف مات والدنا إذن يا أمي إن لم يكن قد مات في حادث السيارة المزعومة؟

فقالت سميرة وهي منزعجة من صوته العالي:

ــ اخفض من صوتك يا منصور، لا أريد أن يسمعنا أي أحد.

كان يعلم أنها لا تقصد غير زوجته علياء، فقال لها:

ــ لا تقلقي، فزوجتي نامت باكرا وهي تشكو من رأسها، ولكن أخبرينا.

ــ لقد كنت عزمت بيني وبين نفسي أن أغلق صفحة الماضي، وأن أواريها عنكم حتى لا تفسد عليكم حاضركم؛ ولكن يبدو أن علي الآن أن أخبركم بكل شيء.

ثم استرسلت في الكلام فقالت:

ـــ لم يمت أبوكم بسبب حادث السيارة كما أخبرتكم حينما كنتم صغارا، ولكنه مات منتحرا، وذلك حين شنق نفسه داخل السجن.

فقال منصور وهو في ذهول تام مما يسمع:

ـــ أبي مات منتحرا؟

ثم قال خالد وشأنه شأن أخيه:

ـــ أبي شنق نفسه، وكان مسجونا أيضا!

قالت سميرة:

ـــ لا تقاطعوني بالله عليكم، فإن في حلقي الآن كطعم العلقم، فاصمتوا إن أردتم أن تطلعوا على سر أبيكم،حتى أخبركم به جملة واحدة.

فصمتوا لتسترسل في كلامها قائلة:

ـــ لقد كنا نعيش أنا ووالدكم في محافظة الاسكندرية، وكان يعمل حارسا في فيلا لأحد الرجال الأغنياء هو وصاحب له.

وقتها كنت حاملا في زينب، وكان عمرك يا خالد عامين اثنين، وكنا نعيش في فقر شديد، لم يكن لوالدكم معين ولا قريب، كان يعيش في هذه الدنيا وحيدا مثلي.

وفي أحد الأيام جاء لصاحب الفيلا اتصال من قريته يخبروه فيه بأن شقيقه قد مات في حادث حريق، وأن عليه الحضور مباشرة ليشهد دفنه وليأخذ فيه العزاء.

لم يعرف الرجل ماذا يفعل، هل يذهب ويترك ابنته الوحيدة في الفيلا وحدها مع الخدم، أم يأخذها معه.

اضطر في النهاية أن يتركها ويسافر إلى قريته ليشهد دفن أخيه بعد أن أوصى أبيكم بأن يعتني بابنته لحين رجوعه بعد يوم أو يومين على أكثر تقدير، لاسيما وأمها قد ماتت منذ ثلاثة أعوام وخلفتها له وحده ولا يوجد من يعتني بها في غيابه.

ولم يتمكن الرجل من أن يأخذها معه لأنها كانت في فترة امتحانات، وكانت في السنة الأخيرة من المرحلة الإعدادية على ما أتذكر، فقد كان والدكم يحبها كثيرا، وكان دائما ما يكلمني عنها.

في ذلك الوقت كان والدكم غارقا في دين اقترضه استعدادا لليوم الذي سأضع فيه، وقد أنفق جميع ما اقترضه قبل أن أضع، ولم يكن يعرف ماذا يفعل، ولا من أين يجلب المال اللازم لوضعي.

فأغراه صاحبه الذي كان يعمل معه حارسا بأن يقوم بسرقة خزينة الفيلا منتهزا فرصة غياب الرجل، على أن يتقاسما معا ما يظفران به منها.

فاستنكر ذلك منه أيما إنكار، وأخبره بأن هذه خيانة للرجل الذي توالت عليه وعلى أبنائه نعمه.

ظل صاحبه هذا يلح عليه ويقول له بأن الرجل لن يكترث لهذه السرقة؛ لأنها لن تنزل به من رتبة ثري إلى رتبة فقير، فأمواله كثيرة ولن تتأثر بهذا الأمر مطلقا، ثم أخذ يذكره بفقره، وأبنائه الصغار، ومولوده القادم، وبضرورة اقتناص الفرصة قبل أن ترحل لأنها قد لا تتكرر مرة أخرى.

وما زال به حتى أقنعه، فقال له :

ــ ولكن لماذا لا تدخل أنت وتسرق الخزينة ما دمت خبيرا بها وبالتعامل معها؟

ــ لأنني لا مبرر لي في الدخول إلى الفيلا، وقد يشك في أمري أحد الخدم، أما أنت فيمكنك أن تدخل في أي وقت بحجة أنك تطمئن على الفتاة.

ــ ولكن كيف سأفعل ذلك؟

ــ الأمر يسير جدا، ستذهب في منتصف الليل إلى الطابق الثاني في الفيلا حيث توجد الخزينة، وستجد مفتاحها على الأرجح في أحد أدراج المكتب، أو في مكان قريب من هذا، وإن لم تحصل على المفتاح فمن اليسير فتحها بطريقة أو بأخرى، ولكن ابحث عن المفتاح أولا.

وعندما شطرت الساعة الليل نصفين ذهب لكي ينفذ ما أملاه عليه صاحبه، وما هو إلا أن شرع في اقتحام الخزينة ومحاولة فتحها حتى رأته ابنة الرجل ولم تتعرف عليه لأجل الظلام السائد، حسبته شبحا فشرعت في الصراخ، جرى عليها يسكتها، ثم وضع يده على فمها في محاولة منه لإسكاتها قبل أن يفتضح كل شيء، فما هي إلا لحظات حتى وجدها قد سقطت من بين يديه جثة هامدة لا حراك فيها.

ذهل مما حدث، ثم خرج مهرولا، فجاءني وهو ينتفض وأخبرني بالذي جرى تفصيلا، فدب الرعب في قلبي، وأخذتني نوبة من الرعشة ثم ظل سائر جسدي ينتفض خوفا من أن يلحقه أذى مما فعل.

ولو أنه أخبرني بالأمر قبل أن يقع الذي وقع لكنت أرجعته إلى صوابه، ولكن هو قدر الله الذي ليس منه مفر أو مهرب.

بعدها بساعات تم القبض عليه، واعترف على صاحبه الذي أغراه بالأمر فأنكر صلته بالحادثة، وقال بأنه لا علم له بشيء مما يقوله.

ثم حكمت المحكمة على والدكم بالسجن المؤبد خمسة وعشرين عاما.

عندما كنت أذهب لزيارته في أو عهده بالسجن كان يخبرني بأنه يرى كل ليلة في نومه الفتاة التي قتلها تدنو منه تريد أن تكتم أنفاسه كما فعل معها تماما، فكان يقوم من نومه في كل ليلة فزعا.

وبعدها بفترة عرف بأن والد الفتاة لم يتحمل موت أخيه وموت ابنته الوحيدة في يوم واحد فصعدت روحه إلى بارئها حزنا وكمدا على أخيه وابنته، ومنذ علم بالخبر أصبح كارها لكل شيء في الدنيا، حتى صار مبغضا للحياة، ويتمنى أن ينعم الله عليه بالرحيل عنها.

وبعدها بفترة يسيرة أخبروني بأنه قد استعجل موته فقتل نفسه شنقا داخل السجن.

عجز عن مواجهة نتائج فعلته فهرب من الدنيا وما فيها ليتركني خلفه أعاني مرارات لا حصر لها ولا انقطاع.

لم يكن بيدي حيلة غير أن أنتقل بكم من الاسكندرية إلى هنا في القاهرة فرارا بكم من جريمة والدكم التي كانت ستلحقكم هناك، وكان سيلتصق بكم لقب أولاد القاتل الغادر بولي نعمته.

كان قدر الله أن أفر بكم إلى هنا حيث نعيش الآن، فساعدني بعض من أنعم الله عليهم بقضاء حوائج الناس في أن أستأجر هذه الشقة التي نعيش فيها بعد أن رويت له حكايتنا من أولها حتى منتهاها، ثم دفع لصاحبها إيجار عام كامل مقدما، وأعطاني بعضا من المال الذي أمكنني من أن أطعمكم به وإلا لمتم جميعا من الجوع، وبعدها عاونني في شرائها

ليسقط عن كاهلي عبء دفع إيجارها كل شهر، وكانت زينب وقت انتقالنا إلى هنا دون الخمسة أشهر، ومن لحظتها فقد قررت أن أنسى هذا الماضي بما فيه، أو على الأقل أحاول تناسيه حتى لا يصيبكم شيء من شظاياه.

ثم قالت والدموع تترل من عينيها بغزارة:

ــ هل عرفت يا خالد لماذا كنت رافضة لحلمك؟

لأن لوالدك عندهم ملفا، وبالتالي فلن يُسمح لك بأن تكون من طلبة كلية الشرطة، لا أنت ولا أي واحد من أبنائك أو أبناء أخيك.

لأن عليكم أن تتحملوا شيئا من جرم والدكم الذي لم يكن لكم فيه أي دخل .

ثم سكتت سميرة وراحت تغط في بكاء ونحيب.

اغرورقت عين خالد بالدموع ولكنه تجلد فلم تسقط من عينيه دمعة واحدة، ثم قال بصوت ضعيف يملؤه الحزن والشجن:

ــ أما وإن الحزن الآن يكاد يقتلني، لا من أجل كلية الشرطة، فأنا أعلم ابتداء أن التحاقي بها أمر في غاية الصعوبة إن لم يكن مستحيلا؛ فهم لا يقبلون فيها أبناء الفقراء من أمثالنا.

ولكن حزني الآن على أبي الذي كنت قد بنيت له تمثالا من المبادئ والقيم فإذ بي أجد الآن تمثالي الشامخ في نفسي ينهار أمامي، فكأني بنيته يوم بنيته على الماء أو فوق الهواء.

قالت له سميرة ردا على كلماته التي ضاعفت من الألم الذي كانت تجده بداخلها:

ــ والدكم كان رجلا فاضلا، لم يقترف يوما جرما، ولم يفعل يوما أي شيء يخجل منه، غير أن للشيطان نزغات قل أن يسلم منها أحد، وهذه هي النقطة السوداء الوحيدة في صفحة حياته النقية.

ــ بل قولي هذه هي النقطة السوداء الوحيدة التي شوهت صفحة حياته النقية ودمرتها.

خرج منصور عن صمته، ثم قال:

ــ هو لا يستحق منا الآن غير أن ندعو الله له بأن يغفر له ويرحمه، وأن يتجاوز له عما فعل.

ثم قام إلى غرفته فتبعه خالد إلى غرفته هو الآخر.

ظلت سميرة مكانها حتى توقفت عن البكاء، ثم قامت لتدخل غرفتها، فتفاجأت بزينب غارقة في البكاء والنحيب، فعرفت أنها سمعت كل ما دار بينها وبين إخوتها بشأن أبيها، فأخذت تهدئها فلم تستطع ذلك.

تضاعف بزينب البكاء وهي تقول لها:

ــ إذن فقد كنت أنا السبب في موت أبي!

لو لم يكن على وشك استقبالي لما اضطر إلى أن يسرق من أجلي ومن أجل وضعكِ.

ليتني مت وأنا في رحمك حتى لا أشهد ذلك اليوم الذي أكتشف فيه أني كنت السبب في موت أبي.

احتضنتها وهي تمرر يدها على شعرها وتقول لها:

ـــ لا تقولي هذا يا زينب، لم يكن لكِ بالأمر أي صلة، إنما هو قضاء الله يا بنيتي، باللهِ عليكِ كفاكِ، فقلبي به من الوجع ما يغنيه عن المزيد منه.

لم تستطع أن توقفها عن بكائها المتتابع، كانت تعرف أنها لا تسمع لأحد غير خالد، ولكن خالد به الآن من الحزن ما بها، فهل ينقذ الغريق بغريق مثله!

فتركتها وشأنها على أمل أن تهدأ وحدها.

****

الفصل الثالث

٢٠٠٩م

ما أقسى شمس اليأس حين تشرق على مدينة الأحزان فتشريها بأشعتها المسمومة وكأنها راضية عما تفعله، وليت لهذه المدينة مكان معلوم على الخريطة فتذهب إليه جيوش السعادة بأسلحة الأمل ودبابات التفاؤل وطائرات البِشْر، ومدافع البهجة ورشاشات السرور فلا يبقون فيها صغيرة ولا كبيرة إلا دمروها وهدموها حتى تتخلص البشرية من الشقاء المنبعث منها إلى الأبد، ولكن مدينة الأحزان لا وجود لها على الخريطة، وإنما هي موجودة بداخل كل منا، وتحديدا في ذاكرته، وكلما طال الزمان بنا وامتد كلما اتسعت مساحتها بذاكرتنا فاحتلت بداخلنا رقعة أكبر، واستحوذت على مساحة أوسع، حتى يأتي اليوم الذي نجدها فيه قد احتلتنا بجملتنا، وأخذتنا في شباكها السوداء المخيفة أسرى، ثم انطلقت بنا مقيدين بأغلالها إلى حيث لا نعلم، وكل واحد منا لديه القدرة على مواجهة أحزانه، فكلما صوب الحزن إليه سهما رده بدرع من الإيمان، فلا يجعل للحزن إليه مسلكا، ولا له عليهِ سلطانا.

والجميع مخير ما بين مواجهتها والانتصار عليها بالتحصن في قلعة الإيمان وحظيرة الصبر، أو الاستسلام لها ورفع الراية البيضاء في وجهها إيذانا منا لها بأن تفعل بنا ما تشاء.

والحمد لله الذي خلقنا مؤمنين به، مقرين بكمال حكمته في كل شيء، فما من شيء يقدره الله علينا إلا لحكمة علمها من علمها وجهلها من جهلها.

هذا ما قاله خالد لزينب عندما وجدها حزينة ومهمومة من جراء إبحارها في سفينة الماضي.

فقالت له:

ـــ أنا لا أعترض على قضاء الله في شيء، ولكني فقط أقول ماذا لو كان أبي اليوم حيا

أما كانت ستحل أكثر مشاكلنا؟ أما كنت ستدخل كلية الشرطة وتحقق أمنيتك القديمة؟

ـــ كلا يا مشاكسة، ما كان ليحدث من ذلك شيء، ومن يدري ربما ازدادت الأمور تعقيدا لو كان معنا، ثم إنني أحمد الله الذي وفقني لأن أدخل كلية دار العلوم، فأنا لا أعدل بها غيرها، وقد أفادتني كثيرا وتعلمت منها الكثير والكثير، ولا أزال أتعلم على الرغم من كوني في السنة الأخيرة منها.

والآن سأتركك، فأنا ذاهب إلى مكتبة الكلية لأكمل مطالعتي.

ـــ لا أعرف ماذا ستجني من وراء هذه الكتب التي تقضي وقتك معها ليلا ونهارا!

ـــ أجني منها ما لو جنته الحمير لأصبحت خيولا عربية أصيلة.

ـــ ولكن هذا ليس زمان الخيول، وإنما هو زمان السيارات فقط.

ـــ لا بأس، فلكل إنسان ميوله الخاصة به، وكل أدرى بما يجب أن يكون.

ثم خرج وتركها، فواصلت إبحارها في سفينة الماضي المؤلم لعلها تصل بها إلى حاضر مشرق ومستقبل سعيد، وأما هو

فقد رجع بذاكرته بعد حديثه معها عن الكتب والقراءة للوراء عدة أعوام حين كان في المرحلة الإعدادية، فتذكر أستاذه الذي كان يدرس له اللغة العربية والذي جعله يعشق القراءة أكثر من أي شيء آخر.

كان يحبه ويجله، لم يكن يحب أن يتذكره ولكنه كان يهجم على ذاكرته على الرغم منه.

لم يكن يعلم ما الذي يحمله على تذكره دائما من آن إلى آخر، هل وفاؤه الذي طُبع عليه لكل من يحبهم، أم شوقه إليه وقد مضت على آخر مرة رآه فيها عدة أعوام، أم أنه كان ينفذ وصيته التي أوصاه بها قبل أن يرحل بعدة أسابيع حين قال له:

ـ إياكَ أن تنسيكَ زحمة الحياة وكثرة المشاغل أستاذك وصديقك الذي أحبك أكثر من أي شيء آخر.

كانت هذه الوصية منه بعد أن انتهى من المرحلة الإعدادية مباشرة، فوعده أن يزوره من آن لآخر كما كان يفعل أثناء دراسته في المرحلة الإعدادية لأن ما بينهما أكبر من علاقة تلميذ بأستاذه داخل أسوار المدرسة.

ولكن الأستاذ سامي برحيله المفاجئ لم يعطه فرصة كي ينفذ وعده بزيارته، فلما عدم تنفيذ وعده له في زيارته لم يعدم تنفيذ وصيته في تذكره له.

لم يكن يعرف لماذا قال له أستاذه هذه الكلمات التي لا تقال إلا في لحظات الوداع، هل كان يتخوف من أن يصبح تلميذه النجيب وولده الذي لم ينجبه تلميذا جاحدا وولدا عاقا فينساه بمجرد أن ينتقل بجسده وبصره بعيدا عنه؟ أم كان يعرف أنه سيموت بعد بضعة أسابيع مدعوسا تحت عجلات سيارة لشاب متهور ومستهتر ليدفع حياته ثمنا لهذا التهور وذلك الاستهتار!

حينها تذكر أيضا آخر يوم في امتحانات الصف الثالث الإعدادي حين جمعهم وألقى عليهم كلماته التي أثرت فيهم جميعا.

وتذكر أيضا ذلك اليوم الذي أطلعه أستاذه فيه على أكبر أسرار حياته، يومها قال له:

ـــ سأروي لك قصة قصيرة يا خالد، ما رأيك؟ لا شك وأنك تحب القصص.

ـــ بل أحبها كثيرا.

شرع الأستاذ سامي في القصة فقال:

ـــ كان هناك والدة اسمها فاطمة تحب ابنها كثيرا كأشد ما تحب الأمهات الأبناء، كانت تعطر وجنتيه في كل يوم بقبلة حانية، ولأول مرة في حياتها تنسى أن تقبله وهو ذاهب إلى المدرسة. نظر إليها وتعابير الحزن على وجهه ثم قال لها:

ـــ أمي.. ألن تقبليني؟

احتضنته ثم قبلته وهي تقول له:

ـــ سامحني يا حبيبي، كنت أفكر في أمر استحوذ علي بجملتي.

أعطته جنيها ونصفه ثم أغلقت الباب خلفه بعد أن غادر.

لم تكن فاطمة تحب شيئا في الدنيا كحبها لابنها، بل هو الشيء الوحيد الذي كان يرغبها في الدنيا بالرغم من ضجرها بها.

جلست حزينة بها من الحزن ما تعجز عن وصفه الأقلام، وتعي بحمله القلوب، وبينما هي على تلك الحالة إذ بأختها تقبل عليها، كانت أختها كأنها القمر ليلة تمامه، ولم يكن قد مضى عليها سوى تسعة عشر ربيعا، قد عاشت منهم عاما وبضعة أشهر معها هي وزوجها بعد أن مات والديها ولم يعد لها في الدنيا سواها هي وخطيبها الذي كانت تحبه وترى فيه العوض عن والديها وكل شيء فقدته في حياتها.

لاحظت أسماء حزن أختها فاطمة فقالت لها:

ـــ ما بكِ.

ـــ لا شيء يا حبيبتي.

ـــ حقا لا شيء؟ أنا أختكِ وأعرفكِ جيداً.

ـــ قلتُ لكِ لا شيء، ولكن أخبريني كيف حال خطيبك؟

ـــ هو بخير وعافية.

ـــ هل أنتِ واثقة من حبهِ لكِ يا أسماء؟

ـــ ما هذا السؤال الغريب؟ بكل تأكيد واثقة من ذلك، بل أنا على يقين بأنني بالنسبة إليه الدنيا بأسرها كما هو بالنسبة إلي تماماً.

ولكن أخبريني أنتِ ما الذي حدث بينكِ وبين زوجكِ؟ ولماذا تنامين معي في غرفتي منذ أسبوع؟! ولماذا لا يجلس هو في البيت إلا دقائق قليلة؟!

ـــ لا شيء يا حبيبتي، خلاف يسير بيننا، لا تشغلي نفسكِ.

ما هي إلا دقائق حتى استأذنتها أسماء في أن تذهب إلى غرفتها لتكمل مذاكرتها، وبينما هي ذاهبة إلى غرفتها سقطت على الأرض مغشيا عليها.

عبثا حاولت فاطمة أن تعيد إليها وعيها ولكنها فشلت فهرولت مسرعة إلى الطابق الثالث في العمارة حيث تسكن فيه طبيبة.

دخلت الطبيبة بعد أن حملت فاطمة أختها ووضعتها على السرير، عاينتها ثم خرجت من الغرفة وقد أظلم وجهها لتقول لها:

ـــ أعتقد أن أختكِ يا أستاذة فاطمة غير متزوجة أليس كذلك؟

تمتمت ثم قالت لها نعم ولكن......

فقالت لها الطبيبة:

ـــ لا أدري ماذا أقول لك، في الحقيقة أختكِ حامل في الشهر الثاني.

أخذت تصرخ وتلطم على خديها،لا يمكن أن يحدث ذلك أبدا،مستحيل.

أرجوكِ لا تقولي هذا لا بد وأنكِ قد أخطأتِ أعيدي النظر إليها رجاء.

ـــ تماسكي رجاءً، هذه هي الحقيقة، أختكِ حامل بالفعل ليس في هذا شك.

لم تستطع قدماها لها حملا فجلست على أقرب مقعد منها وحالتها على ما يسر الشامت والحاسد.

فكرت في أن تتصل بزوجها وتخبره بالأمر لكي ينجدها في مصيبتها، ولكن بماذا كان سيفيد ذلك.

أخذت تسترجع تفاصيل تلك المرة اليتيمة التي اكتشفت فيها أن زوجها حيوانا في هيئة إنسان، وذلك حينما لاحظت أنه في بعض الأيام كان يصمم على أن يعد الشاي بنفسه وما إن تشرب هي الشاي حتى تجد نفسها تغط في نوم عميق.

وفي هذه المرة تصنعت أنها قد شربت الشاي، ثم مثلت أنها قد نامت كما كان يحدث لها كلما شربت الشاي الذي يعده، ما كان منه إلا أن قام من فوره مهرولا إلى غرفة أختها ففتحت إحدى عينيها في دهاء ثعلب، فلما رأته همت بأن تنادي عليه ولكنها تركته لترى سبب قصده غرفة أختها في هذه الساعة من الليل.

قامت من مكانها وهي تمشي على أطراف أصابعها في خفة لاعب باليه محترف لتنظر من ثقب الباب إليه، فإذ به في أقل من دقيقتين قد جردها من كامل ثيابها ليتركها بين يديه كجثة بين يدي مغسل.

دفعت الباب بأقصى قوتها وهي تصرخ، ثم أخذت تلطمه على خده وتضربه بما أوتيت من غيظ.

لم يكن مشهد أختها عارية مروعا لها قدر ما كان مشهد زوجها متجردا من الإنسانية صادما.

كانت أسماء تغط في نوم عميق حينما كانت تصرخ في زوجها وتضربه، لم تستغرب ذلك حيث كانت قد شربت هي الأخرى من ذلك الشاي الذي أعده لهما، والذي لم يعد عندها أدنى شك في أنه مشتمل على أقراص منومة أو شيئاً من هذا القبيل.

ما كان منه إلا أن صفعها على وجهها وهو يقول لها بعد أن وجهت له بعض الضربات:

ــــ لماذا تلوميني وأنتِ التي قصرتِ في حقوقي، لماذا العجب الآن!

ــــ أيها النجس متى قصرت في حقوقك، منذ تزوجتك وأنا أحاول أن أرضيك بشتى الطرق.

ما ذنب هذه اليتيمة لكي تفعل بها ذلك!

ــــ اطمئني فأنا لم أفعل معها أي شيء، أختكِ (بنتا) كما هي.

عبثا حاولت تصديقه، لم تكن هذه هي المرة الأولى التي يعد لها ذلك الشاي الذي يحمل بداخله نكهة الرغبة ورائحة الخيانة.

طلبت منه الطلاق كي تلوذ بالفرار مع أختها من بين أنياب ذلك الشيطان، ولكنه أبى ذلك على أمل أن تهدأ من أجل ابنهما الوحيد.

هاهي الآن قد تأكدت بأن أختها ليست بنتا، بل ستكون أما بعد بضعة أشهر.

ماذا تقول للناس، وماذا تقول لخطيبها، بل ماذا تقول لأختها!

المسكينة لا تزال مغشيا عليها ولا تشعر بأي شيء حولها.

هل تخبرها بما جرى، أم تخفي عنها تلك الكارثة، ولكن إلى متى يمكنها أن تخفي ذلك عنها، فتلك السموم التي نفثها فيها ستكبر مع الأيام شيئا فشيئا، وستخبرها بتفاصيل ما حدث، بل ستخبر الجميع.

أخذت تلطم وجهها وهي تبكي بكاء شديدا.

ثم أخرجت هاتفها واتصلت بزوجها:

ــ أيها الكلب الحقير أسماء حامل، وأنت الذي حلفت لي على كتاب الله أنك ما مسستها!

كم كنت حمقاء ومغفلة، كيف لي أن أصدق خنزيرا مثلك قد تجرد من كل معاني الإنسانية.

سأقتلك أيها القذر، استضعفت المسكينة وقلت يتيمة ولا أحد لها كي يثأر لشرفها المسلوب.

خرجت أسماء من غرفتها وهي تلطم خديها وتصرخ:

ــ فاطمة.. هل أنا حامل يا فاطمة؟ حملت من زوجك!

صراخ وصراخ وصراخ ولا شيء غير ذلك.

حاولت فاطمة أن تأخذها في حضنها وهي تبكي ولكنها دفعتها بكل ما أوتيت من صدمة، ثم هرولت إلى غرفتها وأغلقت الباب.

أصاب فاطمة الذعر، افتحي يا أسماء، بالله عليكِ افتحي لي.

لا ترد عليها فقط تصرخ.

خافت فاطمة من أن تفعل أختها بنفسها شيئا.

في نفسها حمدت الله إذ لا سكاكين في غرفتها، ولا أعواد ثقاب، ولا أي شيء يمكنها أن تؤذي به نفسها.

اطمأنت بعض الشيء.

فجأة سمعت صراخا في الشارع وضجيجا، هرولت إلى شرفتها حيث الطابق السابع وقلبها كاد يفارق جسدها من الرعب، فوجدت جثة هامدة في الأرض والناس حولها مجتمعين، لم يكن من الصعب عليها أن تدرك أن أختها هي تلك الجثة السابحة في تلك الدماء المحيطة بها.

أخذت تهرول وكأنها تريد اللحاق بروح أختها التي تطوف حول جثتها لتعيدها إليها قبل أن تبتعد!

وبينما تنزل سلالم العمارة في سرعة الصاروخ تعرقلت في طرف ثوبها لتكمل نزول السلالم على وجهها لا قدميها.

أغمضت عينيها أثناء زحفها السريع على بطنها ووجهها، فما فتحتهما إلا على سرير أبيض في مشفى حكومي.

وجدت بجوارها حين استعادتْ وعيها خاطب أسماء والدموع جلية في عينيه.

فقال لها:

ـــ حمدالله عالسلامة يا فاطمة.

لم تسأله عن أسماء فمنظره كان يغني عن المقال.

لم ينتظر منها سؤالا فقال لها على الفور وهو يبتسم والدموع تتساقط من عينيه بغزارة:

ـــ لا تحزني على أسماء يا فاطمة، فهي الآن في الجنة، لابد وأنها حاولت أن تنظف شباك غرفتها فسقطت، بعض الحمقى يقولون أنها انتحرت، لقد كنت أمزح أنا وهي قبل أن تموت بنصف ساعة فكيف تنتحر!

اغرورقت عينا فاطمة بالدموع فقال لها:

ـــ أرجوكِ لا تحزني يا فاطمة، فهو قضاء الله، فأنا لست حزينا، فقط أكثري من الدعاء لها مثلي.

أقبل زوجها من بعيد وفي عينيه لمعانا وبفمه سيجارة، هاهي جريمته قد وسدت في بطن لحد من غير أن يعاقب عليها فهنيئا له.

اقترب منها وهو يقول لها:

ـــ حمدالله عالسلامة يا حبيبتي.

بكل ما بداخلها من حقد وحزن بصقت في وجهه ولكن البصقة لم تغادر فمها فقد كان الشاش والقطن محيطاً بكامل وجهها الذي كان نائبا عن قدميها في نزول السلالم.

صمت الأستاذ سامي قليلا ثم نظر إليه وقال:

ـــ هل تعرف أنني كنت طرفا في هذه القصة التي رويتها الآن؟ يمكنك أن تحزِرَ الآن من أكون.

دهش خالد مما سمعه ومع ذلك بدأ يحزر، ثم قال له:

ـــ هل كنت ذلك الصبي الصغير الذي بدأت القصة بالحديث عنه؟

ـــ لا يا خالد، بل كنت خاطب أسماء، لقد عرفت كل هذه التفاصيل من أختها فاطمة عندما أقسمت وألحيت عليها أن تخبرني كيف ماتت أسماء.

فكرت في أن أنتقم لها ولنفسي من ذلك الذي كان سببا رئيسا في موتها، ولكني كنت على علم بأن ذلك لم يكن لينفع أسماء في شيء، وهذا هو سبب عزوفي عن الزواج إلى الآن بالرغم من مرور أكثر من خمسة أعوام على تلك الحادثة.

حيثما وجهت بصري لا أرى غير طيف أسماء يلوح لي.

استرسل في الحديث فقال:

الحمد لله على كل حال، وأسأل الله أن يغفر لها ما فعلت، وأن يتجاوز عنها.

ثم أعطاه في ذلك اليوم بعض الكتب بعضها يزيد على الأربعة مجلدات.

فلم يدرِ هل يفرح بالهدية التي أتحفه بها، أم يحزن لشقاء أستاذه وصديقه الذي كانت له عنده منزلة لم يحظَ بها أحد باستثنائه.

في ذلك اليوم الذي اطلع فيه على ذلك السر عرف السبب في حزنه الدائم، وعرف لماذا كان قليل الضحك كثير العبوس.

كان خالد يفتقد أستاذه بشكل كبير، ولولا أن الموت أخذه منه ما ترك صحبته وفيه نفس يتردد.

ولأنه لا زال معجبا به حتى بعد موته فقد آثر أن يدخل كلية دار العلوم ليسير على درب أستاذه الذي كان من طلبتها يوما من الأيام.

وفي محاولة منه لتخليد ذكرى معلمه فقد كتب أول رواية له في حياته عنه وجعله البطل فيها وسمى روايته باسم: (داخل أسوار المدرسة).

ظل يكتب في روايته عامين كاملين من بداية دخوله الجامعة مستعينا بكامل طاقته وموهبته من غير أن يفتر أو يمل، على أمل أن ينتهي منها وينشرها بين الناس.

لم يكن يريد أن يجني من خلفها المال الوافر أو الشهرة الذائعة بقدر ما كان يريد تخليد أستاذه من خلالها، وعندما انتهى منها لم تكتمل فرحته بإنجازها وقد بذل فيها جهدا كبيرا

حيث لم يجد من يطبعها له.

كل اللذين عرض عليهم روايته من أصحاب المكتبات ودور النشر قالوا له لا يمكننا أن نجازف ونطبع لكاتب مغمور مثلك لا يعرفه أحد.

ففي زمان الانحطاط تصبح الكتابة مثلها مثل تجارة الأطعمة والأشربة، بل والأحذية أيضا وسائر التجارات الشريفة منها والوضيعة.

لا يهم دار النشر إذا ما كان الكتاب الذي ستطبعه مفيدا أو عقيما، ولا يعنيهم إذا ما كان لبنة توضع في صرح الأدب والثقافة، أو رقعة بالية تحط من قدره.

وإنما العبرة عندهم بشهرة الكاتب وما تحظى به كتبه من رواج وصيت، وبما سيجنونه من وراء تلك الشهرة التي يحظى بها من أموال طائلة.

لهذا فلم ترغب أي دار نشر في طباعة روايته؛ لأنهم يعرفون أن الناس مولعون بالمشاهير، فالمشهورعندهم له قداسة كتلك التي كان يحظى بها رجال الدين في العصور الوسطى، فهو عندهم صاحب القلم النابض، والرأي الراجح، ومن عداه فلا يقيمون له وزنا.

لم يكن أمامه خيار غير أن يطبع الرواية على نفقته الخاصة، ولأنه لا نفقة له ولا مال معه فقد رماها داخل أدراج مكتبه مع العديد من قصائد الشعر التي نظمها والتي تكاد تصل إلى ديوان كامل حافل بالعديد من القصائد.

وأصبحت روايته (داخل أسوار المدرسة) حبيسة الوحدة داخل أدراج المكتب!

****

وصل إلى الجامعة بعد أن تمكنت ذكرياته من أن تجعل الحزن يدب في قلبه، فتوجه مباشرة إلى مكتبة كلية دار العلوم في محاولة منه لطرد حزنه من خلال القراءة التي يحبها، استعار منها كتابا أدبيا على أن يرجعه بعد ثلاثة أيام، ولأنه كان يعشق كتب الأدب بشكل كبير فقد قرر أن يقرأ الكتاب في أكثر الأماكن التي يعشقها.

فانطلق كالسهم إلى حديقة الأزهر وبيمينه الكتاب الذي استعاره، وبشماله حقيبته الصغيرة.

ما إن ولج بيمينه باب الحديقة ومشى فيها بضع خطوات حتى رأى فتاة ذات حسن ووضاءة جالسة وحدها تحت شجرة كبيرة وبيدها كتاب تقرأ فيه قد استحوذ على جميع فكرها، جذبته بوجهها الفائق الجمال، وتأنقها في جلستها، وإمساكها بالكتاب، فانتهز فرصة استغراقها في كتابها ثم اقترب منها يتأمل حسنها الذي جذبه نحوها لا إراديا، ثم وقعت عينه على اسم الكتاب، لم يكن غير مقامات الحريري، فلم يكن يدري أيعجب لذلك الحسن وتلك الوضاءة

التي في وجهها، أم لكونها تمسك كتابا تقرأ فيه في المكان الذي لم يرَ فيه من يحمل كتابا منذ أول عهده به، أم يعجب لذوقها العالي في القراءة والذي حملها على أن تقرأ في مثل هذا الكتاب الفريد.

وإذ بها فجأة ترفع وجهها من الكتاب لتجده واقفا أمامها محدقا فيها، دهشت منه ثم قالت له في ضجر ظهر جليا في نبرة صوتها:

ـــ هل تريد شيئا؟

فما كان منه إلا أن ارتبك وتلعثم ولم يعرف ما يقول، فكاد قلبه يتوقف عن النبض بعد أن تصبب عرقا؛ لأول مرة في حياته يرى نفسه في مثل هذا الموقف المحرج، فلم يدرِ ما يقول ولا ما يفعل، هل يتجاهل السؤال ويتمادى في التحديق في وجه السائلة، أم يرحل في صمت كما أقبل في صمت مكتفيا بتلك اللحظات القليلة التي قضاها في ضيافة عينيها الجميلتين ووجهها الذي تلوح في جميع أجزائه براءة الأطفال.

لم يجد بدا من الرد عليها ولكنه كان لا يزال جاهلا بمَ عليه فعله في ذلك الموقف المحرج.

استعاد ثباته، ثم لجأ إلى بديهته السريعة لعلها تسعفه أو يجد عندها حلا لتلك العويصة.

وأخيرا بعد استعانته بها قال لها في مكر مزجه بكذبة بيضاء:

ـــ أعتذر منك كثيرا، ولكن جذبني هذا الكتاب الفريد الذي تمسكين به.

صوبت نظرها للكتاب الذي يحمله في يده فعرفت أنه شاب مثقف، وعلى الراجح لم يقصد أن يضايقها كما هو شأن كثير من الشباب.

ثم قالت له :

ـــ هل تقصد مقامات الحريري؟

فقال لها في محاولة منه لجذب انتباهها إليه من خلال استعراض شيء مما عنده من ثقافة ومعرفة ودراية بالعديد من الكتب وكُتّابها:

ـــ أجل، لقد سمعت عنه الكثير، وأعرف أن الحريري مكث عدة أعوام يُحَبِّره ويهذبه إلى أن أتى آية للسائلين، حتى أنهم قالوا عنه لو أراد الحريري أن يتحدى البشر على أن يأتوا بمثل ما أتى به في كتابه هذا لما كان ذلك مستغربا؛ حيث أتى فيه بالعجائب التي تدهش العقول وتسلب الألباب، فكانت أكبر مكافأة للحريري على إنجازه له أن كتب اسمه بحروف من نور على صفحة الدهر لينضم إلى نخبة الخالدين، ولكن بكل أسف لم تتيسر لي قراءته لأني بحثت عنه كثيرا في المكتبات فلم أجد له أثرا.

هل يمكنني أن أتجرأ وأطلب منك استعارته على أن أرجعه لك بعد ثلاثة أيام؟

تلعثمت الفتاة ولم تدرِ ما تقول، لاسيما وهي لا تعرفه، مع أنها قد أعجبها فيه ما عنده من ثقافة وحب للاطلاع، وراق لها كثيرا ما عنده من فصاحة وبيان.

قرأ التردد في عينيها فبادرها بقوله:

ـــ لا تقلقي، سأرجعه لكِ، ويمكنك خلال مدة استعارتي للكتاب أن تنظري في هذا الكتاب، وأشار إلى كتاب الأعمال الكاملة لجبران خليل جبران الذي كان معه.

فلما رأت اسم جبران على الكتاب أصدرت عينيها بريقا ثم قالت على الفور:

ـــ أنا من عشاق كتابات جبران، لا أكاد أقع على شيء له إلا وأقرأه، بالرغم من أن بعض صديقاتي يحذرنني دائما من القراءة له.

تمادى في استعراضه لعضلات معرفته واطلاعه قائلا لها:

ـــ لا عليكِ منهن، فمن يخشى التفكير هو الذي عليه ألا يقرأ لجبران، فكتاباته تتميز بالعمق وبمخاطبتها للعقل في المقام الأول، وليت من يمنعوننا القراءة لجبران يقولون لنا إذا زهدنا في كاتب كجبران ففي أي كاتب نرغب!

غير أنني أراه أكثر أناقة وإقناعا في ثوب الكاتب منه في ثوب قارض الشعر.

أعجبها كثيرا رأيه في كاتبها المفضل، وودت أن لو أسمعت صديقاتها ما يقوله عنه، وفي النهاية وافقت على أن تبادله الكتاب ثم قالت له:

ـــ أنا أكون هنا في الحديقة يوم الثلاثاء من كل أسبوع، لذلك سأعيرك كتابي أسبوعا كاملا حتى يوم الثلاثاء القادم، وأنت كذلك ستعيرني كتابك أسبوعا.

فرح كثيرا بموافقتها على الإعارة ورأى أنها فرصة عظيمة ستتيح له أن يلتقي بها مرة أخرى.

ثم لم يدرِ ما يفعل هل يوافق على إعارته لكتابه أسبوعا كاملا وقد استعاره من المكتبة لثلاثة أيام فقط؟

ودون أدنى تردد وافق على المبادلة، ثم تجرأ وسألها عن اسمها فقالت له:

ـــ اسمي فاتن.

فقال:

وأنا خالد.

ثم حاول أن يلجأ إلى بديهته مرة أخرى لكي يجد أي حيلة تكسبه المزيد من الدقائق التي يمضيها معها في الحديث فلم تسعفه هذه المرة بأي شيء.

فقال لها:

ــ استأذنك في الذهاب، سأتجول في الحديقة قليلا ثم بعدها أشرع في قراءة كتابك.

ــ يمكنك ذلك، ولكن دعني أولا أشكرك على جميل لم تتعمد فعله.

ــ وما ذاك!

ــ كان هنا قبل قدومك بقليل شاب يتعمد مضايقتي وقد حاول أن يتحدث معي ولكني صددته، ما إن رآك تقف معي حتى لاذ بالفرار.

ثم ضحكت وهي تقول له:

ــ لعله ظنك أخي أو قريبي.

ــ ولكن لماذا تأتين وحدك إلى هنا؟ هذا أمر غريب!

ــ ما الغريب في هذا؟! أفضّل دائما أن أكون هكذا، لا أحب أن أختلط بالكثيرين، ثم إنك أيضا هنا وحدك.

ــ لكن أنا شاب!

ــ ما الفرق؟

ثم تابعت:

ــ مجتمع ذكوري بكل أسف، يعطي للشاب الحق في أن يفعل ما شاء كيفما اتفق له، بينما يُحرِّج على الفتاة أبسط حقوقها وأقلها.

ــ إذن فأنتِ من دعاة التحرر؟

ــ لست كذلك بالتأكيد، فأكثر من ينادون بتحرر المرأة هم في الحقيقة لا يريدون إلا أسرها، يريدون تحريرها من القيم والمبادئ وعناية الأب وطاعة الزوج حتى يأخذوها أسيرة في مستنقع الرذيلة والعهر الفكري والجسدي كي تلبي لهم احتياجاتهم القذرة.

ــ أوقعتني في الحيرة،من تكونين إذن؟

ــ فتاة إيجابية أعيش في مجتمع سلبي، لذلك قررت أن أفعل ما أراه صوابا دون أن أكترث لتلك القيود التي لا تستند إلى شيء، مراعية في كل ما أفعل تعاليم ديني، وما أدّبني به والدي.

ــ معكِ حق، فإن الناس لا يتركون أحدا وشأنه حتى يتخذ نفقا في الأرض أو سلما في السماء، ولو فعل لما تركوه وشأنه أيضا، لذلك فإنني أرجح عدم الاكتراث لهم.

ــ أختلف معك، كيف لا نكترث للناس ونحن نعيش بينهم ومعهم؟!

غاية ما في الأمر أني أكره الإفراط والتفريط، فلا نهمل الناس وآراءهم وانتقاداتهم لنا إهمالا كليا، وأيضا لا نتخذهم دليلا لنا يقودونا إلى حيث شاء ثم نوسوس بهم في كل ما نأتي ونذر.

لا شيء أجمل من التوسطِ في الأمور، والموازنة بين الأشياء.

ثم قالت وقد رأته صامتا:

ــ كنت تود أن تذهب منذ قليل، أعتذر عن تعطيلك بثرثرتي، يمكنك الذهاب.

هو في الحقيقة لم يكن يريد أي شيء غير أن يستمر في الحديث معها أكثر، ولكنه عجز عن أن يجعله يمتد أكثر من ذلك، ولم يكن صمته إلا تعجبا من طريقة كلامها التي راقت له كثيرا.

فقال لها مختتما حديثه الذي ود أن لو طال أكثر من ذلك:

ــ ما من داع للاعتذار، استمتعت بحديثك كثيرا.

ثم مضى بخطوات بطيئة وكأنه يأمل أن تناديه لتسأله عن شيء، أو أن تقول له أي شيء يتيح له أن يتجول في ملامح وجهها لو قليلا، ولكن لم يحدث أن فعلت.

ظل يسير في الحديقة ولا فكر له إلا فيها وفي الدقائق التي قضاها في الحديث معها وهو يسترجع كل كلمة وكل لفظة وكل حرف قالته له.

وبعد دقائق يسيرة من تجوله في الحديقة تعمد أن يعود ليمر من أمام الشجرة التي تجلس تحتها فلعله أن يختلس بعض النظرات إليها من بعيد من غير أن تنتبه له، وعندما رجع لم يجد لها أي أثر، فعرف أنها قد غادرت، فجلس في المكان الذي كانت تجلس فيه تحت الشجرة ثم ظل يتحسس الكتاب ويقلبه، وعلى الرغم من أنه يعلم من أنه لا حاجة له بكتابها حيث أنه عنده في البيت، وقد قرأه قبل ذلك ثلاث مرات، إلا أنه شرع في قراءته للمرة الرابعة من فرط سعادته.

ثم تذكر أن اليوم هو الثلاثاء مما يعني أن أمامه لكي يراها مرة أخرى أسبوعا كاملا.

فتمنى أن لو يغمض عينيه ثم يفتحهما مرة أخرى فيجد نفسه في يوم الثلاثاء من الأسبوع المقبل.

****

غادر الحديقة متوجها إلى البيت وبداخله سعادة تكاد تجعله يحلق عاليا، وما إن دخل البيت بيمينه حتى رأى زينب حــزينةً كــئــيبةً، فــتعجّب في نفسه من حالها وتساءل:

هــل هذه هــي زينب الــتي أعــرفها؟

زينب الــتي لا تــغــيبُ الابتسامــة عـــن وجهها لــحــظــة واحـــدة والــتي إن رأيــت ضحكتها شعــرت أن الــشــمــس أشــرقـــت مــن وجــهــها فــأضاءت الــدنيا.

ترى أين ذهبت هذه الابتسامة الجميلة التي تُنــسي الثــّكلى ألم الثــُّكل، واليتيم ألم اليُتم!

أين ولّت هذه الابتسامة وأين غــابت؟ما الأمر وما الذي حدث؟

لم يشأ أن يتحدث معها في شيء إيثارا منه بأن يكون آخر عهده بكلمات فاتن التي اخترقت قلبه المتلهف لمن يستوطنه، ثم خــرج من الــبيــت متوجها إلى المسجد لأجل صلاة العصر وهــو لا يزال مُندهـــشا من حالها، فــهو لم يعــهــدهــا كــذلك، لكــنه قال في قــرارة نــفــســه لــعــل شــيئاً يــســيراً حدث فــحــزنت مــن أجله كما هــو حال عامة الفتيات؛ فــإنهن يحزن لأيسر الأمور، أو ربما لا تزال تتفكر في أنقاض الماضي الغابر فأصابها الفكر بشيء من الحزن، ثم رجع إلى البيت بعد صلاة العصر فإذ بأمه تلقاه عند الباب وكأنها منتظرة عودته لتقول له بصوتٍ منخفض ونبرة حزينة، ووجه يتجــلّى عــليه الحزن والأســى:

ــ خالد.. اذهب فانظر إلى أختك وهدئها يا ولدي، فأنا لا أعرف ما بها ولا ما الذي أصابها، وهي لا تريد أن تخبرني بما بها.

ذهب إليها ليجدها في غرفتها مُستلقيةً على سريرها، واضعة قدميها على الأرض ووجهها مُنكبٌّ على السرير وهي تبكي بُكاءً شديداً يكادُ القلبُ ينخلعُ من حُرقته.

أقبل عليها بهدوءٍ ليُسكّن حزنها ويوقف بكاءها بعد أن يعرف منها ما الذي يُحزنها ويُبكيها، وبعد مُعاناةٍ شديدةٍ لا يعلم مداها إلا الله أجابتهُ إجابةً شلَّت أركانه وأبكمت لسانه، ثم شعر وكأن جبال الدنيا قد وُضعت على عاتقيه.

فانسلخَ بهدوء شديد دون أن يشعر به أحد ليتوجَّه إلى أقرب غرفةٍ بعيدة عن أنظار أهله ليبكي فيها بكاءً مريراً، وهو الذي ذهب ليوقفها عن البكاء، أبكاهُ هول ما قالتهُ له إجابةً على سبب بُكائها، بكى وهو الذي لا يرى إلا صابراً صامداً مُتَجَلداً في أشد المواقف وأصعب الأمور،وأحلكِ الأوقات.

ذهب إلى الغرفة المجاورة لغرفة أمه ليتوراى بضعفه عنهم ولتنسكِب الدموعُ من عينيه كأنها عينُ ماءٍ تفجرت من أعلى جبلٍ فأخذت تنحَدِرُ من أعلاه لأسفله.

ثم أخذت كلمات زينب ترن في أذنه بصوت قوي وهي تقول له إجابة على سؤاله لها ما بكِ:

ــ (نفسي أمشي زي البنات، نفسي أقعد متربعة، مرة واحدة، مرة واحدة في حياتي أقعد متربعة، مرة واحدة).

فتذكر أنها تـعُاني مـن إعاقـة، إعـاقة لا تـستطـيع معها الجلـوس بشكل مستقيم؛ بل ولا الـمـشي، بل ولا حتى الكلام، تذكر ذلك وكأنه كان قد نسيه.

هو في الحقيقة لم ينسَ ذلك، ولكن الشيء حينما نألفه فإننا نعتاد عليه وكأنه أمر طبيعي، كان ينظر أحيانا إلى إعاقتها على أنها هي الوضع الطبيعي لأخته، ليس فيه ما يستنكر أو يستغرب حتى صدمته بما قالت فانتبه إلى أن الأمر على خلاف ما كان يحسبه.

أخـذ يبكـي حتى بلّت دمـوعـه وجنتيه وهـو يقـول في نـفـسه:

ــ أقصى أماني أختي أن تجلس أن تمشي، بل أن تجلس متربعة ولو لمرة واحدة في حياتها، وأنا أقوم وأجلس وأجري وألعب وألهو.

يا ليتني كـنت أنا صاحب هـذه الإعاقة ويـذهب عـن أخـتي ما بها.

ثـم سـكّـن نـفـسه وأوقـف بُـكـاءه ووقـف مـتُـجـلّـداً،أو مُـتـصـنعـاً الـتـجـلد، ثـم عـاد إليها مـرةً أخـرى لـيـجـدهـا مـسـتـمـرة في بكـائها، غـارقـة في دموعها المُـستـرسـلة مـن عـيـنـيها كـالماء المُـنحـدر مـن صُـنبـور الـمياه الـذي يعمل بكامل طاقته.

فأخـذ يُهدّئها ويذكرها بالله تعـالى ويقول لها:

ــ هـذا أمـرٌ ابتلاك الله تعـالى به لـيـمتحنك ويخـتبـرك ليـرفع درجتك فـي الآخـرة، ويزيد لك في أجرك إن أنت رضيت وصـبرت.

وإن كـنت قـد حـُـرمـت نـعـمـة الـعـافيه فـقـد وهـبك اللـــه تـعـالى نعـماً كـــثـيـــرة يحسدك عليها كـثـيـر مـــن الناس، فعندك أم تـــحـــبك وتـــحبينها، وكــــثـيــر مـــن الناس فـــقــدوا أمهاهـم، وعـــندك إخـــوة تحبينهم ويحبونك، وكـــثير مـــن الناس يــعـــيــشــون فـــُـرادى مـــن غـــيـــر أخٍ أو أخـــتٍ، فيعـــيشـــون في هـــذه الـــدنيا كأهم غــرباء.

عندك يدين سخرهما الله تعـــالى لكي لتخدمي بهما نفسك وكثيرٌ من الناس فـــقـــدوا أيديهـــم.

ثــــم إنـــك قـــد كـــُـــتب عـــليك هـــذا البلاء، فسواء عليك جـــَــزِعتِ أو صَبرت فهو ماض كما قدر الله، فلا تحرمي نـــفـــسك مـــــن الأجـــر الكـــبـــير، والثـــواب الـــعـــظـــيم، فـــتـــستـــبدلي به الإثم والـــذنب، فتكوني قـــد جمعـــتِ بين خـــسارتـــيـــن، وأحللتِ بنـــفـــسك نكبتـــين.

وإنك إن صبرت عـــلى ما أنت فيه من الـــبـــلاء لـــتـــكـــونين إن شاء الله تعـــالى يوم القيامة في منزلةٍ عـــــظيـــمةٍ يـــحـــسدك عـــليها كل من تحـــســـدينهـــم أنت الآن عـــلى نعمة العافيـــة في هـــذه الـــدنيا الـــقـــصـــيـــرة الفانية، فـــيـــودون أنْ لـــو كان لهـــم مثل ما لك مـــن الأجر، ويكون بـــهـــم في هـــــذه الـــدنيا أضـــعـــاف ما بكِ مـــن الـــمـــرض.

ثم خـــرج وتـــركـــها مـــــستـــمـــرةً في بـــُكـــائهـــا الشـــديد والـــــذي لـــم يـــتـــوقـــّـــف ولـــــــو للحـــظـــــةٍ واحدة بعـــــد أن ظـــنَّ أنـــَّـهُ قـــد فشل فـــي أن يخرجها من حالتها، أو أن يخفف عنها ما بها.

خرجَ مهـــموماً حزيناً بهِ من الألم مالا يـــعـــلمهُ إلا الله، فظلَّ يمـــشي في الطـــريق هائماً على وجهه، لا يدري أين يمضي، فقـــد اســـودَّت الدنيا في عينيه، لم يعـــد يرى أو يبصر أمامه إلا أخته المعاقة، وما تتجرعه من الألم من جرَّاء تلك الإعاقة التي حرمتها جـــميع لذات الدنيا، فلم يعـــد يهـــنأ لها طعام ولا منام، تلك الإعاقة التي نغـــصَّت عليها حياتها أكثر من عشرين عاما منذ أن التصقت بها ساعة مولدها، وعلى الأرجح فإنها ستظل معها حتى آخر يومٍ في عمرها، بل حتى تدخل قبرها وتلقى الله تعالى بها.

ظلَّ يســـيرُ مهموماً حزيناً متفكراً في آلام زينب التي لا يســـتطـــيع أن يـــفعـــل أي شيء حـــيالها، والتي كان غافلاً عـــنها وعمَّا تحملهُ من الآلام والمعاناة، حيث أنها أخبرته أنها كلما رأت فـــتاةً تمشي في طريقٍ تجددت عـــليها الأحزان، وتوالت عـــليها النكبات؛ ليس حقداً عليها ولا سُخطاً على ربِّها، ولكـــنها أرادت فقط أن تكون مثلها، تـــمـــشـــي مـــثلها، تتكلم مثلها، تجـــلس على الأرض مُـــتربِّعةً مثلها، أقـــصى أمانيها في الحياة أن تجلـــس مـــُتربعة، أن تمشي وحـــدها من غـــيـــر أن يكون مَـــعـــَهـــَا مُرافقاً يـــُقـــيمها كلما هـــَـــوت على وجهها عـــى الأرض.

ظلَّ يتفكر في تلك الإعاقة الـــتي جـــعـــلتها حبيسة الـــبيت كالعـــصفور الذي يـــَهـــْوَى أن يطـــيرَ عالياً ويحب التحليق في الفـــضاء الواسع مـــغـــنـــياً ومـــغـــرداً، ولـــكـــن حـــال بـــيـــنـــهُ وبـــيـــن هـــذه الأمنـــية البـــسيطـــة مـــا يلقـــاهُ مـــن ذلك الـــقـــفـــص الـــذي حـــبـــســـوه فـــيـــه فـــسلبوه حـــريته، وهي حـــبيـــسة إعاقتها في الوقت الذي ترى فيه البنات يلعبون ويلهون ولا ضير، بينما هي كسجينة!

غـــدها كيومها، ويومها كأمسها، لا جديد في حياتها البتة.

لا تــعــرفُ عـــن ماضيها إلا ذكريات الألم والمرض والمعاناة، وأمَّا مُــســتقــبلها فلا تعرفُ عــنهُ شــيــئاً، ولكِـــنَّها تــعـــلم يقيناً أنهُ لنْ يكونَ أفضل من ماضيها بحالٍ من الأحوال.

تراهـــــم يــذهــبــون إلى مدارسهم ويعــودون، وهي قعــيدة في دارهــا لا تــقــوى حتــى على أن تَــنــهــضَ بنــفــسِــهـَــا من على الأرض.

لكل بنت صــديقة وعشرة ومائة، وهي وحيدة فريدة في هذه الدنيا، لا أخـــت، لاصديقة، لا أحـــد، هي وفــقط.

لا تــعــرفُ مـــــن الــنــساء غير أمــهـــا وزوجة أخيها، وإذا سألتها عـــن الــرجال قــالت لك: منصور وخالد.

تــذكر ما تعانيه من آلامٍ في جــسدها بــســبب تلك الإعاقة، فلا تكاد تمر بها بضعة أيامٍ من غــير أن تــُصاب بشــجٍ في رأسها، أوجرح في يدها أو ذراعها، وهذه أيســر الإصابات التي تخــرج بها من كل مرةٍ تســقط فيها هاوية على الأرض.

تذكر كـــل هـــذه الأمور وهـــو يـــســير في الــطــريق، ثم بعد طول سير في الطرقات، رجع إلى الــبيت مرةً أُخرى لــتــأنــسَ عــينه بما قرَّت به نفــسه، وســكن لــرؤيته قــلــبــه، وبـــردت بـــه أعـــصـــابه الملتهــبة، وذلك حينما رأى الإبتــسامةُ قــد عادت إلى وجه زينب مرة أخرى بعد بكاءٍ مريرٍ اســتمر لساعاتٍ طويلة.

عـــادت إليه بهجـــته لبهجة أخته، وسُـــرَّ لســـرورها، فهـــي شـــقيقتهُ الوحيده، وهو أقربُ إليها من الجميع؛ حيث أنـــَّها تصغره بعامين اثـــنين.

لقـــد سكَّن كلامهُ نفـــسهـــا، وطـــمأن قـــلبها؛ لأنه أتاها بالدَّواء الناجع، فقد حدَّثها عن الله، وما أعـــدَّه لها من الأجـــر والثواب.

ثم عادت لتسأله:

ـــ هـــل لي ثواب عـــند الله؟

فأجابهـــا:

ـــ نعـــم، إذا حمدت وصبرت.

فازدادت على ســـرورها سروراً، وعلى بهجتها بهجة، وعـــزمت على الصبر كما هو شأنها وديدنها.

****

بالرغم من أن موقفه هذا مع زينب قد ترك بداخله أثرا سيئا كان يتجدد في نفسه كلما رآها حبيسة إعاقتها، إلا أنه قد حاول تناسي ذلك وراح يراقب عقارب الساعة وهو يتوسل إليها أن تسرع في خطاها حتى تتحفه بيوم الثلاثاء حتى تتسنى له رؤية حسناء حديقة الأزهر مرة أخرى.

ثم تردد في كتابة رسالة إلى هذه الفتاة التي سلبته منامه وراحته، وأخيرا قرر أن يكتب لها رسالة فيها شيء مما بداخله وأن يضعها داخل كتابها الذي استعاره منها.

ولكنه لم يدرِ ماذا يكتب، ولا كيف يبدأ الكتابة.

هو الذي عرف منذ صغره بقلمه البليغ المنطلق، لاسيما في مواضيع الإنشاء المختلفة، وقدرته المدهشة على نظم الشعر في شتى ضروبه، ومع ذلك فهو يعجز الآن عن أن يكتب رسالة صغيرة يُعرِّي فيها مشاعره أمامها.

لم يكن يعرف ماذا يكتب لها، هل يخبرها بحبه لها منذ أول لحظة رآها فيها، وأنها قد استولت عليه بجملته، أم يكتب لها رسالة إشادة وإعجاب بها ملوحا بحبه لها غير مصرح، فإن رأى منها القبول الذي ينشده صرح، وإن رأى غير ذلك انسحب في هدوء وهو محتفظ بماء وجهه.

في النهاية قرر أن يفوض الأمر لقلمه كي يناجي الورقة بما شاء، من غير أن يتدخل بينهما في ذلك.

أجمل اللحظات هي تلك التي تسبق البوح، ومع ما فيها من جمال فهي مترعة بمشاعر متناقضة، فترى فيها اللهفة إلى جمالية البوح، والرهبة من ردة الفعل، فالقلب فيها كريشة معلقة بين السماء والأرض تنتظر قدوم رياح لا تدري ما هي فاعلة بها، هل ترفعها إلى عنان السماء، أم تطرحها أرضا ولا تبالي.

مضى الأسبوع عليه وكأنه أسابيع عديدة، وأقبل يوم الثلاثاء الذي كان ينشده بصبر قد نفد، فانطلق إلى الحديقة يحمله الشوق، ويدفعه الأمل، وما إن دخل الحديقة حتى صوب نظره أول ما دخل إلى الشجرة التي التقى بها في أول مرة تحت أغصانها المتناسقة، فوجدها تجلس تحتها.

أقبل نحوها وهو يحاول أن يسدل النقاب على سعادته المتجلية على صفحة وجهه حتى لا يفتضح أمره.

فلما وقف أمامها بدأها بالسلام فردت عليه سلامه ثم قالت له:

ـــ كيف حالك؟

تمنى أن يرد على سؤالها بسؤال يقول لها فيه عن أي أحوالي تسأليني؟ عن حالي قبل أن ألتقي بكِ أم بعد لقائي؟ فالإجابة حتما ستختلف.

ولكنه لم يجد بدا من أن يجيب على سؤالها المحفوظ بجواب محفوظ مثله، فقال لها:

ـــ الحمد لله.

قالت:

ـــ كم أنا شاكرة لك أن أتحت لي فرصة الاطلاع على هذا الكتاب الرائع، فقد استمتعت بقراءتي له كثيرا، لا أعرف كيف أشكرك حقا.

أسعدته هذه الكلمات منها وشجعته على أن يترك رسالته داخل الكتاب من غير أن ينزعها كما كانت تحدثه نفسه أثناء طريقه إليها، ثم قال لها:

ـــ لستِ بحاجة إلى شكري، فأنا أيضا مدين لك بجميل إعارتك لي كتابك الرائع مقامات الحريري، ولكن أتمنى أن تكوني قد انتهيتِ من كتاب جبران.

ـــ بالتأكيد قد انتهيت منه، فأنا لم أفعل شيئا طوال الأسبوع الماضي غير القراءة فيه.

وماذا عن كتابي، هل قرأته؟

أجابها بتلقائية:

ــ لقد قرأته أكثر من مرة.

ــ أكثر من مرة! وهل يكفي أسبوع لأن تقرأه أكثر من مرة!

تمتم وتلعثم، ثم تدارك نفسه فقال لها:

ــ أقصد أني قرأت فيه مقامات بعينها أكثر من مرة.

ــ لا بأس، والآن فلنتبادل الكتب مرة أخرى، فأعطته كتابه، وأما هو فكان حريصا على ألا يعطيها كتابها إلا في نهاية حديثه معها حتى لا تتفاجأ بالرسالة بداخله وهو واقف أمامها، لاسيما وهو لا يعرف رد فعلها على ما كُتب فيها ما تكون، على الرغم من كونه كان يلقى منها قبولا وانشراحا بحديثه.

فلما أعطته كتابه اضطر لأن يعطيها كتابها، فقالت له:

ــ أعتذر منك، فأنا مضطرة لأن أذهب، عندي الآن محاضرة في الكلية.

ــ في أي كلية أنتِ؟

ــ في الفرقة الثانية كلية اللغات والترجمة.

ــ في كلية اللغات والترجمة وتهتمين بالقراءة والاطلاع بهذا الشكل! هذا أمر عجيب.

ابتسمت له ابتسامة أشرق لها وجهها وهي تقول له:

ــ وما العجيب في هذا؟ أم كنت تحسب أن القراءة حق كامل لطلبة كلية دار العلوم فقط!

أصابته كلماتها بالدهشة، ثم بادرها بقوله:

ــ وكيف عرفتِ أنني أدرس في كلية دار العلوم؟ فأنا لم أخبرك بهذا!

ــ عرفت ذلك من الختم الموجود على أول صفحة من كتاب جبران خليل جبران، والذي كتب فيها: (خاص بمكتبة كلية دار العلوم)، فعرفت أنك تدرس فيها، والآن علي أن أذهب.

ــ ولكن هل سأراكِ مرة أخرى؟

ــ سأكون هنا في يوم الثلاثاء القادم إن شاء الله، هل يمكنك أن تتفضل علي وتجلب لي كتابا آخر من مكتبتكم على أن أستعيره لأسبوع واحد.

ــ بالتأكيد، أي كتاب تريدين؟

ــ أريد المجلد الأول من كتاب العقد الفريد.

ــ إن شاء الله سأجلبه لكِ صباح الثلاثاء القادم.

ثم ذهبت إلى كليتها فجلس مكانها وهو يقلب الكتاب، وكأنه يأمل أن تكون قد تركت بين صفحاته رسالة كتلك التي كتبها لها، ولكنه لم يجد مما كان يأمل شيئا، ولم يكن هذا أمر صادم بالنسبة له، فقد كان على يقين من أنه لن يجد داخل الكتاب شيئا أكثر من المداد الأسود الذي يملأ صفحاته البيضاء.

أخذ يتفكر في رد فعلها ما يكون على رسالته والتي احتفظ لنفسه بنسخة منها ليقرأها بلسانها في الحديقة وهو يتخيل أنها تقرأها.

أخرج الرسالة ثم بدأ يقرأ الذي كتبه لها:

ـــ إلى الفاتنة التي لها من اسمها أكبر حظ وأوفر نصيب.

تحية طيبة وبعد:

فقد حاولت أن أُلملم حروفي المبعثرة، وأن أجمع كلماتي المشتتة مرارا وتكرارا كي أخُط وصفاً لجمالك الفتَّان الآخذ بالقلوب والألباب إلى حيث لا تدري القلوب والألباب، ولكني في كل مرة كنت أحاول فيها ذلك كنت أعود بالفشل وأنا أجر خلفي ذيول الخيبة والعجز، وكيف لا تكون النتيجة كذلك وأنتِ أكبر من حروفي، وأعظم من كلماتي، وأنى لحروفي الضعيفة المتآكلة، وكلماتي القليلة المحدودة، أن تُحيط بك وبوصفكِ وأنتِ من أنتِ، ولا أخفيكِ سراً أني كنت أخشى أيضا من التدقيق في ذلك الوجه النُّوراني، وتلك الملامح الساحرة، وأخاف من أن ترديني في هواكِ صريعاً، فأصبح من قتلاكِ، ولا أعرف كم قتيلا لك في الهوى، ولكني على يقين لا يساوره شك أنهم من الكثرة بمكان، وقد كنت أخشى أن أكون أحدهم، وإن كنتُ لا أجزم بأني نجوت!

ولكني رأيت أيضا أن من سوء الأدب، وسُفول الهمة، وعجز الإرادة، وخور العزيمة، أن لا أخط في وصفك شيئاً يكون معي حتى أستأنس به عند فقد الأنيس، وأركن إليه إذا غزتني جيوش الوحدة، ورمتني سهام الوحشة، فأغرقتني في المآسي والأحزان نصالها، لا سيما ووجهك الذي أخذ من الروض جماله، ومن الطفولة براءتها، ومن الشمس

إشراقها، ومن الماء نقاؤه، ومن السماء صفاؤها، يستفزُّ الحجارة الصماء على النطق بمدحك، والأقلام المتعطشة لوصفك البديع على الكتابة فيما قد حوته خلقتك من الحسن، ونالته من الوضاءة، وحظيت به من الملاحة، فكيف بمن رزقه الله قلبا نابضاً، ونفساً عاشقة للحُسن والجمال أن يقف صامتا عيياً أمام ذلكم الجمال الذي يستنطق الحجارة والعجماوات، ويستهوي بحسنه سكان الأرض والسماوات!

فجلَّ البديعُ الذي جعل رؤيتك أجمل من رؤية الماء للظمآن، والحِبُّ للهيمان، وجعل نفسي تشتاق لطلعتك البهية شوق النحل للزهور، والتحليق للطيور، والحرية للمأسور.

وكل ما أريد قوله الآن من خلال هذه السطور هو أنني قد فقدتُ قلبي معكِ منذ أول لحظة رأيتكِ فيها، فإما أن تعيدي إلي ما فقدته معكِ أو أن تعطيني عنه العوض، ولست أرضى عن قلبي عوضا غير قلبكِ.

لا تحسبيني لاهيا أو عابثا، أو من أولئك الذين يتسلون بقلوب الفتيات، كلا، ولكني والله عاشق قد رماني الهوى بسهامه الوردية التي اخترقت قلبي فرمتني في هواكِ صريعا.

وأخيرا فاعذريني إن كنت قد أفضيت إليكِ بشيء من مشاعري تجاهكِ بهذه الطريقة، ولا تؤاخذيني على هذه الجرأة التي ما عهدتها في نفسي يوما من الأيام؛ فهكذا هو العشق حين يستوطن النفس، يقلب حالها رأسا على عقب، وإياك أن تنكري عشق النظرة الأولى، فهو والله حق، وأنا عليه أكبر شاهد وأوضح دليل؛ إذ أنني عشقتك من أول لحظة وقعت عيني فيها على عينيك الجميلتين.

لا أعرف ما يكون رد فعلك على هذه الكلمات التي جرى بها قلمي، بعد أن أملاها عليه قلبي، مستغلا غياب عقلي الذي لا يزال يعاني سكرا من الخمر المتدفق من عينيك الساحرتين.

ولكِ مني السلام إلى أن ألقاكِ مرة أخرى إن قدر الله لنا اللقاء.

إمضاء:

أسيركِ في الهوى/ خالد عبدالرحمن.

****

(الفصل الرابع)

خوف ورجاء، يأس وأمل، رغبة ورهبة، والكثير من المشاعر المتناقضة كانت تتصارع بداخله، فتارة يأخذه الرجاء مع الأمل والرغبة فيحلقون به في سماء العشاق بعد أن يقنعوه بأنه قد ولج أخيرا إلى عالم الوجد والهوى، وتارات أخرى يجتمع عليه الخوف مع اليأس والرهبة فيدخلان به إلى حظيرة الأوهام المخيفة، والوساوس المؤلمة، فلا يبقى بين أنيابهم سوى لحظات فيعلم أن رجاءه إلى خذلان، وأمله إلى ألم، ورغبته إلى خيبة تضم إلى سلسلة خيباته السابقة.

وما بين هذه المشاعر المتناقضة قضى يومه الأول في انتظار ما يكون رد فعل فاتن على رسالته، هل ستثور عليه وتنفعل عندما تراه نظرا لجرأته معها، أم ستلقاه بلامبالاة وكأنها ما رأت رسالته ولا قرأتها، أم ستبادله نفس مشاعره التي تغلي بداخله غليان الماء في القِدر، والتي امتلأ بها قلبه حتى فاض على سائر أعضائه وجوارحه.

أخيرا قرر أن يترك الأمر لمقدور الله تعالى، ثم جلس ينتظر يوم الثلاثاء وكأنه طفل ينتظر قدوم العيد ليرتدي الأثواب الجميلة التي اشترتها له أمه، ولكن الساعة كانت تمر عليه متقمصة شخصية الأسبوع، واليوم يمر في ثياب الشهر، وعلى الأرجح فإن هذا الأسبوع سيمر عليه وكأنه أسابيع لا نهاية لها.

لم يكن يدري أن ساعة الانتظار لها قوانين ومعايير غير الساعات المعتادة، فكأن الدقيقة فيها تسير وهي محملة بأثقال من الحديد والحجارة، فهي بطيئة الحركة من ثقل ما تحمل.

ما إن بلغ يوم الجمعة حتى نفد صبره ولم يعد قادرا على أن ينتظر أكثر من ذلك، فقرر الذهاب إلى الحديقة فلعله أن يجدها مثله بصبر قد نفد فاستبطأت الثلاثاء كما هو شأنه وذهبت اليوم.

ولكنه لم يعد قادرا على كتم ما بداخله، فقرر أن يبوح به لأحدهم أملا في أن يجد في ذلك السلوة أو الراحة.

ذهب إلى بيت صديقه محمود في صباح يوم الجمعة وقال له تعالَ لنذهب إلى الحديقة.

ــ لا رغبة عندي في ذلك، يا خالد اعذرني.

ــ لا عذر لك، ستأتي معي لأني أريدك في أمر هام.

ــ وأي أمر هذا الذي جعلك تأتي إلي باكرا هكذا!

ــ سأخبرك في الحديقة، هيا بنا.

وفي الحديقة انطلق كالسهم لا يلتفت يمنة ولا يسرة متوجها إلى الشاهد الوحيد على حبه فلم يجدها هناك كما توهم.

نظر إليه محمود وهو يستغرب حاله ثم قال له:

ــ ما بك يا خالد؟ أمرك عجيب، في البداية تأتني على غير عادتك باكرا، ثم في الطريق تسرع بشكل غريب كأنك تسابق الريح حتى أرهقتني في السير، فلما وصلنا إلى هنا أراك تتصرف بغرابة، ثم تطوف حول هذه الشجرة كالأطفال!

ما بك؟ هل جننت!

ــ نعم يا محمود لقد جننت، ألا تعرف أن الهند كانت تقول أن الجنون فنون، وأن العشق من فنونه.

ـــ هل معنى هذا أنك....

ـــ نعم معناه أني......

ـــ ولماذا لم تخبرني بهذا أيها المحتال؟ تعلمت أن تخفي عني، بينما أنا أول ما تعرفت على خطيبتي هدير وبدأت أهيم بها لم أخبر باستثنائك أحدا.

ـــ أيها الأحمق، لماذا جئت بك الآن معي إذن! لقد أخبرتك أني أريدك في أمر ما وهذا هو.

ـــ ولكن ما علاقة هذا بهذه الأمور الغريبة التي تفعلها؟

ـــ هذا هو الأمر الهام الذي أردت إطلاعك عليه، ثم أخبره بشأنه معها من أوله إلى آخره أثناء سيرهما معا في الحديقة، فقال له ممازحا:

ـــ هل أنت واثق أنك عشقت الفتاة؟ أخشى أن تكون قد عشقت الكتاب الذي كان في يدها، فأنا أعرفك مولعا بحبك للكتب والقراءة منذ زمان.

ـــ ولماذا لا أكون عاشقا لكليهما في آن واحد؟ فقد أعجبني ظاهرها الذي يلوح الجمال والحسن في كل جزء من أجزائه، وجذبني باطنها الذي استشفيت من تركيزها في الكتاب أنه لا يكون إلا مطرزا بجمال المعرفة والثقافة والفكر كما هو شأن ظاهرها الغارق في الوضاءة.

وما إن سمعوا قرآن الجمعة وشعائرها حتى ذهبوا إلى الجامع الأزهر لأجل الصلاة، ثم عاد إلى البيت مرة أخرى كي يعاني من مرارة الانتظار، ويتصارع مع مشاعره المتناقضة إلى أن غاب ضياء النهار في ظلام الليل، فاستلقى على سريره وأطفأ ضوء الغرفة ثم راح يسبح في ملامح وجهها مرة أخرى من خلال صورتها المنقوشة على صفحة قلبه

وعقله معا، وأخذ يسترجع حديثه معها، ويتذكر ابتسامتها الساحرة حين أخبرها بتعجبه من اهتمامها بالقراءة والاطلاع، ثم انتقل من استرجاعه للقائه الماضي معها إلى توقعه للقائه القادم بها، وأخذ يفكر فيه كيف يكون بعد أن كشف النقاب أمامها عن مشاعره تجاهها، وكيف يبدأ الحديث معها وفي أي محور سيدور حديثهما، هل سيدور حول الكتب والكتاب، شأن لقائه السالف بها، أم سيكون حول العشق والعشاق وقد صار واحدا منهم.

وأي ثوب سيرتدي حين يذهب للقائها، لم يكن عنده غير ثياب محدودة يمكنه أن يخرج بها، وكلها ثياب قديمة، آخر ثوب اشتراه كان من قرابة الثمانية أشهر، كان يجب أن يقتصد في نفقاته حتى لا يحمل منصور أعباء فوق التي يحملها.

قرر أن يستعين بمحمود في هذا الأمر بأن يأخذ منه الثياب التي سيرتديها يوم الثلاثاء القادم، ثم ظل يُشرِّق ويغرب مع أفكاره وتخيلاته إلى أن انكشف الظلام وارتفعت الشمس فتوجه مباشرة إلى الكلية من غير أن يعرف النوم إلى عينيه طريقا، ومن غير أن يحضر أي محاضرة توجه إلى المكتبة ليستعير منها المجلد الأول من كتاب العقد الفريد فتفاجأ بأنه غير موجود بالمكتبة!

قرر أن يبحث عن الكتاب بنفسه بعد أن استأذن إدارة المكتبة في هذا، ثم ظل أكثر من ساعتين يبحث عنه فلم يعثر له على أثر إلى أن وجد بشق الأنفس مجلدا منه، فإذا به المجلد الثالث، ولكن المطلوب هو الأول لا الثالث!

غادر المكتبة وهو متضجر من الوقت الذي أضاعه في البحث عن الكتاب بغير جدوى، بعد أن أخذ يوبخ القائمين على المكتبة ويقول لهم:

ــ كيف تجيزون لأنفسكم أن تقبضوا رواتبكم على عمل لا تحسنون القيام به.

هذه المكتبة تعتبر أكبر وأقوى مكتبة في مكتبات الجامعة قاطبة، فكيف تتركونها تغرق في هذه الفوضى حتى أن الباحث فيها لا يكاد يصل إلى كتاب يريده إلا بشق الأنفس هذا إن وصل إليه.

وبعد تفكير ليس بالطويل في إيجاد حل لهذه المشكلة قرر أن يشتري الكتاب ويعطيه لها كهدية، ورأى أن هذه فرصة جيدة ستتيح له أن يبرهن على حبه لها بطريقة عملية.

ثم خرج من الجامعة متوجها إلى سور الأزبكية بحثا عن الكتاب في مكتباتها الكثيرة المتجاورة، ولم يبحث طويلا حتى عثر عليه، فسأل عن ثمنه فوجده بخمسين جنيها، وكانت هذه عقبة جديدة أمامه، فالمال الذي معه أقل من عشرين جنيها، فذهب ليقترض الثلاثين الناقصة من أحد أصدقائه، ثم اشترى الكتاب ورجع به إلى البيت.

****

في ليلة الثلاثاء المنشود خرج كي يمارس هوايته المفضلة لديه وهي السير في الطرقات، كان المشي مرتبط عنده بالتفكير، فكلما أراد أن يمعن في التفكير خرج ليمشي وكأنه بمشيه يلاحق أفكاره المتناثرة أمامه في الطرقات، فيجمع شتاتها، ويؤلف بين متنافرها، ولكنه هذه المرة لم يخرج لأجل التفكير قدر ما خرج لأجل قطع الوقت الذي كان يمر عليه ببطء عجوز!

ظل يسير في الطرقات من غير أن يقصد مكانا بعينه، غير أنه كلما نظر إلى شيء في طريقه وجد صورتها منعكسة عليه، فكان يراها على اللافتات التي انتشرت على أبواب المحلات انتشار النجوم في السماء، وعلى زجاج السيارات التي تزاحم المترجلين في الطرقات.

كانت صورتها تنعكس أمامه في كل شيء يصوب نظره إليه، وكأنها تراقبه من بعيد، وربما كان هذا هو ما شجعه على أن يمضي أكثر الليل في السير إلى غير قبلة يقصدها.

وفي صباح الثلاثاء المنتظر ما كاد يصدق أنه بعد قليل سيراها مرة أخرى ويحدثها وتحدثه، وقف أمام المرآة أكثر من نصف ساعة يرتدي ثيابه المستعارة، ويهذب شعره الطويل وهو يرجعه إلى الوراء، ويضع من العطر الذي أهداه له محمود مع الثياب التي أخذها منه، ثم انطلق إلى الحديقة من غير أن يتناول وجبة الإفطار، ومعه كتاب العقد الفريد الذي اشتراه لها قد وضعه داخل علبة هدايا عليها رسومات أنيقة وألوان جذابة.

مضى في طريقه إليها كأنه عروس في يوم زفافه، أو كأنه أمير ذاهب إلى تتويجه الإمارة التي طارت في سبيلها الأعناق، ثم رجع يفكر مرة أخرى في حديثه معها عن أي شيء يكون، هل يكشف النقاب عن مشاعره لها أكثر، أم يتركها هي تبدأُ الحديث معه ليرى مدى تقبلها لمشاعره، ولكن على الأرجح هي لن تبدأ بشيء، إذ حياؤها سيكون حائلا بينها وبين أن تفعل.

كان يعرف أن الفتاة حتى وإن تجردت من الحياء فإنه لا يمكنها أن تأخذ الخطوة الأولى في الحديث عن المشاعر فضلا عن البوح بها، فالحياء وإن كان هو الحائل الأول بينها وبين ذلك فإنه ليس الوحيد، فكبرياؤها كأنثى يقوم مقام الحياء إن هي فقدته، فكيف بها وقد اجتمع فيها حياء العذراء وكبرياء الأنثى.

ظل يحدث نفسه بهذه الأمور طوال طريقه حتى وجد نفسه أمام الحديقة وما استقر على رأي، دخل ثم توجه مباشرة كعادته إلى الشجرة المحببة إليه والتي شهدت ولوجه إلى عالم العشق فلم يجد أحدا تحتها غير بعض الأوراق التي سقطت منها فعز عليها أن تبتعد عنها فاستقرت تحتها.

جلس تحتها بجوار الأوراق المتساقطة ينتظر قدوم الفاتنة كاسمها ما بين أمل في أن تأتي وخوف من عدم المجيء، ولكن أمله غلب يأسه ورجاؤه علا خوفه، ولم يبقَ عنده في قدومها أدنى شك.

مرت ساعة تجر في ذيلها ساعتين وهو جالس تحت الشجرة وعينه لا ترتفع من على باب الحديقة منتظرا دخولها فما أتت ولا دخلت، وعلى الرغم من ذلك أبى أن يستسلم لليأس في مجيئها، ومرت دقائق أخرى تجر في خلفها المزيد من الساعات، فلما أحس باليأس يدب في قلبه قام يسير في الحديقة يبحث عنها بين الشجر والنخيل، وعند البحيرة وحولها، فقطع الحديقة طولا وعرضا من أولها إلى منتهاها بحثا عنها وهو يحمل هديته في يمينه، فما وجد لها ريحا ولا أثرا، فتمكن اليأس منه بجملته ثم رجع إلى البيت منكس الرأس، موجوع القلب، وهو يشعر أن كل الساعات والأيام التي قضاها في انتظار اللقاء المنشود قد ضاعت هباء منثورا، فتمكن الحزن من قلبه، ثم أخذته الوساوس، واحتضنته الهواجس في عدم مجيئها، هل كان بسبب علة عارضة أحالت بينها وبين المجيء، أم حدث لها مكروه، أم أن عدم مجيئها أمر متعمد ليكون بمثابة رسالة صامتة منها ترد بها على رسالته تعلمه فيها أنها قد لفظت حبه، ورفضت أن تكون نزيلة قلبه.

أخذ يقول في نفسه تراها ظنت بي الظنون فحسبتني من الشباب العابثين الذين يتلهون بقلوب الفتيات باسم الحب وقلوبهن من الحب خالية خلاء الصحراء القاحلة من قطرات الماء!

ظل على هذا الأمر طوال الأسبوع لا يقر له قرار ولا يهنأ بطعام أو منام، إلى أن أقبل يوم الثلاثاء فقرر أن يذهب إلى الحديقة فلعله أن يجدها هذه المرة، حتى أنه تمنى أن تأتي ولو أن تخبره برفضها له ولحبه فيتقدم إليها بالاعتذار كي لا يكون آخر عهدها به هو أنها تحمل له بقلبها شيئا أو أن يكون بداخلها عنه انطباعا سيئا.

وكان شأنها معه في هذا اليوم كشأنها في نظيره من الأسبوع السالف، فقرر أن يذبح طائر الأمل بسكين اليأس، وأن يحذف اسمها من قاموس لغته، ويستل حديثه معها ورؤيته لها من أعماق ذاكرته.

فما قدر على ذبح الطائر ولا أطاعته فيما عزم الذاكرة.

ما أن رجع إلى البيت حتى تفاجأ بفتاة تقف على باب المترل، أخبرته أنها هدير خطيبة محمود، ثم بادرته بالسؤال عن مكان محمود، فقال لها:

ــ لا أعرف، أليس في مترله؟

ــ كلا، لقد تشاجر مع والده من يومين، ثم غادر المترل وهو في قمة غضبه، وحتى هذه اللحظة لم يرجع، ولا أحد يعرف عنه شيئا، فحسِبت أنك على علم بمكانه لأنك أقرب أصدقائه إليه كما أخبرني بهذا.

ــ كلا، فأنا أيضا لا أعرف عنه شيئا، ولكن يمكنني أن أتوقع أين يكون، ولكن لا تقلقي، أعدك أن أبحث عنه عند سائر أصدقائنا، وإن وصلت إليه فسأقنعه بضرورة الرجوع إلى البيت سريعا وأجعله يطمئنكِ عليه.

ــ بل لا أريدك أن تخبره بأنني لجأت إليك في هذا، فهو كما تعلم شديد الغيرة، وأخشى أن يتضايق من هذا الأمر إن هو اطلع عليه.

ــ أعرف ذلك جيدا، ولكن كيف يمكنني أن أخفي عنه شيئا كهذا!

توسلت إليه أن لا يفعل فوعدها بذلك وهو كاره، ثم انصرفت بعد أن اعتذرت منه على المجيء إليه، وإشغاله بالأمر.

كانت هذه هي المرة الأولى التي يرى فيها خالد هدير خطيبة محمود، مع أنه كان يسمع عنها من محمود الكثير من أخبارها وأحوالها، فعرف منه أنها تدرس في كلية التربية، وأنها على قدر كبير من الجمال، ولا يعيبها من وجهة نظره إلا أنها كثيرة الأسئلة، فلا تكاد تعرف أنه خرج مع أحد من أصدقائه إلا وتسأله مع من خرجت وإلى أين ذهبتم، ومتى رجعت إلى المترل، ولماذا لم تخبرني بالأمر، وسلسلة من الأسئلة التي لا تنتهي غالبا إلا بانفعاله عليها ومن ثَم يتشاجران معا وينتهي الأمر في كل مرة باعتذاره منها بعد خصام يستمر ليوم أو يومين حتى وإن كانت هي السبب في أن يصل الأمر إلى الشجار!

كما أنه يعرف أن كثيرا من شجاراتهم معا تكون بسببه لأنها تغار من صداقتهما وتشعر بأنه يأخذه منها، وكثيرا ما كانت تغضب بسبب حديثه الدائم معها عن خالد وأحلام خالد، ومشاكل خالد.

****

ما هو إلا أن دخل البيت حتى علم من أمه أن علياء أصبحت تحمل بين جنبيها ذلك المولود الذي سيحمل اسم منصور، وعلى الرغم من كونه كان يعشق الأطفال بشكل كبير إلا أن خبر حمل علياء والذي طال انتظار الجميع له بعد أن مكثت بعد الزواج أعواما لا تنجب لم يستطع أن يخرجه من حزنه الذي استوطنه، فتظاهر بالفرح والسرور حتى لا يظن به أحد الظنون، لاسيما والسعادة ساطعة في وجوه الجميع.

بارك لمنصور وزوجه، ثم توجه إلى غرفته متعللا بالإرهاق، وحاجته إلى قسط من الراحة.

كان خالد يعرف أن علياء تبطن بداخلها غير ما تظهر، لا لأنه على علم بالفراسة وقراءة الوجوه فقط، ولكن لأن الذي تضمره بداخلها كان أحيانا يظهر عليها فيفضحها.

فكانت على سبيل المثال لا تحب زينب، بل كانت على عكس ذلك، فإذا عرفت أن شيئا ما قد يتسبب في ألم لها أو حزن فعلته وكأنها عدوة لها، بل كانت أحيانا تتشاجر معها، فإذا ما أتى منصور سبقتها بالشكوى والتذمر، حتى وإن كانت هي الجانية عليها كما هو الشأن غالبا إن لم يكن دائماً، ثم تؤيد شكواها هذه بالقليل من الدموع، والكثير من الكذب والافتراء، ولا حيلة للمسكينة معها نظرا لصعوبة الكلام عليها وما كانت تعانيه من ثقل في لسانها.

بل وصل الأمر إلى بعلياء أنها كانت تتحاشى أن تأكل من طبق أكلت فيه، أو تشرب من كوب سبقتها إلى الشرب منه؛ وذلك لانها كانت تتقزز منها، ولكنها ما كانت تجرؤ على أن تفصح عن ذلك أو تتفوه به، لأنها كانت تعرف رد فعل الجميع عليها ما يكون.

وكثيرا ما كانت تلمح ولا تصرح بأن أمه تفضله على منصور في المعاملة، وتعطيه من كل شيء أكبر حظ وأوفر نصيب، ابتداء من الحب الذي تضمره له في قلبها، وانتهاء بالراحة التي يهنأ بها دون منصور، وتوفير كل شيء له، ويوما بعد يوم كانت تعمل على تأجيج نار الفتنة داخل البيت ما بين منصور وخالد، لاسيما بعد أن كانت ترغب في أن يتزوج من أختها، ولكنه قابل هذا الأمر الذي اقترحه عليه منصور بالرفض مع علمه بأنها هي التي وراء ذلك الاقتراح.

وكم كانت تعمل على إثارة بعض الأشياء في البيت والتي من شأنها أن تتسبب في خلافات بينه وبين منصور، وكان كل منهما يحاول تجنب هذه الأمور، وكلما زجرها منصور ونهاها عن اختلاق المشاكل كلما ازدادت عنادا وغيا.

تناسى كل هذه الأمور ثم أسلم جنبه لسريره مستسلما للنوم الذي بدأ يداعب عينيه بعد أن ضبط المنبه على الساعة العاشرة مساء من أجل البحث عن صديقه المفقود.

في المساء توجه إلى أحد أصدقاء محمود في الكلية، وكان يغلب على ظنه أن سيجده عنده، لأنه لم يكن له من ملاذ غيره بعد كل مشاجرة له مع والده.

سأله عن محمود، فأخبره أنه عنده، ثم أدخله إليه فسلم عليه سلاما حارا، وبعده راح يقنعه بضرورة رجوعه إلى البيت لا لأجل نفسه أو والده، ولكن لأجل أمه التي يكاد خوفها عليه أن يشطر قلبها شطرين، فلما رأى منه اقتناعا بكلامه تردد في إخباره بأمر هدير واستعانتها به أو لا.

قرر ألا يخبره بشيء، إذ الأمر من وجهة نظره كان أيسر من أن يوليه كل هذه الأهمية، لاسيما وقد أعطى لخطيبته وعدا بأنه لن يخبره بشيء، وكان عسيرا عليه أن يخذلها في أول أمر ترجوه فيه.

وفي أثناء تردده في إخباره بالزيارة أو لا سأله محمود قائلا:

ـــ كيف أنت يا خالد مع حبك الجديد؟

بدا الحزن جليا على وجه خالد حتى أنه عجز عن مواراته نظرا لأنه قد استحكم عليه ظاهرا وباطنا، فما كان منه إلا أن رد عليه بالصمت.

فقال له مداعبا وقد رأى سحابة من الحزن على وجهه:

ــ ما الأمر يا خالد، أظن أن زجاجة عطري لم تؤدِ دورها المنوط بها على أكمل وجه، أليس كذلك؟

ــ لا يا صديقي، أعتقد أنني أنا الذي لم يؤد دور العاشق على أكمل وجه، أو ربما مقدوري أن أقع في حب من لا تحبني حتى أتعذب بها من حيث لا تدري عن عذابي بها شيئا، ثم أخبره بعزوفها عن المجيء.

ــ لا تحزن يا خالد، أنا لا أظنك أحببتها ابتداءً، وما أردت مصارحتك بهذا حتى لا تحمل في نفسك شيئا من ناحيتي، أو تظن بي الظنون.

ــ وما الذي حملك على أن تظن أنني ما أحببتها؟

ــ الذي حملني على هذا هو أنك ما أخذت الوقت الكافي معها الذي يتيح لك أن تقع في عشقها، ألا تعرف أن أكثر من يعيشون قصص الحب هم في حقيقة الأمر يعيشون وهم الحب لا حقيقته، وأظنك واحدا منهم، فإدمانك لقراءة قصص الحب مع ما بك من لهفة لأن تعيش قصة تكون أنت البطل فيها جعلا عقلك الباطن يوهمك بأنك أخيرا قد وجدت ضالتك.

ــ كلا يا محمود، ليس الأمر كما تقول، لست مراهقا حتى لا أعرف كيف أميز بين الحب ووهم الحب، وأعترف لك عن علم وقناعة أنني أحببتها، بل حتى ثيابي لو تمكنت من النطق لأخبرتك بهذا، فهي شاهدة على حالي عالمة به.

وأما عن كوني لم آخذ الوقت الكافي معها كي أحبها فهو أمر غير ضروري، إذ الحب يا صديقي لا يتولد من تطاول الزمان وتعدد اللقاءات، ولكنه التقاء بين الأرواح في المقام الأول قبل أن يكون بين الأبدان، وهذا أمر لا يحتاج إلى كثير وقت، فالأرواح عالم آخر مستقل بذاته لا تحكمه قواعد عالم الأبدان، بل ربما التقت الأرواح وتجاذبت من قبل

أن تلتقي الأبدان، فترى العاشق يقابل معشوقه للمرة الأولى في حياته فيشعر أنه يعرفه منذ وقت طويل وأن هذه ليست هي المرة الأولى التي يلتقي فيها بشخصه، وهذا هو حالي مع فاتن.

أشعر أنني أعرفها منذ زمان، ومع شدة إعجابي بجمالها إلا أنني لا أستطيع أن أجزم بأنه أول ما جذبني إليها، فهي بكل تأكيد ليست أجمل من رأيت، ومع هذا فلم يسبق لي أن سلبني أحد قلبي وفكري وعقلي وكلي غيرها.

يدلك على ما أقوله يا محمود من أن الحب ليس بحاجة إلى امتداد الزمان وتعدد اللقاءات كي يولد أنك ترى الرجل تقع عينه على البيت فيعشقه من أول لحظة، وربما وقعت عينه على بيت آخر فيبغضه من اللحظة الأولى، بل ربما قضى فيه بعد ذلك عشرة أعوام أو أكثر ولا يزال انطباعه عن البيت هو نفس الانطباع الذي كان بداخله منذ اللحظة الأولى التي وقعت فيها عينه عليه.

فالشخص الذي لا تحبه من اللحظة الأولى يصعب عليك بعد ذلك أن تحبه ولو عاشرته ألف عام، وربما كان هذا هو السر خلف ارتفاع نسبة الطلاق في عالمنا العربي، فإننا نمتلك فلسفة في هذا الأمر ليست عند أحد سوانا، وهي أن الحب يتولد بطول العشرة، فيتزوج الشاب من الفتاة التي لا يهواها على أمل أن يتولد الحب بينهما بعد ذلك كما أوهموه، فلا يجد شيئا يتولد غير المزيد من التنافر، فلا يلبث على هذا إلا قليلا حتى يعمل بالحكمة التي تقول:

إن لم يكن وفاق ففراق، ولا أرى لهذا سببا غير تلك الفلسفة الخاطئة التي لا يقرها عقل ولا تؤيدها تجربة.

سمع رفيق محمود في الكلية هذا الحوار بينهما من أوله إلى آخره، وكان يعرف خالد غير أنه لم يكن على صلة قوية به كتلك الصلة التي بينه وبين محمود، فقال لهما متهكما:

ــ إذن فقد وقعتما معا في حفرة العشق التي قل أن يسقط فيها أحد فيعلو لها كعبا.

أبشرا بالخيبة والندامة تنتظركما في آخر الطريق.

فقال محمود لخالد وهو يهمس في أذنه:

ــ لا عليك منه، فهو معقد من جنس النساء منذ هربت والدته من المترل مع عشيقها تاركة إياه صغيرا في حجر والده كما أخبرتك سلفاً.

لم يكترث لما يقوله محمود عنه لخالد همسا ثم استرسل في كلامه:

ــ للأسف أنتما لا تعرفان حقيقة المرأة، ولو عرفتما حقيقتها لما وقعتما في العشق يوما من الأيام.

سأله خالد متهكما:

ــ أخبرنا أنت عن حقيقة المرأة، فلعلك تعرف عنها ما نجهله نحن.

فتح أحد أدراج مكتبه وأخرج منه وريقات ثم قال لهم وهو يشير إلى الوريقات التي أخرجها:

ــ هذه هي المرأة التي تجهلون حقيقتها.

ولأن خالد ممن عندهم شغف بقراءة كل شيء حتى وإن كان على نقيض ما يعتقد فقد بادره قائلا:

ــ هل تأذن لي بقراءتها؟

فقال له:

ــ بل اقرأها أنا عليكما، فأنا عليكما مشفق ولكما من الناصحين.

ثم شرع في القراءة مشترطا عليهما عدم مقاطعته حتى ينتهي مما فيها كلها فوافقا على ذلك، غير أن محمود كان مترددا أول الأمر فأقنعه خالد بأنه لا بأس من معرفة رأيه في هذا، ثم شرع في قراءة رأيه في النساء عليهما قائلا:

ــ تبا لكن يا بنات حواء ما من طريق للشر إلا وقد سلكتموه،وما من قبيح إلا وقد أتيتموه، وما من جريمة حدثت إلا ولَكُنَّ فيها يد.

فقاطعه محمود قائلا:

ــ ألم أقل لك يا خالد؟ ها قد بدأ في تلاوة عقده وها هو أول القصيدة كفر!

فقال له خالد:

ــ قد قطعنا على أنفسنا شرطا بأننا لا نقاطعه، دعنا نستمع إلى ما عنده، فاسترسل في القراءة فقال:

ــ تنظر إلى المرأة فتجد الغرور يكسوها من أسفلها لأعلاها حتى وإن لم يكن عندها ما يدعوها إليه، وعليها كبر وتيه وكأنها النور أو الضياء، أو الشمس في كبد السماء.

ولا أدري والله ما الذي يدعوها إلى الغرور والكبر وهي في الفضائل قد أعلنت الدنيا إفلاسها، أم تراها قد تناست أنها امرأة!

وإنه لمن الواجب على كل من أراد الله تعالى به الخير فعافاه من تاء التأنيث ونفخ فيه الروح ذكرا يوم نفخ أن يحمد الله ويشكره على هذه النعمة العظيمة حمدا وشكرا لا انقطاع لهما ولا انتهاء، ثم ليعلم أنه لو قدر للشيطان أن

يتجسد في صورة لما ناسبه إلا صورة المرأة فبينهما صلة وتشابه، ثم هي من جنوده المقربين، بل هي من أخلص جنوده له، وأبرهم به، وأوفاهم بعهده، وأعرفهم بحيله ومكره ودهائه، ولذا فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (النساء حبائل الشيطان).

أم أنك تحسب أنهن أكثر أهل النار من فراغ!

تبا لذلك الجنس لا بارك الله له ولا رحم فيه مغرس إبرة، فكم تسببن في إشعال فتنة، وقيام حرب، وإراقة دماء، وتمزيق أشلاء، وضياع حق، ونصرة باطل، وإغواء صالح، وتنكيس قلب، وقلب موازين، وسجن مظلوم، وبلاء منكوب، وإفشال مجتهد، وضياع تعب واجتهاد مجد، ولو ذهبت تحصي ما تسببن فيه من شر وبلاء، وخزي وشقاء، لأعياك العد ولما استطعت، وهيهات هيهات أن تستطيع!

كم أخرجوا ذا وقار من وقاره، وذا هيبة من هيبته، وذا دين من دينه، وكم تسببوا في كفر عالم بالعليم، وكم من رؤوس أكبوها على مناخرها في الجحيم، فذاقت بسببهن العذاب الأليم.

وكيف يطيب لنا معهن عيش وقد حادت عنهن كل صفة يمدح بها محمود، ورافقتهن كل صفة يعاب ويذم بها مذموم؟

فلهن غباء الضب، وحقد الجمل، ومكر الثعلب، وليونة الأفعى، وتبلد الخنزير، وكبر الخيل، وغرور الطاووس، ومسكنة القطة ثم جحودها، وتبدل الحرباء، وخباثة الدب، وحرص الغراب، وشره الكلب، وفسق الفأرة، وخبث الحية، وعبث القرد، وثرثرة البغبغاء، واقتناص الصقر، وجمع النملة، ونوم الضبع، ونسيان السمك، وغير هذا كثير وكثير.

السر عندها ضائع، والخيانة سلعتها الرائجة، والكذب لها شعار، والنكران لها وصف، والعناد فيها طبع، والنميمة فاكهتها المفضلة، والغدر لها عادة، واللؤم من أجل صفاتها، ومع كل هذا فقد بلغت في الحماقة والغباء مبلغا عظيما.

لو قدر للمرأة أن تكون حيوانا لكانت خنزيرا، فكل منهما يأتي المخازي ولا يبالي، أو طائرا لكانت طاووسا، وكل منهما بغبائه معروف وبحماقته موصوف.

ولو قدر لها أن تكون من الزواحف لكانت أفعى، وكل منهما في جوفه يحمل سموما لا حصر لها وقد عرفا بالمكر والحيلة.

ولو كانت حيوانا مائيا لكانت تمساحا وكل منهما كذاب بشع، نهم جشع.

فتش خلف أي مصيبة حدثت منذ نفخ الله في آدم الروح وحتى قيام الساعة تجد خلفها امرأة، وقلَّ أن تقع رزية، أو تحل بلية، إلا وتجد خلفها تاء التأنيث إن أنت أمعنت النظر.

وإنك لتنظر إلى فئة منهن فتشعر أنك تنظر إلى نار جهنم وقد تسعرت، وفئة منهن كأنهن الخيانة في أقبح صورها، وأكثرهن فاجرات، وقل أن تخلو من الفجور امرأة قلَّ ذلك عندها أو كثر.

ليت شعري كيف يعيش من ابتلي بها زوجة، وكيف تهنأ له معها حياة، إلا أن يعيش معها بالحذر واليقظة في ليله ونهاره، وليت شعري هل تصد اليقظة أو الحذر المرأة عن غيها إن هي أرادت غيا!

وما أقبح المرأة حين تقابل ثقة زوجها بخيانتها، وحكمته بحماقتها، ومعروفه بنكرانها، وإحسانه بإساءتها، ولينه بتماديها في طغيانها، وما أكثر ما يلين الأزواج وما أكثر ما تطغى النساء.

ثم يكفيهن خزيا وعارا أن الرجل إن أراد أن يبالغ في هجاء صاحبه شبهه بالمرأة أو سماه باسمها، بل هي إن أرادت أن تسب الرجل وتهجوه نعتته بكلمة امرأة!

ولو تأملت في بعض أسمائها لعلمت أن الشقاء منها وبها، فقد سميت جارية لأن الخيانة في دمها تجري، وهي غبية ولكن استبدلوا الغين بالصاد، وعنت ووضعوا الباء مكان العين.

ومن العجب أنك قد تجد في الرجال واحدا من كل ألف يحسن التمثيل هذا إن وجدت، وما من امرأة إلا وقد بلغت فيه الغاية، حتى حازت فيه قصب السبق، وما هذا إلا لأنهن قد مارسنه حتى أصبح لهن عادة وسجية!

وإذا فتشت عن قانعة في النساء أعياك التفتيش، ولن بغيتك أبدا، فلا تجهد نفسك في البحث، فالقناعة كلمة ليس لها في قاموسهن وجود، بل على النقيض من ذلك، فإن المرأة لا تقنع بشيء أبدا، فكلما حصَّلت شيئاً استشرفت وتطلعت لآخر، حتى إنها لو قدر لها أن تمتلك مفاتيح خزائن الأرض لطلبت مفاتيح خزائن السماء، وهكذا إلى أن يشاء الله ربك شيئا.

ثم إن إرضاؤهن يكاد يكون مستحيلا من المستحيلات، فلو ظللت عمرك كله لهن خادما ومطيعا، سامعا وملبيا ومجيبا، قد جعلت وقتك وعمرك ومالك حكرا عليهن لما أرضيتهن، ولما رضين عنك أبدا، بل مع أول هفوة أوجفوة تصدر منك تصدر منهن اللفظة النبوية التي أخبر عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم: (ما رأينَ منك خيرا قط)!

وما هذا إلا لأنهن ناكرات للجميل وإن طال، ناسيات للمعروف وإن عظم، ذاكرات أبد الدهر للإساءة وإن حقرت، ولا تعجب فهي امرأة

ولولا فطرة في الرجل فطر عليها لما اقترب منها يوما من الأيام، وكيف له أن يفعل وهذا شأنها، وذلك وصفها!

كأن الله تعالى ما خلقها إلا لتكون شقاء للبشرية، فما من مخلوق سلم من أذاها، حتى هي لم تسلم من أذى نفسها.

ثم تأمل إن كنت متأملا في أن الخيانة مؤنثة، والجريمة مؤنثة، والخديعة مؤنثة، والحماقة مؤنثة، والنكاية مؤنثة، وما هذا إلا لحكمة علمها من أضاء الله بصيرته، وجهلها من طمسها له فهو هو في ظلمات جهله يسير.

وهنا قاطعه محمود قائلا له:

ـ حسبك أيها المعقد، فقد كدت تكرهني في الدنيا وما فيها، لا في النساء فقط، ثم نظر إلى خالد وهو يقول له:

ـ تبا لك يا خالد، أما قلت لك دعك منه فهو معقد من جنس النساء كله، ها أنت تستمع له وكأنك ما أردت إلا أن يصيبنا بعقدته ويعدينا بها.

فقال خالد موجها كلامه لكليهما:

ـ اعلموا أن المرأة شأنها شأن الرجل، فكما أن في الرجال الصالح والطالح، والأمين والخائن، والصادق والكذاب، فكذلك الشأن في النساء.

بل إن في النساء وربي من تعدل من الرجال ألفا، بل مئات الآلاف ولا أبالغ.

أما هذا الذي قرأته علينا ففيه من الظلم والجور والإجحاف ما فيه، وإن لكل امرأة في عنقك حقا تطالبك به غدا أمام الله تعالى إن أنت تماديت في هذا، ولم تتوقف عن النيل منهن بمثل هذه الكلمات التي لا يقرها شرع أو عقل.

انصرفا من عنده وبهما من الضجر ما بهما، غير أن خالد كان أقل ضجرا من محمود، إذ كان لديه في عقله الرد على كل ما قاله تفصيلا فلم يقف مع ما قاله طويلا، بل تناساه بعد لحظات من سماعه له، خلافا لمحمود الذي ظلت بعض الكلمات ترن في أذنيه رنينا مزعجا.

****

مضى يوم يجر في أثره بضعة أيام إلى أن وجد خالد نفسه في صباح الثلاثاء فقرر الذهاب من جديد، فما رجع من هناك إلا بالمزيد من الخيبة التي حصل عليها في المرتين الماضيتين بعد أن انتظر قدومها عدة ساعات، فعزم ألا يذهب إلى هناك مرة أخرى، لا في يوم الثلاثاء الذي حفر في ذاكرته، ولا في غيره من الأيام، ودون أي ترتيب أو إعداد مسبق وعلى خلاف ما عزم وجد أقدامه لا إراديا تقوده إلى الحديقة في الثلاثاء الذي تبعه مباشرة.

جلس تحت الشجرة التي لم يعد يعنيه من تلك الحديقة الواسعة غيرها هي، وكأن الحديقة على كثرة ما بها من شجر ونخيل قد تجسدت كلها واتحدت داخل هذه الشجرة التي شهدت مولد حبه الذي ضاع منه من قبل أن يظفر به.

يحدث في دنيا العشاق أن يتقلص الكون كله على سعته في شيء صغير، ربما كان هذا الشيء أول هدية من المحبوب، أو أول رسالة منه، أو المكان الذي كان شاهدا على أول لقاء بينهما، أو أي شيء آخر يحمل عبق رائحة ذلك المحبوب التي تنعش الذاكرة من آن إلى آخر، وتساعدها على تذكر كل الأشياء التي جرت بينهما بأدق تفاصيلها.

جلس متفكرا وهو مطرق برأسه إلى الأرض وسحابة الحزن على وجهه تنذر بالتأهب لتساقط الأمطار الغزيرة من عينيه الحزينتين عما قريب.

وبينما هو على تلك الحال التي يرثى لها إذ بفتاة واقفة عند رأسه تقول له وهي تضع كلتا يديها على خصرها:

ـــ هل جميع طلاب كلية دار العلوم ليس لديهم وفاء بالوعد مثلك؟

أين المجلد الأول من كتاب العقد الفريد الذي كنت وعدتني به قبل شهر من اليوم؟

رفع رأسه وهو يكذب أذنيه وما أخبرتاه به ويحسب أنه قد بدأ يتخيل ويتوهم وهو بعد في اليقظة غير نائم،فإذا بها واقفة أمامه فعلا وهي تبتسم له ابتسامة رقص لحسنها قلبه على أنغام دقاته المتتابعة في سرعة وضجيج.

صمت هنيهة من فرط سعادته بعد أن عقدت المفاجأة لسانه، وألقى وجهها الساحر على وجهه المغطى بستارتين من الحزن والكآبة تعويذة رمت به في كل واد وشعب.

ثم لم يدر ما يقول لها، هل يقول لها: قد اشتقت إليك كثيرا حتى برى الشوق جسدي، وطرد النوم عن عيني وقطعني عن كل شيء إلا الحزن، وجردني من كل شيء إلا الفكر، حتى خفت على جسمي التلف، وعلى عقلي الجنون، وما من عاشق إلا وله من الجنون نصيب قل ذلك عنده أو كثر.

أم يقول لها: ما أجمل وجهك وما أقسى قلبك، كيف استطعت أن تخفي خلف هذا الجمال الساحر كل هذه القسوة التي حواها قلبك الجبار، بل كيف استطعتِ أن تبتعدي كل هذه الأيام وأنت على علم بأن هناك من جعل وقته وفكره وحياته كلها حكر عليك وعلى يوم الثلاثاء الذي ظل يهذي به في منامه ويقظته طوال الأيام والليالي الغابرة.

أم يعاتبها على تجاهلها لرسالته التي كتبها بمداد من الدمع، وقلم من الحنين، على صفحة قلبه الذي سكنت فيه من غير أن تستأذنه في سكناه من قبل أن يكتبها على الورقة التي أعطاها لها.

أم يترك كل هذه الأمور ويكتفي بالاستمتاع مرة أخرى بالنظر إلى وجهها المشرق بابتسامتها، وثغرها اللؤلؤي الدقيق، وعينيها اللتان تطلقان سهاما نارية على قلبه المكلوم كلما هم بالتحديق فيهما.

فقالت له مستنكرة حالته تلك وتحديقه الغريب فيها:

ـــ ما بك؟

فأجابها قلبه أن به ما لو أصاب جبلا شامخا لدكه دكا من هول ما نزل به وأتاه، غير أن لسانه لم يجبها إلا بمزيد من الصمت، همت بالمغادرة فوجد نفسه يمسك بذراعها الأيسر لا إراديا وكأنه كان يخشى أن يحصل على مزيد من الألم والحرمان الذي ظل يعالج مرارته منذ آخر مرة رآها فيها، ثم اعتذر منها عن صمته أولا وعن إمساكه بذراعها ثانيا.

فقالت له:

ـــ لا عليك، ولكن أخبرني هل أنت بخير؟

ـــ كلا، لست بخير

ـــ وما الذي تشكوه؟

فقال لها بجرأة دفعه إليها ما بقلبه من لوعة:

ـــ أشكو حبك الذي أوقعني في شباك الهوى أسيرا، فجعلني أنكر ما كنت أعرف، وأعرف ما كنت أنكر، ثم ذهب بي كل مذهب وتركني وأنا لم أعد أعرف شيئا غير أني أحبك، ولا أبصر حيثما ذهبت غير وجهك، ولا أفكر حين أفكر إلا فيك.

فتلألأ وجهها في احمرا كاحمرار الشمس ساعة غروبها من شدة الخجل، ثم عقد الحياء لسانها فلم تعد تعرف ما تقول ولا بم تتكلم.

استرسل في كلامه قائلا:

ــ لقد قرأت عن العشق وقصص العشاق ما جعلني أحسب أنني بالعشق عالمٌ وبضروبه خبيرٌ، فما هو إلا أن التقيت بك وصافحت بعيني عينيك الجميلتين إلا ووجدتني مترعا بخمر الحب الذي يسكر العقول، ويسلب الألباب، ثم ما لبثت غير قليل حتى علمت أني كنت قبل حبك بالعشق وضروبه جاهلا، على خلاف ما كنت أظن وأعتقد!

ثم أيقنت أن ساعة من ساعات الحب تعدل أعمارا بأكملها خالية منه، وعرفت أن جرعة واحدة من كأس الفراق وإن قصرت تنسي كل لذة سبقتها وإن طالت.

خرجت من صمتها لترد على كلماته التي خدرتها قائلة له بصوتها الرقيق ونبرتها الممتزجة بالحزن والأسى:

ــ وما أدراك بأنني فارقتك؟ لقد كنت آتي إلى هنا في كل يوم ثلاثاء، وما تخلفت يوما واحدا.

اتسعت عيناه في ذهول مما تقول ثم شعر بمزيج من الاستغراب مما يسمع والاستنكار لما تقول.

استرسلت في كلامها بعد أن أخرجت من حقيبتها السوداء كالأيام التي قضاها في انتظارها رسالته لها وهي تقول له:

ــ أليست هذه هي رسالتك؟ لقد كنت أقرأها في اليوم الواحد مرات ومرات حتى حفظت كل كلماتها وجميع حروفها، وفي كل مرة كنت أفرغ من قراءتها كنت أجدني أحلق في السماء عاليا من فرط سعادتي بتلك الكلمات التي لم أعرف إلى الآن ماذا فعلت بي حتى يحدث لي كل هذا!

وعلى الرغم من كل ذلك فقد قررت ألا أقابلك مرة أخرى، ومع ذلك القرار الذي اتخذته بمنتهى الصرامة والحزم فقد كنت أراقبك من بعيد وأنت تنتظرني في كل مرة.

ولا أزال أذكر أول مرة كنت تنتظرني فيها تحت هذه الشجرة، فلما قمت تبحث عني وجدتني من غير تفكير أقوم خلفك أراقبك من بعيد حتى لا تشعر بوجودي، حتى أن قلبي أشفق عليك ساعتها، وتساقطت لأجلك بعض دموعي الغالية، فلما انصرفتَ من الحديقة وأنت تجر خلفك ذيول الخيبة قطعت نفسي لوما وندما، ثم أخذت أوبخ نفسي وأعنفها، وهكذا كان الشأن في سائر الأيام التي جئت تبحث عني فيها.

ــ ولكن ما حملكِ على هذا!

ــ لقد كان قلبي في صراع شرس مع عقلي.

قلبي يحدثني بأنك صادق في حبك، ويريد أن ينطلق معك إلى حيث لا يدري، كما أنه يريد أن يفتح لك جميع أبوابه ونوافذه لتدخل إليه من حيث شئت، وما كان يحسب يوما أنه يفتحها لك أو لغيرك.

وعقلي كان يخشى أن يبدأ معك السير في طريق قد تكون نهايته الحسرة والندم.

وهكذا كان شأني طوال هذه الأيام، كلما هممت بأن أتقدم نحوك خطوة استجابة لقلبي الذي يتوسل إلي أن أفعل، أرجعني عقلي للخلف عشر خطوات بعد أن يقوم بتقديم الأدلة والبراهين المتعددة على صحة ما يقول.

إلى أن انتصر قلبي على عقلي فجئت إليك غير مبالية ببراهينه ولا بتوبيخه.

وظني أنك لن تخذلني أبدا يا خالد، ولن تجعلني أتفاجأ يوما أن قلبي كان مخطئا حين رفع لك رايته البيضاء، وأسقط لك جميع حصونه المنيعة عن رضى كي تدخل إليه سالما مطمئنا. أليس كذلك يا خالد؟

****

(الفصل الخامس)

ما أن انتهى خالد من المرحلة الجامعية حتى شعر بأن عليه أن يشاطر منصور أعباءه الثقيلة التي تحملها وحده لأعوام كثيرة، لاسيما والنفقات كثرت عليه بعد أن أصبح أبا للتوأمين جهاد وجميلة، ومن ذلك الحين وعلياء زوجته لا تتوقف عن التلميح بضرورة مشاركته له في تحمل المسؤلية.

لم يكن خالد بحاجة إلى تلك التلميحات البغيضة منها، فهو يعرف أن عليه دورا، ويعرف أيضا أنه بهذا الدور جدير، ونفسه لا تسمح له أبدا بأن يعيش عالة، لا على أخيه ولا على أحد غير أخيه.

فلم يترك قطاعا عاما ولا خاصا يمكنه أن يعمل فيه إلا وذهب إليه طلبا لأي عمل أو وظيفة، ولكن كل محاولاته في ذلك باءت بالفشل على الرغم من أنه قد ترك أوراقه في عشرات الأماكن التي طرق أبوابها بحثا عن عمل يليق بشاب جامعي، وكلما سألهم عن موعد تسليمه العمل قالوا له: انتظر وسنعلمك، حتى انتظر عاما كاملا وما أخبره أي أحد بأي شيء!

لم يكن أمامه أي خيار غير أن يجلس في البيت كالنساء مع أخته وزوجة أخيه، أو أن يعمل في أي شيء، بكل ما تحمله كلمة شيء من معان كثيرة.

وكان قدره أن يقع فريسة بين حروف كلمة شيء التي التهمته هو وسائر أحلامه الوردية، فبدأ يبحث عن عمل مرة

أخرى، ولكن من تلك الأعمال التي لا تعتني كثيرا، بل ولا حتى قليلا بما معك من شهادات، أو ما تتقنه من علوم، وإنما يعنيهم في المقام الأول أن تكون صاحب خفة وحركة.

وأخيرا وجد بصيص ضوء، غير أن هذا الضوء كان ممتزجا بدخان الشيشة والسجائر التي تتدفق من هذا البصيص، والذي كان يلوح له من على باب أحد المقاهي، فعمل في المقهى أسبوعا واحدا إلى أن استغنى صاحبها عن خدماته التي كانت من وجهة نظره لا تستحق الجنيهات القليلة التي كان يتحصل عليها في نهاية كل يوم.

إذ لم يكن متقنا لإعداد الشيشة التي تعتبر ركنا أساسيا في أعمال القهوة، ولم يكن يجربها بالشرب منها وسحب عدة أنفاس قبل تقديمها لطالبها، حيث كان على علم بما وراء ذلك من أضرار، وبالتالي فقد كانت تصل إلى الزبائن وهي شبه مُطفأة، ولما كثرت شكاوى الزبائن منه ومن الشيشة التي يقدمها لهم أعطاه أجرته بعد أن أخبره بالاستغناء عنه.

يومها شعر بأن مستقبله على الراجح سيظل مظلما كماضيه السالف كما تنبأت له بذلك زوجة منصور في إحدى المرات التي كانت تظهر له شماتتها فيه بمنتهى الوقاحة، فراح يمارس هوايته المفضلة وهي السير وحيدا، أصبح السير له عادة عند الفرح الشديد والحزن الشديد، ظل يسير كعادته إلى غير وجهة يقصدها وهو يتفكر في مستقبله الذي يراه شبيها بماضيه البائس، إن لم يكن أكثر منه بؤسا، ثم تذكر كلام سعيد أحد زملائه من أيام الدراسة حين حدثه عن السفر إلى إحدى الدول العربية، وأن ذلك كان طريق الثراء بالنسبة للكثيرين، وما زال يقنعه بالأمر إلى أن قال له:

ــ والله هذه نصيحة من صديق مخلص لك، وأخ شفيق عليك، ولولا أني أحب لك من الخير ما أحبه لنفسي لما نصحتك بها، حال البلد كما ترى، ليس فيه سوى الفقر الذي غدا مستوطنا كل مكان فيها، والغنى هنا حكر على أحد رجلين، رجل ورثه عن أهله فهو يرتع فيه أبا عن جد من دون أن يبذل في الحصول عليه أدنى مشقة، ورجل

احترف الأعمال غير الشريفة بعد أن أطلق على ضميره بعض الأعيرة النارية التي أردته قتيلا ثم أعد له مقبرة داخل أمعائه.

فتش هنا كما شئت، واعلم أنك لن تسلك طريقا إلا وستجد الآلاف يزاحمونك عليه، وقد جربتَ بنفسك ورأيت، وبالتأكيد فأنت لست بحاجة إلى أن أثبت لك صحة ذلك.

إن أردت أن تحقق طموحاتك فاعلم أنه لا سبيل لتحقيق شيء منها إلا بالمال، المال وليس شيئا آخر، وإن أردت المال فها أنا أدلك على طريقه، إنه السفر يا صديقي، مضى على تخرجكَ أكثر من عامٍ ومع ذلك لم يتغير أي شيء من أمرك عما كنت عليه أثناء الدراسة، ولأنني أرجو لك من الخير ما أرجوه لنفسي كما قلت لك فإنني سأسافر بعد شهر من الآن إلى المملكة العربية السعودية، فإن وفقت هناك إلى عمل يليق بي وبشهادتي فالحمد لله رب العالمين، وإن لم أوفق إلى ذلك فسأعمل في أي شيء ولو عامل نظافة، العمل ليس عيبا مادام حلالا، وإن أردت السفر ساعدتك في ذلك وأخبرتك بكل خطوة عليك أن تقوم بها.

مع اقتناعه بجميع ما أخبره به سعيد، بل وبضرورة العمل به بعد أن وجد كل الأبواب تغلق في وجهه إلا أنه لم يكن بمقدوره أن يسافر ويترك أمه لاسيما وقد أصبحت تشتكي من بعض الآلام والأوجاع، فكان يخاف أن يحدث لها أي مكروه أثناء سفره فلا يسامح نفسه ما تبقى له من عمره، ولا يغفر لها أبدا ذلك الأمر.

ظل يسير في طريقه وهو غارق في أفكاره إلى أن وجد نفسه من غير أن يشعر أمام بيت صديقه محمود، لم يكن يعرف ما الذي أتى به إلى هنا، هل لأن الطريق إلى بيته كان مألوفا عنده فهو يسلكه وإن لم يقصد ذلك، أم لأن شوقه إليه هو الذي ساقه إلى هنا على الرغم منه.

وقف أمام بيته بعض اللحظات وهو يتذكر أن أعز أصدقائه يسكن هنا، وتذكر أن له ذكريات في كل جزء من أجزاء هذا البيت، إلى أن فرقت بينهما الأيام، بعد أن كشر له صديقه عن أنيابه، وحول ما في قلبه تجاهه من حب ومودة له، إلى كراهية وحقد عليه، وظل يناصبه العداء منذ أكثر من عام.

ولكن ما حيلته في هذا وقد سمح للشكوك أن تتمكن من قلبه فتأخذه في شباكها أسيرا.

أخذ يسأل نفسه وقتها عن ذلك الشقاق الذي حدث بينه وبين محمود: هل كان له فيه يد؟!

لم يكن ذنبه أن تلجأ إليه خطيبته كي تطمئن عليه عندما غادر البيت يومين كاملين، ربما كان ذنبه أنه لم يخبره بذلك بنفسه بدلا من أن يعرفه هو بعد ذلك فيظن به وبخطيبته الظنون.

لم يكن يتوقع للحظة واحدة أن الأمور قد تتطور إلى كل ذلك فيما بعد بسبب اطلاع محمود على الزيارة بتفاصيل مزعومة ومختلقة من بعض الحاقدين على قوة صداقتهما وصلابتها، والتي أسفرت في النهاية عن فسخ محمود لخطبته من هدير، وإنهاء صداقته معه واعتباره صديقا خائنا.

ربما كان مخطئا في أنه استجاب لهدير ولم يخبره بالأمر بنفسه، فلو فعل ذلك لأزال عن نفسه جميع التهم والشكوك التي يرميه بها محمود اعتمادا على أناس هم على الراجح من محترفي الإيقاع بين الناس.

حاول خالد أن يثبت لمحمود حقيقة الأمر ولكن الغضب كان قد أعماه عن رؤية أي شيء سوى ما تصوره له شكوكه، فقرر أن يشرح له الأمور عندما يهدأ، وعندما ذهب إليه بعدها ما كان منه إلا أن أهانه وطرده من البيت.

لم يكن يعلم ما الذي ذكَّره وهو يمضي من أمام بيته بهذه الأشياء، هل لأنه تذكره، أم لأن الهموم تأبى إلا أن تأتي مجتمعة.

لم يكن يعلم، ولكنه كان يرجو أن ينظر محمود من إحدى النوافذ فيراه وهو واقف أمام بيته موقف طمع في عفوه، ورجاء في مغفرته، على جرم لم يفعله فيدعوه للدخول، كان بحاجة ساعتها إلى أن يتحدث مع أحد، بل كان بحاجة إلى أن يتحدث مع محمود تحديدا، ظل واقفا بعض الوقت وعينه على المترل يترقب رؤيته ترقب المقرور أشعة الشمس الدافئة وقد كاد البرد يقتله، ولكن لم يبصر لمحمود أثرا، ولو أنه رآه لتجاهله كما كان يعتقد ولكنه كان يُمَنِّي نفسه ببعض الآمال الكاذبة.

الشيء الوحيد الذي كان يعطيه الأمل ويمده بالتفاؤل هو فاتن التي كان قدره أن يلتقي بها في أشد أوقاته احتياجا إليها، كان كلما صوب اليأس سهامه نحوه يذهب إليها فما هو إلا أن يبحر في عينيها الواسعتين ويستمع إلى بعض كلماتها حتى يشعر بالأمل يدب في نفسه من جديد.

قليلون هم الذين عندهم موهبة امتصاص اليأس وطرد الكآبة، هؤلاء لا يقل دورهم عن دور الأطباء إن لم يكن أعظم، فالأطباء يعالجون الأجساد من الأسقام التي استوطنتها، وهؤلاء يخلصون الأرواح من الشوائب التي علقت بها، والفرق بين هؤلاء وهؤلاء كالفرق بين الروح والجسد.

كان يعتبرها الأب الروحي بالنسبة إليه، وأما هي فكانت تعتبره أستاذا لها، كل نظراتها إليه كانت مكللة بالإعجاب بشخصيته التي أسرتها، والتقدير لمواهبه التي كانت أكبر فخر لها؛ إذ أنه لا يوجد في قاموس الَوجْد كلمة أنت، وإنما كل واحد منهم بمثابة المكمل للآخر، والمتمم له، فإن مرض أحدهم توجع الآخر، وإن حزن أحدهم تفجرت الدموع من عين الآخر، وإن طرب أحدهم رقص الآخر.

كانت تتعمد في كل مرة تقابله فيها أن تطرح موضوعا للنقاش حول كتاب أو كاتب أو حول قصيدة أو شاعر، لا لأنها تحب اللغة العربية بجميع علومها، وتحب أن تنهل من علومها باستمرار فقط، ولكن لأنها أيضا كانت تحب أن

تراه وهو يناقش ويحاور ويعطي المقدمات حتى يصل من خلالها إلى النتائج التي يريد إثباتها مستعينا بسرده للحجج في أروع أسلوب، وكثيرا ما كانت تخالفه في بعض الأشياء، مع علمها بأن الصواب معه، ولكنها كانت تفتعل مخالفته وتتعمدها كي تمارس إحدى هواياتها المفضلة معه ألا وهي مشاكسته طوال الوقت.

كان يحب هذه المشاكسات منها والتي كانت تجعله يراها أمامه كطفلة صغيرة تريد أن تلهو وتلعب، كان يحب فيها طفولتها التي تضفي عليها جمالا من نوع خاص، لم يكن يعرف هل يحب الأطفال لأنهم يذكرونه بها، أم أنه يحبها لأنها تذكره بالأطفال، أم أنه يحبها لأنه يرى فيها طفولته التي حُرِم منها بسبب يُتمه وفاقته، لكن الذي كان يعرفه جيدا هو أنها قد تمكنت منه بجملته حتى لم يعد يُبصر أينما توجه وحيثما ذهب أحدا سواها، وكلما مرَّ به يوم كلما ازداد لها حبا وبها هياماً.

كانت تتنبأ له دوما بمستقبل باهر ومشرق، لأن المستقبل من وجهة نظرها ليس من حق أحد سوى أولئك الذين جمعوا ما بين الرغبة في الفوز به، والعزيمة على فعل ذلك، فكيف به وقد امتلكهما معا وأضاف إليهما الموهبة النادرة والذكاء المشتعل، ولأن ثقتها فيه لم تكن تحدها حدود فقد وعدته أكثر من مرة أن تظل بجواره إلى أن يتجاوز جميع الآلام ويصل بنفسه وبها إلى حيث الآمال التي سيبلغها بإصراره واجتهاده، وأيضا بتشجيعها الدائم والمتواصل له.

وحينما عرض عليها روايته: (داخل أسوار المدرسة) لم تستطع أن تخفي انبهارها بها، بل أقسمت له بأنها كفيلة بأن تدخله إلى عالم الأدب من أوسع الأبواب، وأن تجعل اسمه ملاصقا لأولئك الروائيين المشهورين والكتاب الكبار.

كان هذا بدوره يعطيه الأمل، ويمده بالمزيد من التفاؤل، وأيضا كان يجعلها تكبر في نظره أكثر مما هي كبيرة.

وعلى الرغم من كونه لم يسألها عن أي شيء يخص حياتها الشخصية إلا أنها قد أخبرته بكل كبيرة وصغيرة عنها، فكان يعرف ــ كما أخبرته هي بذلك ــ أنها الأخت الصغرى لشقيقين ذكور أحدهما متزوج ويكبرها بعشرة أعوام،

والآخر لا يزال عزبا ويكبرها بثلاثة أعوام، وأسرتها ميسورة الحال، ولأنها الفتاة الوحيدة فيها فقد كانت مُدللة نوعا ما مقارنة بغيرها من الفتيات اللائي يشبهنها.

ومع أنه كان يكتم جميع آلامه وأحزانه بداخله كما هو شأنه دائما إلا أنها كانت تعرف ما يدور بنفسه من خلال نظرة واحدة إلى عينيه، فأنقى اللغات وأطهرها هي لغة العيون، هي اللغة الوحيدة التي لا تعرف التلون أو النفاق، جميع كلماتها صادقة وكل حروفها أنيقة، وأروع ما يميزها أنها لغة لها كبرياء أنثى، لا ترضى أبدا أن تكون هكذا لكل أحد، وإنما جعلت من نفسها حكرا على العشاق فقط، ومن عداهم فليس لهم فيها أدنى حظ أو نصيب.

نظرة واحدة من العاشق إلى عيني معشوقه كفيلة بأن تخبره بالكثير من الأشياء التي تعجز الكلمات عن الإفصاح عنها.

لهذا فقد كانت تطمئنه كلما شعرت بخوفه من أن يفقدها بأنها قد أقنعت والدها بأنها لن ترتبط بأي أحد قبل أن تنتهي من جامعتها ويتزوج شقيقها أولا، فكان يجد في ذلك الأمر سلوة له عن بعض ما يلقاه.

عرف منها في بداية علاقته معها أنها نشأت يتيمة مثله، غير أن الأيام فجعته هو بأبيه وهو ابن عامين، وفجعتها هي بأمها وهي ابنة عشرة أعوام.

حينما علم أنها يتيمة عرف أنه ليس وحده الذي شقي بلوعة اليتم ومرارة الفقد، بل هناك من شقي مثله، وربما أكثر منه، فهو قد فقد أباه وقد أغناه الله عنه بأمه، وأما هي فقد فقدت أمها، فكان مصابها أفدح من مصابه هو بأبيه، بل وأعظم منه مرات ومرات؛ إذ كل أم يمكنها أن تقوم بدور الأب وإن لم تغني الإبن عنه، ولكن لا يقوى الأب أبدا على أن يقوم بدور الأم مهما اجتهد في ذلك وتدرب عليه.

لذلك قد يعيش فاقد الأب حياة شبه طبيعية في كنف أمه وعنايتها، أما من فقد أمه فهيهات أن يبصر في حياته حيثما ذهب وأينما توجه إلا ينابيع الفقد والحرمان التي تتفجر من تحت قدميه لتبتلعه بمنتهى الشراسة والقسوة.

حينها قال لها:

ــ يبدو أننا تشابهنا أيضا في تجرع مرارة الحرمان.

ثم تابع كلامه فقال:

ــ هل تعرفي أن الذي يتألم من شيء ما يجد بداخله جاذبية من نوع خاص نحو أولئك الذين تألموا مثله من نفس الشيء.

ربما كان هذا من أكبر الأشياء التي جذبت كل منا نحو الآخر من غير أن يجد للأمر تبريرا.

وقتها شعر بالحزن يحط رحاله بداخلها وذلك حينما نكَّست رأسها للأسفل بعد أن ردت على كلماته تلك بالصمت.

ثم شعر بأن كلماته قد تقمصت دور قطار الزمن الذي عاد بها إلى الوراء سنينا طويلة إلى أن توقف بها عند ذلك اليوم الذي فقدت فيه أمها.

عندما رفعت رأسها رأى بعينيها دمعات حزينة تترقرق بداخلها وكأنها تستأذنها في السقوط، ثم قالت له وقلبها يعتصر من الحزن :

ــ وأي ألم يعدل ألم الفراق، وأي فراق يعدل فراق الأم.

ثم استرسلت في كلامها:

ـــ لم تكن أمي بالنسبة إلي أما فقط، ولكنها كانت أمي وصديقتي، بل وطفلتي أيضا في بعض الأحيان.

يوم رحلت عني كنت في الصف الرابع الابتدائي، وقبل أن تموت بفترة ليست بالطويلة كانت تنام بجواري في كل ليلة على سريري، وكانت تكثر من اللعب معي وكأنها كانت تعطيني المزيد من الساعات التي تقضيها معي حتى تكون زادا لي في حياتي بعد أن ترحل عني، لم تكن تعلم أن هذا الأمر سيفتح شهيتي على المزيد من الساعات والأيام التي أحتاج فيها إلى أن تكون بجواري.

ظللت غاضبة منها بعد أن ماتت وقتا طويلا لأن أبي أخبرني بأنها قد ذهبت إلى الجنة لتتمتع بما أعده الله فيها لعباده الصالحين.

بدا خالد متأثرا وهو يستمع إلى كلماتها التي تطفح بالحزن والألم، ثم استرسلت هي في كلامها والدموع تنحدرُ من عينيها:

ـــ لقد كنت أظنها تركتني وذهبت إلى الجنة باختيارها كي تستمتع هناك بألوان الطعام والشراب، لهذا ظللت غاضبة منها من غير أن أخبر أبي بذلك، حتى أنني ظللت فترة لا أدخل غرفتها مطلقا، على الرغم من أن أبي كان يكثر من الجلوس فيها لفترات طويلة، وكلما استدعاني وهو جالس مع صورتها هناك كنت أرفض الذهاب إليه، إلى أن كبرت بعد ذلك وعرفت أنني كنت جانية على أمي وظالمة لها، إذ أنها رحلت إثر إصابتها بمرض السرطان.

ثم اكتشفت أنها مع ما كان بها من الألم من جراء ذلك المرض الذي كان يلتهم عافيتها من غير شفقة إلا أنها كانت تبتسم في وجهي وهي تلعب معي وتدللني، كانت تخفي خلف تلك الابتسامات صرخات لو خرجت منها لتصدع جدران المنزل من هولها.

ثم صوبت نظرها إليه لتقول له وهي تبتسم ابتسامة ألم خرجت من بين دموعها المتتابعة في السقوط من عينيها دون توقف:

ــ هل تعرف يا خالد أنني إلى اليوم لم أسامح نفسي على هذا الظن الذي ظننته بأمي بعد موتها.

ثم تنهدت تنهيدة طويلة قبل أن تختم كلامها بقولها:

ــ كم هي رحيمة قلوب الأمهات، وكم هي قاسية قلوب الأبناء.

لم يعرف خالد ما يقول لها وقد زاد الحزن بها حتى فاض على المكان بما فيه من شجر وزرع، ما كان منه إلا أن وضع يده على كتفها وهو يهدئها ويذكرها بأن في الله غنية عن كل راحل، وعوض عن كل مفقود، ثم ترحم على أمها ودعا الله لها بأن يتغمدها بعفوه ومغفرته.

ثم تذكر أثناء سيره نقاشا كان قد دار بينهما وقد كان أشبه بسجال أدبي من وحي فصل الشتاء الذي كان يمدهما مع البرودة ببعض الخواطر.

حينها جالت خاطرة في عقلها فقالت:

ــ فيا للشتاء كم تنافس فيه القلوب برد الغيوم، وكم تفوق فيه قسوتها قسوة الجليد، ويالِلأرواح المتفرقة كم يبكيها ثلج العلاقات الميتة.

فأعجبته تلك الخاطرة منها ثم رأى أن يجاريها في بعض الخواطر التي جالت في نفسه وقتها من وحي الشتاء، فقال يرد عليها:

ـــ وما أقبح النفس حين تستمد من الثلج أقبح ما فيه، متخطية أجمل ما عنده، فلها منه البرودة، وليس لها منه الصفاء، ولها منه القسوة، وليس لها منه الجمال، بل إن الثلج ليذوب حين تقذفه الشمس بسهام أشعتها فيصير من بعد القسوة ماء جاريا في رقة وصفاء، وبعض النفوس تصوب نحوها مشاعر الحب والألفة ولا تزال جامدة، فكأنها خلقت من الحجارة الصماء،أو الجليد الأبكم!

ـــ فما الذي قد يدفع القلب المكون من الدم الحار ليكون باردا أقسى من الثلج؟

وما الذي يجعل صاحبه لا يحس بقسوة برودته وهو داخل صدره ليس منه ببعيد؟

ـــ أما الذي يدفع القلب ليكون باردا أقسى من الثلج فلعل السبب أنه لم يلتق بالقلب الذي تفيض حرارته على قلبه الجليدي فيذوب القلبان معا، ولا تجتمع الحرارة والبرودة معا في آن واحد أبدا.

وأما الذي يجعله قاسيا وصاحبه لا يشعر مع قربه منه فهو أن القلب لما شابه الثلج في قسوته فكأنه أبى إلا أن يشابهه في كونه جمادا لا شعور له حتى أن صاحبه ليمشي بين الناس وكأن الله خلقه يوم خلقه من غير قلب.

ـــ أفما رأيت البركان يبتلع مياه المحيطات فلا تقدر عليه البرودة!

ويح القلوب المتجمدة لا هي ذابت فأذابت معها، ولا هي تركت غيرها يذيبها فيها بحرارة الحب والشوق واللهفة!

ـــ بل ويح المحب حين يكون له قلبا يكاد من حرارته وشدة توهجه ولهيبه أن يذوب داخل جسد صاحبه كما تذوب قطعة السكر داخل الماء، ثم يقابل حبيبه ما عنده من شوق يشتعل بداخله كالنار بقلب كأنه قد خلق من مزيج من الثلج والحجارة لا من اللحم والدم.

فقالت له وكأنها تذكره بأول عهده بها حين أخلفت موعده بعد أن ترك لها الرسالة داخل الكتاب ثم أشفقت عليه وعلى قلبها بعد ذلك فقامت بالخضوع لسلطان الهوى :

ـــ بل ويح المحبوب الذي امتلك صخرة مسدودة في صدره الأصم الأبكم، كيف له أن يرى حال المحب وتقلبه فكأنه لا يرى بعينين كأعيننا، أو يسمع تأوهات القلب الممزق بين الحنين تارة، واللوعة تارة أخرى، فكأن أذنيه قد قُدَّتا من حجارة لا تستجيب!

فهم ما كانت ترمي إليه فتعمد أن لا يجعلها تنجح في مشاكسته هذه المرة وذلك من خلال تحويله لمسار الحديث، فقال لها متصنعا التغافل عما ترمي إليه:

ـــ لا يكون الأمر دائما كما ذكرتِ، وإنما قد يكون قلب المحب هائما مع حبيبه فلا شغل له إلا هو، ولا فكر له إلا فيه، ولا شوق له إلا إليه، ثم يكون لمحبوبه نسخة من هذه المشاعر ولكن لمحبوب آخر، وساعتها يذوق المسكين ألم الموت الذي لا يجده في اليوم الواحد آلاف المرات.

فخضعت له على الرغم منها ثم سارت معه في الحديث حيث سار فقالت متممة كلامه:

ـــ فكأنه بالنسبة لحبيبه بقلوب متعددة، قلب له تمثل فيه العذاب والصمت عن الحب حتى الموت، وقلب لغيره يكاد نبضه يصم المارقين.

ويحا لحال المحبين كم ظل العذاب رفيقهم!

فقال لها وكأنه يشير إلى تلك المعاناة التي عاناها حين أخلفت موعده معها يوم الثلاثاء في أول عهدهما بالحب:

ـــ هكذا هو العشق قد امتزج به الألم حتى كأنه ولد من رحم النار، ورضع من ثدي الريح، ونشأ في كنف الإعصار، وشبَّ على تعاليم الرعد والبرق.

ثم تذكر آخر نقاش دار بينهما في آخر مرة قابلها فيها منذ عشرة أيام قبل أن تسافر مع والدها وإخوتها إلى المصيف، وذلك حين سألته عن رأيه في مصطفى صادق الرافعي وأدبه فقال لها:

ـــ ومن أنا حتى أُسأل عن أمير الأدب العربي وفارس ميدانه، وإنما أذكر لك فقط قولا للأستاذ محمد سعيد العريان، وقد كان تلميذا للرافعي وصديقا له في نفس الوقت، وهو من أكثر من لازمه، وكلامه مع ما فيه من الإيجاز والاختصار إلا أنه من وجهة نظري من أفضل ما قيل عن الرافعي وأدبه، قال رحمه الله:

ـــ (والرافعي عند طائفة من قراء العربية أديب عَسِرِ الهضم، وهو عند كثير من هذه الطائفة متكلف لا يصدر عن طبع، وعند بعضهم غامض معمٍّ، لا تخلص إليه النفس، ولكنه عند الكثرة من أهل الأدب، وذوي الذوق البياني الخالص، أديب الأمة العربية المسلمة، يعبر بلسانها، وينطق عن ذات نفسها، فما يعيب عليه عائب إلا من نقص في وسائله، أو كدرة في طبعه، أو لأن بينه وبين طبيعة النفس العربية المسلمة التي ينطق الرافعي بلسانها حجابًا يباعد بينه وبين ما يقرأ روحًا ومعنًى.

فمن شاء أن يقرأ ما كتب الرافعي ليتذوق أدبه فيأخذ عنه أو يحكم عليه، فليستوثق من نفسه قبلُ، ويستكمل

وسائله، فإن اجتمعت له أداته من اللغة والذوق البياني، وأحس إحساس النفس العربية المسلمة فيما تحب وما تكره، وما يخطر في أمانيها؛ فذوقه ذوق، وحكمه حكم، وإلا فليُسقط الرافعي من عداد من يقرأ لهم، أو فليُسقط نفسه من عداد هذه الأمة).

فقالت له وهي متعجبة من جودة ذهنه وقوة ذاكرته:

ــ لقد قرأت للرافعي بالأمس قوله:

(فترى العمرَ يتسلّلُ يوماً فيوماً ولا نشعر به، ولكن متى فارقَنا من نحبهم نبّه القلبُ فينا بغتةً معنى زمن الراحل، فكان من الفراق على نفوسنا انفجارٌ كتطايرِ عدةِ سنينَ من الحياة).

لقد أثار كلامه هذا الشجن في نفسي، حتى جعلني أقضي الليلة كلها ولا فكر لي إلا فيه.

يا له من أمر مؤلم يا خالد أن يمضي العمر ونحن لا نشعر به من سكرة الحب التي خدرتنا فلا نستفيق إلا على فجيعة الفراق التي تنتشلنا من تلك السكرة لنتفاجأ بمصيبتين، أولاهما مصيبة فقد الحبيب، والثانية ذهاب العمر.

قاطعها قبل أن تسترسل في المزيد من الكلام الذي لا يحب سماعه منها:

ــ ولماذا تقدرين الأسوء يا فاتن؟! إن شاء الله لن يقدر الله لنا إلا الخير، فقط أحسني ظنك بالله، فإن الله عند ظن عبده به.

ثم بادر بتغيير مسار الحديث فقال لها:

ــ أعجبني قول الرافعي الذي ذكرته، ولكن أعجبني أكثر قوله:

(قد يكون في الدنيا ما يغني الواحد من الناس عن أهل الأرض كافة، ولكن الدنيا بما وسعت لا يمكن أبدا أن تغني محبا عن الواحد الذي أحبه!

هذا الواحد له حساب عجيب غير حساب العقل، فإن الواحد في الحساب العقليّ هو أول العدد، وأما في الحساب القلبي فهو أول العدد وآخره).

كانت تعرف أنه يقصدها هي بذلك الكلام فابتسمت، وأما هو فعلى الرغم من كونه بادر إلى تغيير مسار الحديث إلا أنه أصابه أيضا من كلام الرافعي عن الفراق والرحيل بعض ما أصابها.

كان خالد يلتقي بفاتن في كل يوم ثلاثاء داخل الحديقة حتى في أثناء الأجازة، كان الأمر بالنسبة لكل منهما كأنه شيء مقدس لا يمكن التخلف عنه تحت أي ظرف أو لأي سبب.

ولكن القاعدة كانت تنكسر أحيانا بسبب بعض الأمور الخارجة عن إرادتهما، فها هي الآن في المصيف ولن تعود إلا بعد ثلاثة أسابيع كما أخبرته في آخر لقاء جمع بينهما.

وفي النهاية وبعد سير طويل أصابه ببعض التعب قرر أن يعود إلى البيت مثقلا بهمومه التي لم تفارقه يوما واحدا ليجد أكبر همومه بانتظاره، إنه مرض أمه الذي جعلها طريحة الفراش منذ أكثر من شهرين، كانت تشكو من عدة أشياء، وكلما رآها الطبيب قال ليس بها علة كي نعالجها، ولكنها فقط تعاني من آثار شيخوخة مبكرة!

هل حقا الشيخوخة المبكرة هي التي جعلتها طريحة الفراش وليس شيئا آخر؟

الطبيب يقول أنها الشيخوخة، وقد صدق في هذا، فقد مرت بها أيام تشيب لها ناصية الصبي، فلم يكن مستغربا أن تعاني من الشيخوخة وهي بعد لم تكمل الخمسين عاما.

ولكنه كان يعلم أنها تعاني أيضا من عدة أمور أخرى، كان أيسر هذه الأمور التي تعاني منها هو خوفها على مستقبله الذي أظلم في وجهه في الوقت الذي رجت فيه أن يضيء، وأكبر همومها كانت عبارة عن مكائد علياء المستمرة التي كادت أن تفرق بينه وبين أخيه فضلا عن المعاملة السيئة التي كانت تعاملها لزينب والتي تسببت في رقدتها مريضة منذ شهرين.

كان لا يزال يذكر آخر محادثات أمه معها قبل أن تلازم فراشها حينما قالت لها:

ـــ أرجو منكِ أن تتعاملي مع زينب على أنها أختك، فهي بحاجة إلى أن تشعر أننا جميعا بجوارها، لا يجدر بكِ أن تتعاملي معها بهذه الطريقة السيئة!

فقالت لها وبعينيها حقد على زينب وكره لأمها:

ـــ وماذا فعلت لها حتى توجهين لي مثل هذا الكلام؟

هي التي تبغضني من غير سبب منذ قدومي إلى هذا البيت، لذلك أحاول أن أتجنبها قدر المستطاع.

ـــ بل أنت من جعلتها تبغضك بطريقة معاملتك لها، ألستِ أنت من عايرتها أكثر من مرة بإعاقتها؟ وهل لها دخل في تلك الإعاقة يا ابنتي حتى تعايرينها بها!

أليس الله قادرا على أن يعطيها الصحة ويسلبها منك.

ـــ إنها كاذبة، فأنا لم أعايرها بشيء، ولماذا أعايرها بأمر كهذ!

ـــ زينب ليست كاذبة، وما كذبت قط، وعلى أي حال فهي لم تخبرني بهذا، ولكني رأيته بعيني وسمعته بأذني، ولم أشأ أن أكلمك فيه أو أن أخبر منصور منعا لمشاكل نحن في غنى عنها.

فردت عليها بمنتهى الوقاحة التي صاحبت صوتها العالي:

ـــ أعرف أنكِ تنتصرين لها في كل مرة لأنها ابنتك، أما أنا فلست ابنتك، لقد طلبت من منصور أكثر من مرة أن يستأجر لنا أي شقة بعيدا عنك وعن ابنتك المعقدة التي تعاني أمراضا نفسية بسبب عجزها، ولكن يبدو أن الله قد كتب علي أن يكون شقائي في هذا البيت.

كان خالد في غرفته يستمع إلى هذا الحوار الذي جعل الدم يغلي في عروقه، ولكنه كان يجاهد نفسه بما أوتي من صبر على أن يظل محتفظا بثباته كما هو شأنه في كل مرة، لكن غلبته نفسه هذه المرة فخرج غاضبا ليقول لها والغضب يسطع في وجهه:

ـــ بل نحن من كتب الله علينا الشقاء في هذا البيت بمجالستنا لك فيه، ليت منصور يستجيب لرغبتك هذه ويريحنا منك ومن لسانك هذا الذي لا يتوقف عن قذف السموم.

أنا لا أعرف ما سر غيظكِ من زينب وهي المريضة التي لا حول لها ولا قوة، تارة تتقززين من أن تشربي من كوب شربت منه، أو تأكلي من طبق أكلت فيه، وتارة تسخرين منها على مرأى ومسمع منها، وتارات أخرى تحاولين إثارة أي مشكلة معها وكأنك تستمتعين بهذا.

ثم لا تتوقفين عن الكيد لها ومعايرتها بعلتها، بدلا من أن تكوني عونا لها على ما ابتلاها الله به كنت عونا لعلتها عليها.

أنا أعرف أنكِ لا تحبين زينب، ولا أطالبك بحبها، ولكن على الأقل مراعاة لها ولنا لا تقومي بإظهار هذه المشاعر السيئة التي ملأتكِ وادفنيها بداخلك.

ألست أنت من تسببت لها في تلك الحالة النفسية التي جعلتها تكره الدنيا بما فيها حتى تركت الطعام والشراب أكثر من يومين.

اتق الله فيها فهي عاجزة، إن لم تنظري لها على أنها أخت زوجك وعمة أولادك فانظري إليها على أنها قعيدة لا قدرة لها على الحركة إلا بشق الأنفس، ولا تقوى على الكلام إلا بجهد، فحتى اليهود يترفقون بالمرضى والعجزة أفلا تترفقين أنت بها وهي مسلمة مثلك!

ثم أخبريني لماذا تحرمينها من حمل بنات أخيها؟

كلما أرادت أن تحمل واحدة منهن أو تلعب معها خطفتها منها وكأنها تريد لهن السوء!

هل حقا تفعلين هذا لأنك تخافين عليهن لأن زينب لا تتحكم في الأشياء التي تحملها وقد تسقط منها في أي لحظة كما تزعمين، أم لأنك تتفننين في إيجاد أي شيء ينغص عليها حياتها، لقد فرحت زينب بإنجابك هاتين الطفلتين ربما أكثر من فرحك أنت بهذا، المسكينة كانت تحسب أنه أخيرا قد رزقها الله بشيء يلهيها عما هي فيه، لم تكن تعرف أن هناك من يحول بينها وبين أي شيء قد يتسبب في أي سرور أو ابتهاج لها.

ويل لك من عذاب الله إن أنت بقيت على ما أنت عليه.

لم تنطق علياء بكلمة واحدة بعد كلام خالد، بل ذهبت إلى غرفتها تنتظر منصور وهي تستحضر ما ستقوله له لتخبره ببعض ما حدث مضيفة إليه الكثير مما لم يحدث، فقد كان هذا الذي جرى بالنسبة إليها فرصة عظيمة ستظل تلوم

نفسها شهورا إن هي لم تستخدمها أسوأ استغلال ضد خالد الذي تضمر له بداخلها كل كره وحقد لا لشيء فعله غير أنه رفض أن يتزوج من أختها.

وقبيل صلاة المغرب من ذلك اليوم أقبل منصور من العمل فقابلته بدموعها المصطنعة التي تتقن جلبها متى أرادت، ثم استعانت بما عندها من مكر وخبث وأخبرته بأن خالد قال لها إن لم تكوني مطيعة للجميع هنا فسأقوم بطردك أنت وابنتيك في الشارع، ولا مكان لك بيننا.

ثم أخذت تنفث في أذنيه بعض سمومها وملأت قلبه بالكره لخالد والحقد عليه،فخرج من غرفته مباشرة عقب استماعه لتلك الكلمات منها ثم استدعاه بصوت يحمل في متنه إنذارات بكارثة ستقع في الحال.

خرج خالد من غرفته وهو متوقع للذي حدث والذي قالته له علياء، وقبل أن يتمكن من الدفاع عن نفسه أو التكلم بأي شيء إذ بصفعة من منصور مصوبة نحو وجهه، استقبل خالد الصفعة بثبات كبير حتى أنه لم يرفع وجهه في وجه منصور، ثم تحجر الكلام في حلقه فلم يدافع عن نفسه بكلمة واحدة، مع أنه كان قد أعد من الكلام الذي فيه براءته الكثير، وتجمدت الدموع بعينيه،غير أنه قد ناب عن دموعه التي لم تنزل بعض الدماء التي سالت من فمه إثر الصفعة القوية التي أصابت وجهه.

ثم قال له بغلظة لم يعهدها من أخيه الذي كان له بمثابة الأب:

ـــ علياء هي التي تبقى وأنت الذي تُطرد من البيت إن أنت تجاوزت حدودك، كيف تسمح لنفسك أيها الوقح أن تتكلم مع زوجة أخيك الأكبر بهذه الطريقة!

هل نسيت أنني أنا الذي ضحيت بمستقبلي لأجلك ولأجل هذا البيت، هل نسيت أنني أنا من تحمل أعباءك ولا أزال حتى اليوم أتحملها حتى أصنع منك رجلا مُحترما تنظر إليه العيون نظرة تقدير وإجلال.

هل نسيت أنني أنا الذي أفنيت زهرة شبابي حتى أوفر لك كل ما تنعم أنت به الآن من راحة ورفاهية لم تكن لتحلم بها لولا أني بجوارك.

هل هذا هو رد الجميل والمعروف لأخيك يا ناكر الجميل وناسي المعروف.

لأجل أمك سأحاول أن أتناسى هذا الذي فعلته اليوم، ولكني أشهدك وأشهد الجميع أنه إن تكرر منك هذا فلا أنت أخي ولا أعرفك، ولا مكان لك معنا في هذا البيت.

خرجت الكلمات من فم منصور محملة حارقةً محرقة، فما كان من خالد بعد إنصاته لكل حرف من حروف كلماته النارية المغلفة ببارود انفجر في وجهه وقلبه إلا أن توجه إلى غرفته ليعد حقيبته ويغادر البيت إلى حيث لا يدري، وفي أثناء ذلك أخذت أمه توبخ منصور على ما فعل، وتخبره أن زوجته هي السبب في كل ما جرى وأنها هي من افتعلت كل هذه الأمور.

لم يغير كلام أمه من موقفه شيئا، وأما علياء فعلى الرغم من أنها كانت تظهر الحزن والأسى للذي حدث إلا أنها بداخلها كانت ترقص طربا لتلك النتيجة التي كانت تنتظرها، فهي تعرف أن سميرة لن تعيش طويلا وقد احتل الوجع جسدها، ولم يكن أمامها من عقبة غير خالد، فإن غادر البيت فقد تم لها ما أرادت، ولا يبقى أمامها غير تلك القعيدة التي لا حول لها ولا قوة.

ومن يومها وقد حدث شقاق في البيت، الجميع قد لفظ علياء فلا يكلمها منهم أحد، وما كانت تخرج من غرفتها مطلقا إلا إن قصدت الخلاء.

وأما خالد فبعد أن عزم مغادرة البيت بعد الذي لقيه من أخيه اضطر لأن يبقى فيه شفقة منه بأمه التي ظلت تبكي بحرقة وتتوسل إليه أن لا يغادر المترل، وأقسمت عليه عشرات المرات، فلم يكن بمقدوره بعد توسلات أمه ودموع زينب إلا أن يبقى في البيت، ولكنه لم يكن يكلم منصور ولا زوجته مطلقا.

بعدها ساءت أحوال سميرة الصحية بشكل كبير، فكانت تتوجع وتتألم ولكنها كعادتها كانت تخفي ألمها عن الجميع، وكأن الألم حكر عليها فقط، بينما سعادتها تشاطرها مع الجميع.

انتشر الحزن في كل البيت، حتى في جدرانه وخشبه وكل ما فيه، عدا ما كان بداخل علياء، فكان بقلبها الابتهاج بمرض سميرة، والشماتة بما جرى لخالد على يد أخيه من صفعة مصطحبة بسيول من الإهانات، وعلى الرغم من أنها كانت تخفي ذلك، أو تحاول أن تخفيه، إلا أنه كان يبدو جليا في عينيها.

لم تكن زينب في هذه الفترة تغادر أمها مطلقا، ولم تكن تتوقف عن النظر إليها، كانت نظراتها إليها في مرضها كلها نظرات توجع وألم، كل نظرة كانت تبعث بها إليها كانت تحمل بداخلها رسالة لا يقرأها أحد غير أمها.

كانت هذه الرسائل الصامتة هي أكثر ما تتألم له سميرة، كانت تقرأ في نظراتها قولها لها: لمن تتركيني يا أمي، أما المرض الذي أقعدني عن كل شيء فكنت أنت من تنسيني مرارته، وأما العافية التي حرمني الله من حلاوتها فقد كنت أنت من تعوضينني عنها، فمن الذي يعوضني عنك أنت إن أنا فقدتك.

كانت تقرأ في عينيها توسلاتها الصامتة بأن تبقى معها ولا تتركها وحيدة، فإن أبت إلا الرحيل فلتأخذها معها، فهي لا حاجة لها في هذه الدنيا بعدها، إذ هي بالنسبة إليها الدنيا بما فيها.

كان خالد يتذكر كل هذه الأشياء وهو في طريقه إلى المترل.

مضت بعض الأيام ولا تزال الأوضاع كما هي في المترل، هو لا يكلم منصور ولا زوجته، وأمه لا تزال طريحة الفراش.

ولما شعرت سميرة باقتراب أجلها قامت باستدعاء خالد وقالت له في حضور زينب:

ـــ أوصيك يا خالد بأختك خيرا، لا تجعلها يوما من الأيام تشعر برحيلي.

إن قدر الله وتزوجت يا ولدي فخذها تعيش معك في بيتك، ولا تجعلها فريسة في يد زوجة أخيك لا بارك الله فيها، وإلا فإنها ستستمر في الكيد لها ولا طاقة لأختك بها، والله يا خالد سيجعل الله البركة تترل في بيتك وزوجك وولدك بسبب إحسانك إليها وعطفك عليها، ولا تنسى أنه ليس لها بعد الله سواك يا ولدي.

ما إن سمعت زينب هذه الكلمات حتى غرقت في دموعها المسترسلة من عينيها الحزينتين على أمها وما أصبحت فيه.

استرسلت سميرة في كلامها وهي تعاني من الكلام جهدا وكأنها تحمل كلماتها على ظهرها لتصعد بها قمة جبل عالٍ:

لا تجعلها تشعر برحيلي عنها بانشغالك أنت عنها، وكن خير عون لها على ما هي فيه حتى يقضي الله أمره فيك أو فيها.

انكب خالد على يد أمه يقبلها وهو يبكي ويقول لها:

ـــ لا بأس عليك يا أمي، لا تقلقي على زينب، وإن شاء الله ستكونين بخير وتبقين بجوارها ولا تفارقينها أبدا.

ثم قالت له:

ـــ أقسمت عليك أن تصالح منصور وتصافيه، فهو ظهرك وسندك، وليس لك أحد في هذه الدنيا بعد الله تعالى إلا هو.

لا تسمح لزوجته بأن تنجح في الذي عزمته وخططت له حتى لا تشعر بلذة الظفر.

ولا تجعل رجائي فيك يخيب يا خالد، فقد رجوت لك أن تكون من أصحاب الشأن العظيم، ولطالما دعوت الله تعالى أن يجعلك من أنجح الناس وأكثرهم سدادا.

ثم قامت بدعوة منصور وظلت توصيه كثيرا فقالت له:

ـــ أنا لا أخشى عليك أحدا يا منصور إلا زوجتك هذه، وأسأل الله أن يغفر لي أني اخترتها زوجة لك وأما لأولادك، وما كانت تصلح لهذا، ووالله يا بني ما فرقت بينك وبين أخيك في معاملة، ولا فضلت أحدكما على الآخر كما كانت تردد وتقول، وأنا الآن أشعر أنه لم يعد بيني وبين لقاء الله إلا القليل، فأوصيك أن تحذر منها ومن كيدها، وألا تجعلها تنجح في التفريق بينك وبين أخيك، وأقسم عليك بالله أن تخرج ما بداخلك من غضب على أخيك، فهو يحبك كثيرا، وكان ينظر إليك دوماً على أنك والده الذي عوضه الله به عن أبيه، فأنت الذي ربيته صغيرا وصاحبته كبيرا، وهو ما أنكر معروفك، ولو كان ناكرا للمعروف لما سمح لك أن تصفعه على وجهه ولا يرد عليك ولا حتى بنظرة.

ثم طلبت منه أن يحضر ابنتيه جهاد وجميلة فقبلتهم ودعت لهم كثيرا.

ظلت طريحة الفراش بعد ذلك بضعة أيام، كان خالد يخدمها خلالهم بعد أن أمرت بأن لا تدخل عليها زوجة منصور مطلقا، لم تكن عنده أي غضاضة في أن يخدم أمه بكل ما أوتي من بر في آخر أيامها، فهو لا يزال يتذكر قصة ذلك المزارع الصيني الذي ظل يرعى والدته المصابة بالشلل التام يوميا وعلى مدار خمسين عاما فكان يطعمها ويغسل لها جسدها وثيابها بل وكان يتحدث إليها يوميا فترات طويلة وكأنها تسمعه على الرغم من أنها لم تكن تتكلم، فهذا الرجل ضحى بحياته كلها من أجل والدته حتى أنه لم يتزوج من أجل أن يتفرغ لخدمتها.

فهل يكون كثيرا على والدته أن يمكث تحت قدميها بضعة أيام، أو حتى بضعة شهور يلبي لها فيهم احتياجاتها التي لا تتعدى أن تكون جرعة ماء، أو تناول دواء، أو شيئا من نحو هذا.

لكن الذي كان كثيرا عليه هو أن يجد المرض يشتد بأمه إلى أن أسلمها لسكرات الموت، فكان يرى روحها تنتزع منها انتزاعا وهو لا يستطيع أن يفعل حيالها أي شيء.

وكم هومؤلم أن يؤخذ منك شيئا على الرغم منك، حتى وإن كان هذا الشيء حقيرا ليس له قيمة، فكيف إن كان روح أمك!

رددت الشهادة أكثر من ثلاث مرات، وكان من آخر ما أوصتهم جميعا به هو أن يعتنوا بأختهم، وأن لا يبخلوا عليها ببعض الوقت الذي يمكثوه معها كي لا يتركوها فريسة لوحدتها، ثم سقطت يدها لتتبعها في السقوط دموع خالد وزينب ومنصور.

أما علياء فلم تدخل عليها ولو مرة واحدة تطمئن فيها عليها بحجة أن سميرة لا ترغب في رؤيتها وقد صدقت في هذا، غير أنها أيضا لم تكن عندها النية في أن تطلب منها السماح والمغفرة في آخر ساعات لها في الحياة.

****

الكثيرون من الجيران والأصدقاء والمعارف قدموا لمنصور وخالد واجب العزاء في رحيل أمهم، غير أن الشخص الوحيد الذي كان خالد ينتظر مجيئه لم يحضر، كان ذلك الشخص هو صديقه محمود الحاضر بداخله والغائب عن عالمه، فآلمه أنه لم يحضر جنازة أمه ولم يشاركه في حمل جثمانها الذي كان أثقل على كتفه من جميع جبال الدنيا، وكان بحاجة إلى من يشاركه هذا الحمل الثقيل، ومن غير صديق الطفولة يمكنه أن يقوم بذلك!

ومع أنه لم يشارك لا في الصلاة عليها ولا في تشييع جنازتها إلا أنه كان لا يزال لديه بقية أمل في أن يحضر إلى البيت كي يقوم بمواساته وإعانته على الصبر والتجلد، فهو الوحيد الذي بإمكانه أن يخفف عنه شيئا مما به، ولكنه لم يحضر على الرغم من مرور أسبوع كامل على وفاة والدته.

عرف خالد ساعتها أنه لا يزال غاضبا منه ويحمل له في نفسه تلك المشاعر البغيضة التي طفح بها لسانه عندما ذهب إليه في بيته معتذرا.

كان بداخله عازم على أن يغفر إهانته له وطرده من بيته لو أنه فقط أعطاه الفرصة لأن يفعل ذلك، ولكنه بخل عليه بتلك الفرصة التي تتيح له أن يقوم بذلك.

لم يكن يعرف ما السبب الذي جعل الأمور تتفاقم إلى هذا الحد، هل لأنه كان يحب خطيبته لدرجة الجنون الذي جعل عقله يرفض جميع أدلة براءتها من تلك الأمور التي نسبوها إليها على الرغم من كونه يحبها.

أم لأن الخطأ الذي يصدر من الصديق له معايير يقاس بها غير سائر الأخطاء التي تصدر من أحد سواه وبالتالي كان الذي حدث نتيجة حتمية.

كان خالد يعرف جيدا أن خطأ الصديق في حق صديقه كبير وإن صغر، عظيم وإن حقر، لأنه قبل أن يكون خطأ في حق الصديق فهو خطأ في حق الصداقة نفسها وانتهاك لحرمتها.

ولكنه كان يعرف أيضا أن خطأه لم يكن بهذا الحجم الذي تصوره محمود، وما كان له أن يكون كذلك.

كان يرى أنه يتم معاقبته عقابا كبيرا وقاسيا على جرم صغير وحقير، فمثله في ذلك كمثل رجل وقعت عينه خطأ على ساق امرأة فأقاموا عليه حد الزنا!

لم يكن يعرف كيف يثبت له أن من أبلغه بالأمر مفتر وكذاب في الوقت الذي يرفض هو فيه تصديق ذلك.

هل كان عليه أن يفعل كما فعل ذلك المحامي الأمريكي الذي كان يدافع عن رجل متهم بجريمة قتل وهو من براءته على يقين، فحاول مرارا أن يثبت أن القتيل قد مات منتحرا ولكنهم لم يستمعوا له، وأخيرا أتى بمسدس في قاعة المحكمة على مرأى ومسمع من القاضي والحضور ثم قال وهو يوجه المسدس إلى رأسه:

ـــ أليس من الممكن أن يقوم القتيل بإطلاق الرصاص على نفسه هكذا.

ثم ضغط بإصبعه على الزناد فأطلق المسدس رصاصة فجرت رأسه في قاعة المحكمة فمات في الحال، وبعدها تأكدت المحكمة من براءة المتهم وقامت بإخلاء سبيله.

فهل كان عليه هو أيضا أن يثبت له إمكانية كذب من أخبره بتلك الافتراءات بأن يقوم بالترويج لفعلة حقيرة ينسبها إليه كتلك التي رُمي بها!

ومع أنه تألم من عدم مشاركة صديق صباه له في حزنه الذي يكاد يفلق كبده إلا أنه كان به من الحزن ما يشغله عن الاسترسال مع تلك الأفكار حول عدم مجيئه.

كان أكثر ما يشغله هو مصير أخته ما يكون بعد أن رحلت أمها.

وأما زينب فقد أصبحت زاهدة في الحياة بعد أن رحلت أمها عنها، فكانت لا تأكل إلا قليلا، ولا تنام إلا إغفاءة، ولا يشغلها شيء غير البكاء على أمها التي رحلت وخلفتها وحدها مع علتها وما تعانيه منها.

شعرت أنها لم تفقد أمها فقط بموتها، ولكنها قد فقدت كل شيء، فكأنها في يوم واحد فقط قد رحل عنها كل شيء، رحلت أمها، ورحلت صديقتها، ورحلت التي كانت تؤنسها في وحدتها الأبدية، بل وحتى بسمتها قد رحلت بعد أن ولت التي كانت تتفنن في رسمها على ثغرها بشتى الطرق وكأنها راحت تشيع جثمانها فعز عليها أن تفارقه فرقدت بجواره جثة هامدة.

لم يكن خالد يعجب من حالتها تلك، بل كان يعرف أن كل هذا إنما هو نتيجة حتمية لأي بنت لو كانت في موقفها؛ إذ أن أمها لم تكن لها أما وفقط، ولكنها كانت العوض عن كل شيء فقدته، فكانت ساقها العاجزة، وذراعها الضعيف، ولسانها العيي، وعافيتها المسلوبة، فإذا بها في يوم واحد قد فقدت الساق والذراع والنطق والعافية.

كانت كالعصفور الذي نتفوا له ريشه وحسبوا أنه قد خسر بذلك شيئا هينا، لم يعلموا أن العصفور يوم فقد ريشه قد خسر السماء كلها.

كانت تظن قبل موتها أن عجزها هو أكبر ما تعاني منه، فلما ماتت تيقنت أن عمرا كاملا مع العجز والسقم لا يساوي ساعة واحدة من آلام الفراق القاتل.

****

(الفصل السادس)

بالرغم من مرور ستة أشهر على وفاة سميرة إلا أن الحزن كان لا يزال مستوطنا لكل جدار وركن وزاوية في البيت، فكأن الحزن الذي ملأ قلوب أبنائها فاض على البيت فأصابه بشيء من شظاياه.

وكأن كل شيء كان يشعر بفقده لها، ويفتقد صوتها الذي كان يصدح في كل أرجاء المنزل مع صباح كل يوم، على مدار أعوام طويلة.

أما الآن فهو يغط في سبات عميق، ويسبح في الصمت الذي لا يقطعه إلا النحيب أو البكاء، أو بعض الكلمات القليلة الممتزجة بالكثير من الحزن.

استحال كل جزء في البيت إلى كتلة من الحزن، فكأنه لم يعرف السعادة في يوم من الأيام.

كان منصور يجد في ابنتيه ملاذا له من حزنه على أمه الذي أثّر فيه موتها حتى أفقده القليل من وزنه، والكثير من سعادته.

لم يكن يخرجه من حزنه غير بعض الوقت الذي يقضيه في اللعب معهما، وكثيرا ما كان يغلق على نفسه الغرفة حتى لا يقطع عليه أحد متعته في الجلوس معهما فيعيده إلى همومه وأحزانه.

كان يندم كثيرا على أنه أطاع زوجته في تسمية التوأم من غير أن يسمي واحدة منهن باسم أمه حتى يظل ذكرها باقياً في البيت الذي ظل عامرا بها أعواما طويلة.

لم يكن منصور بحاجة إلى شيء يذكره بأمه؛ لأنه لم يكن لينساها أبدا، ولكنه كان يريد أي مسكن لضميره الذي كان يصرخ بداخله باستمرار وهو يوجه إليه أصابع الاتهام في موت أمه.

ظل يعاني من شعوره بأنه كان سببا في مرضها أولا وموتها ثانيا بإنصافه لزوجته واستماعه إليها دونها، وأيضا بما فعله مع خالد على مرأى ومسمع منها، فظل قرابة الشهر غاضبا على علياء؛ لأن أمه ماتت وهي غاضبة عليها، وكان يخشى أن تكون غاضبة عليه هو أيضا في قبرها بسببها، لم يشفع لها عنده غير أنها أم ابنتيه.

وبالرغم من كونه بادر بالذهاب إلى خالد كما أوصته أمه وقبَّل رأسه بعد أن اعتذر منه اعتذارا شديدا إلا أنه لم يسامح نفسه لحظة واحدة على أنه رفع يده عليه وهو الذي كان يعتبره ابنا له.

بل قال له إن كان يرضيك أن تقتص مني فها هو وجهي لك مبذول فانتصر لنفسك، ومع ما كان بداخل خالد من الألم والشعور بالإهانة التي كان يؤثر عليها الموت إلا أنه ما أن سمع منه هذه الكلمات حتى رمى بنفسه داخل أحضانه وهو يبكي بكاء حارا.

لم يكن يدري لماذا يبكي، هل يبكي من حزنه على أمه وفراقها، أم يبكي من فرحته بعودة أخيه إليه وسروره بذلك، أم يبكي لأنه يريد فعل ذلك منذ فترة ولم يجد للبكاء سببا معلوما.

كل الذي كان يعرفه هو أنه كان بحاجة إلى أن يبكي داخل أحضان أحدهم.

وأما خالد فكان يجد تسليته عما نزل به في عيني فاتن وحديثها، وكلمات الصبر والتأسي التي كانت تبثه بها كلما رأته واهنا متوجعا.

عندما عادت من المصيف وعرفت بخبر وفاة أمه لم تتمالك عينيها من الدموع، فقد كانت تحبها من خلال حديث خالد الدائم عنها، بالرغم من كونها لم ترها مطلقا، وأيضا لأنها تعودت منذ عرفته أن تشاطره جميع أحزانه وأفراحه كما يشاطرها هو ذلك.

أخذت تعتذر منه عن غيابها عنه في وقت ربما هو من أشد أوقاته احتياجا لها، ثم أخبرته بأنها لن تسامح نفسها أبدا على أنها كانت تلعب وتلهو في المصيف مع أبيها وإخوتها في الوقت الذي كان يتململ هو فيه من الحزن تململ العصفور في الليلة الشديدة القر حزنا وأسفا على أمه التي فجع فيها.

ثم أخذت توبخه على أنه لم يتصل بها هاتفيا ويخبرها بالأمر، ولكنه كعادته لا يحب أن يشارك في أحزانه أحدا.

كان بحاجة إلى أن يسمع منها هذه الكلمات، لاسيما وأنه لم يحضر جنازة أمه من أصدقائه الذين يقدرون بالعشرات غير اثنين أو ثلاثة، ولم يزره في البيت منهم غير واحد!

الرجل في المصيبة لا ينسى شخصين، رجل وقف بجواره في محنته، ورجل خذله فيها.

أما الخذلان فقد جربه وعرف طعمه على يد الكثيرين، وعلى رأسهم صديق طفولته، ورفيق صباه، ولم يكن عنده أي استعداد لأن يتجرع المزيد منه على يد الوحيدة التي أحبها.

فالمحن هي الاختبار الحقيقي لجميع الأشخاص الذين نتعامل معهم، ولو أنصفناها لاعترفنا لها بالكثير من التفضل والإنعام علينا؛ فقد عرفنا بفضلها حقيقة الكثيرين.

فعرفنا أن بعضهم كان محتلا في قلوبنا مكانة ما كان له أن يصل إليها يوما من الأيام، وإنما شأنه أن يكون في ذيل القائمة، ولا يرقى لأكثر من هذا.

وبعضهم كنا نظنه رائعا فبدا في محنتنا أروع بكثير مما تصورنا.

وبعضهم كان يرتدي قناعا حلو المنظر يخفي من تحته بشاعته، فكان كأنه الأفعى، ملمسه ناعم، وبين فكيه سم قاتل، فلما نزلت المحنة لم يكن بحاجة إلى المزيد من التمثيل، فظهر أمامنا على صورته الحقيقية، بعد أن قذفنا ببعض سمومه.

لم ينسَ لفاتن أنها ساعدته كثيرا في أن يخرج من محنته كما أنه أيضا لم ينسَ لمحمود أنه تجاهل الأمر وكأن شيئا لم يكن.

الوحيدة التي لم تجد من يصبرها على مصابها كانت زينب، فمع جميع محاولات خالد المتكررة في انتشالها من بين أنياب الهموم التي كدرت عليها عيشها منذ وفاة أمها إلا أنها لا تزال حزينة باكية كيوم فقدتها.

لم يكن يعرف ما عليه فعله لكي يخرجها مما هي فيه، أما أمها فقد رحلت ولا سبيل إليها، وأما هي فلا يرضيها إلا أن تعود أمها كي تشعر بالطمأنينة داخل أحضانها التي تشتاق إليها كثيرا.

ولأنه لا أحد يقدر على إعادة الماضي فقد كانت تتسلل إليه من خلال ذاكرتها بين الحين والآخر، ثم تعود من رحلتها إليه وهي مثقلة بالدموع والأحزان.

أكثر الأوقات التي كان يشعر فيها بعجزه هي الأوقات التي كان يقف فيها أمامها وهي غارقة في دموعها من غير أن يقدر على إنقاذها منها، كان تخوفه من أن يفشل في تنفيذ وصية أمه بشأنها كفيل بأن يكدر عليه يومه من طلوع الشمس حتى ساعة غروبها، وأما عن حاله بالليل فلم يكن بأفضل من النهار، كان الليل بالنسبة إليه مع أحزانه كالمغناطيس مع قطع الحديد، ومع ذلك فقد كان يحب الليل ولا يأنس بغيره.

كان يجد في همومه وأحزانه الليلية متعة من نوع خاص اكتسبها من تعوده على صحبتهما فيه.

فحتى الحزن قد يصبح للبعض عادة من الصعب عليهم أن يتخلصوا منها أو يعيشوا بدونها!

الذي كان يقض مضجعه هو أنه لم يكن يعرف لماذا تزداد بأخته الأحزان يوما بعد يوم، هل لأنها في كل يوم تشعر بالمزيد من الأحزان التي تتجدد بداخلها مع طلعة كل شمس، أم أن ذلك بسبب قرار السفر خارج مصر والذي أخبرها به بعد أن عزم عليه وأخذ فيه بعض الخطوات الجادة .

لا زال يتذكر كلماتها حين أخبرها بسفره، قالت له:

ــ هل ستتركني أنت أيضا كما تركتني أمي؟

فقال لها وهو يجلس بجوارها على سريرها:

ــ سأترككِ عاما واحدا، هو عام واحد، وسيمر سريعا إن شاء الله، وبعده سوف آخذك معي إلى بيتي الجديد الذي سأتزوج فيه كما أوصتني أمي بذلك في حضورك.

فقالت له والدموع تنسكب من عينيها:

ــ ومن أدراك بأن هذا العام سيمر سريعا، فها هي أمك قد ماتت منذ ستة أشهر، وها أنا أشعر أنهم قد مروا علي وكأنهم ستة أعوام، هل تحسب أن يوم الفراق شأنه شأن سائر الأيام!

هل تريد أن تجعلني أفقد أمي مرتين، تكفيني مرة واحدة يا خالد.

لم يعرف ما يقول لها ولا كيف يقنعها بضرورة سفره، هل يخبرها بأنه إن لم يفعل ذلك فسيكون خائنا للإنسانة الوحيدة التي أحبها، لأنه بخموله وتكاسله يكون قد سمح للزمان بأن يكون حائلا بينه وبينها، أم يخبرها بأنه سيتركها هذا العام وقلبه يتقطع حسرة عليها، حتى لا يظل قلبه يتقطع حسرة طوال عمره على حبيبته التي سيفقدها على الأرجح إن لم يقم بذلك من أجلها.

كان بداخله يشعر بأن تفكيره في السفر دليل على أنه أناني، وأنه لا يفكر إلا في نفسه متغاضيا عن أخته، ومع هذا فلم يكن يرى من سفره مخرجا، لأنه بجلوسه بجوارها قد يزيد الطين بلة.

لم يزد على أن قال لها:

ـــ ستكونين هنا مع منصور وهو يحبك كثيرا، وسيعتني بك مثلي تماماً، وربما أكثر مني.

قالت وهي تجاهد دموعها:

ـــ لا عليك يا خالد، أعرف أنك في مقتبل عمرك، وأن لك طموحات وأحلام تسعى إليها، ولكن فقط أستحلفك بالله أن تعود سريعا، وإلا فقد ترجع فلا تجدني إلا بجوار أمك.

ومع أنه تأثر بتلك الكلمات منها لأنها ذكرته بما قالته له أمه قديما من أن المصابين بمثل مرضها نادرا ما يعيشون طويلا، إلا أنه لم يجد أمامه أي بديل أو خيار.

لم يكن يعنيه على أي حال غير راحتها في غيابه، وكان مما يطمئنه عليها أن زوجة منصور منذ وفاة أمه وهي تحاول أن تتقرب منها، وتفتح معها صفحة بيضاء، لم يكن يعرف ما سر هذا التحول المفاجئ في شخصيتها، هل هو شعور بالذنب ناحية أمها فأرادت أن تكفر عنه من خلال تقربها من ابنتها وخدمتها لها، أم هو شعور بالذنب تجاه زينب

نفسها والتي لم تتوقف يوما واحدا عن الكيد لها، أم أن الأمر لا يتعدى أن يكون أمرا صارما من منصور لها بأن تفعل ذلك كله، فلم يكن أمامها غير أن تلبيه له حتى وإن كانت كارهة لذلك.

لم يكن يهتم كثيرا بالسبب في ذلك، كل الذي كان يعنيه في الأمر هو أن تتوفر لزينب أسباب الراحة، وأن يوجد من يعتني بها، ويقوم على خدمتها.

كان يعلم أن زينب تبادل علياء نفس مشاعرها البغيضة نحوها، فلم تكن زينب تحبها ولا تحب أن تجلس معها، وكثيرا ما كانت تقاطعها بالأيام اتقاء لشرها ولسانها السليط.

وأما فاتن فكانت على عكس موقف زينب من سفره، فمع ما كان بها من الحزن من مجرد التفكير في أنه قد يبتعد عنها ولو لفترة قصيرة إلا أنها كانت تشجعه على تلك الخطوة، فقد كانت مطلعة على جميع محاولاته في إيجاد أي عمل أو وظيفة في أي قطاع عام أو خاص والتي باءت جميعها بالفشل، لاسيما والأمور قد ازدادت سوءا وتعقيدا في مصر كلها عقب قيام ثورة يناير مما جعل السفر بالنسبة إليه أمرا لا مفر منه ولا بديل عنه.

وأيضا لأنها كانت في عامها الجامعي الأخير، فإن كانت قبل ذلك ترفض من يتقدمون لخطبتها من أبيها بحجة أنها لا تزال تدرس، فبعد بضعة أشهر لن يكون لها في الرفض أي حجة، وكان لزاما على خالد أن يبادر بالتقدم إليها لخطبتها من والدها.

لم يكن يقلقها عليه غير أنه سيسافر إلى المملكة العربية السعودية كي يعمل في شيء مجهول هو نفسه لا يعرف عنه شيئا!

حين أخبرها بفكرة السفر سألته ماذا ستعمل هناك؟

فأخبرها بأنه سيحاول أن يعمل في تخصصه، أو في أي شيء قريب منه، ولكنه لن يكون متحجرا في هذا، فإن توفر له ما أراد حمد الله واجتهد فيه، وإن لم يتيسر بحث عن أي عمل، ولو من تلك الأعمال المعمارية التي تعتمد على البنية أكثر من اعتمادها على العقل.

****

رأى خالد أنه لو استطاع أن يخرج زينب من البيت مصطحبا لها في رحلة للتتره ربما أخرجها بذلك من حالتها تلك، فتذكر أنها وعلى الرغم من أنها تبلغ من العمر واحد وعشرون عاما إلا أن المرات التي خرجت فيها من المترل قليلة جدا لدرجة أنه من الممكن عدها.

تذكر أيضا أن فاتن طلبت منه أكثر من مرة أن تقابلها وأن تجلس معها ولو بعض الدقائق، كما أنها فتاة مثلها، وستستطيع أن تفهمها أكثر منه.

فقرر أن يصطحبها معه إلى الحديقة في يوم الثلاثاء، وأن يفاجئ فاتن بها، ولكن الإشكالية كانت في كيفية اصطحابها إلى هناك، هل يحملها بين يديه كما تحمل الأم ابنها بين ذراعيها كما كان يحملها في المترل أحيانا، لكنها لن تقبل بذلك في الشارع، أم يجلب لها الكرسي الذي استطاعت أمه أن تحصل عليه لها من إحدى الهيئات المعنية باحتياجات ذوي الإعاقة.

لكنها ما كانت تحب أبدا أن تجلس على هذا الكرسي، ولا أن تنظر إليه، فكيف يقنعها الآن بالخروج به!

وفي يوم الثلاثاء استطاع أن يصحبها معه بعد أن أقنعها بأنها ستجلس على الكرسي من البيت إلى باب السيارة فقط، وبعدها لن تكون لها به حاجة.

حين دخلوا من باب الحديقة بدا البشر والابتهاج على وجهها من روعة المنظر الذيكانت تراه لأول مرة في حياتها، ثم ذهبوا إلى حيث تجلس فاتن، وعندما رأت خالد من بعيد وبجواره زينب تخطو خطوات بطيئة وهي تعتمد عليه في السير ترجح عندها أنها هي، كانت تعرف وصفها التفصيلي من خالد.

فقامت مسرعة وهي تجري نحوهما، ثم أخذتها في حضنها وقبلتها على خديها وهي في قمة الابتهاج برؤيتها.

كانت زينب بارعة الجمال، حتى أن فاتن قالت لها وهي تداعبها:

ـــ أحسدك يا زينب على هذا الجمال الذي سيجعلني أحقد عليكِ قريبا.

ابتسمت لها من غير أن ترد على مداعبتها لها.

فقالت لها فاتن:

ـــ ما رأيك أن نصبح أنا وأنت أصدقاء من اليوم؟ هل توافقي على أن تكون فتاة مثلي صديقة لكِ.

لم تعرف زينب بماذا ترد عليها، كانت تسمع عن الصداقة، ولكنها لا تعرفها، كانت بالنسبة إليها شيئا مجهولا كالألوان بالنسبة لفاقد البصر، لا يعرف عنها غير الأسماء.

رأت فاتن على وجهها سحابة من الحزن كانت تعرف سببها، فقالت لها:

ـــ لماذا أنت حزينة يا زينب؟ الحياة لا تقف على أحد، أمك لو عاشت ألف عام ففي النهاية كانت ستموت، أم أن لكِ في هذا رأيا آخر؟

فقالت لها:

ـــ بلى، ولكني كنت أحب أن أموت أنا أولا، فلم يكن لي في الدنيا أي أحد غير أمي، فماذا أفعل من بعدها.

ـــ لا تقولي هذا، فعندك خالد ومنصور، ثم ابتسمت وقالت لها :

ـــ وأنا.

هل تعرفي أنني مثلك تقريبا يا زينب، فأنا لي شقيقين ذكور مثلك، وأحدهما فقط هو الذي تزوج مثلك أنت أيضا، وقد توفيت والدتي.

لكنك كنت محظوظة أكثر مني، فأنت عشت مع أمك أكثر من عشرين عاما، أما أنا فلم أعش معها أكثر من عشرة أعوام فقط، ومع هذا فالحياة لم تقف برحيل أمي، بل استمرت، وكنت أظن أنني لن أضحك بعدها ولن أفرح مرة أخرى بأي شيء، ولكني بعد ذلك ضحكت وفرحت واستمتعت بالدنيا.

نعم لم أنسَ أمي يوما من الأيام، وأبدا لا أنساها، ولكني ما كنت لأسمح لموتها بأن يدمر حياتي.

أتعرفين لماذا؟ لأني على يقين بأن أمي لن تكون سعيدة في قبرها إذا عرفت أنني حزينة بسبب موتها.

وأنت كذلك يا زينب، إذا كنت تحبين أمكِ فلا تجعلي للحزن إليك مسلكا، فهذا هو الذي تتمناه أمك، وهذا هو الذي تريده لك.

ـــ أريد أن أفرح وأبتهج، ولكني عاجزة عن ذلك، لا أحد في الدنيا يحب أن يحزن.

ـــ أعدك أن أجعلك تفرحين وتبتهجين، سأساعدك على هذا، فأنا خبيرة في فن السعادة، ولكن فقط اسمحي لي أن نكون أصدقاء، ثم اتركي الباقي لصديقتك الجديدة.

ظل خالد يستمع إلى كلمات فاتن لأخته وهو سعيد بها، كان يعرف أنها بحاجة إلى أن تستمع لمثل هذه الكلمات، أدرك حينها كم كان مخطأ في عدم تفكيره بهذه الرحلة قبل اليوم، فقد كان يعرف أنها ستجعل أخته في حالة جيدة أفضل من التي كانت عليها.

نظر إلى زينب وقال لها وهو يبتسم في وجهها:

ـــ ما رأيك بالحديقة؟

ـــ هي جميلة بحق، لم أشاهد في حياتي ما هو أجمل منها.

ـــ ولكنكِ ما شاهدتها بعد، هيا، سأطلعك على كل جزء فيها.

ـــ ولكن كيف ستفعل هذا؟ هل ستجعل الحديقة تأتي إلينا هنا تحت هذه الشجرة!

ـــ بل أنت من ستذهبين إليها بنفسك.

ثم قام مباشرة بحملها فوق ظهره وهو يقول لفاتن هل تتسابقين معنا؟

ـــ ولكني سأسبقكما بالتأكيد.

ـــ لنرى ذلك، فالفوز لا يكون بالكلام.

ثم انطلق خالد يجري بها مسرعا وهو يحملها على ظهره ويسابق فاتن، فكانت تصرخ بصوت عال خشية أن تسقط، وأيضا كانت تضحك بطريقة لم يسبق لها أن ضحكت بها منذ سنوات.

وبعد عدة ساعات من اللعب واللهو رجع بها إلى البيت وهو سعيد لأنها استطاعت أن تخرج من حالتها تلك لبعض الوقت.

عندما رجع إلى البيت رجعت إليه حيرته من جديد، لم يكن يعرف هل أخذه لقرار السفر في الوقت الحالي يعتبر أمرا صائبا عليه أن يبادر بإمضائه من غير تردد، أم كان عليه أن يتمهل ويتروى فلربما وجد البديل عنه هنا في وطنه من غير أن يتجرع ألم الفراق ومرارة الغربة.

كان يعلم أن السفر سيكون صعبا عليه، لكنه كان يعلم أيضا أن وقوفه مكتوف الأيدي من غير أن يقوم بفعل أي شيء أصعب بكثير.

ظل يعاني من صراع بين عقله وقلبه، فقلبه لا يريده أن يفارق أخته التي تحتاج إليه الآن أكثر من أي وقت آخر، والتي يعرف أن نظراتها الحزينة كلها كانت تتوسل إليه أن لا يسافر ويتركها، وأيضا قلبه لا يريده أن يفارق حبيبته التي لا يطيق أن يغيب عنها أسبوعا واحدا فكيف بعام كامل!

ولكن عقله كان يقنعه بأنه لا بديل عن السفر، ولا مفر منه، خاصة وقد أغلقت في وجهه هنا جميع الأبواب، وليس من الحكمة أن يوقف الإنسان حياته ومستقبله على أمر قد يأتي وقد لا يأتي، حتى وإن تساوت الكفتان ولم يكن

بينهما من مرجح، فكيف به وكل الأدلة تشير إلى أن القادم لن يكون أفضل من الماضي بحال من الأحوال، إن لم يكن أسوأ في حالة ما إذا بقي الوضع على ما هو عليه بعد تلك الثورة التي قلبت الموازين، فلم يعد أحد يدري أهي فاتحة خير على البلاد والعباد، أم هي باب قد فتح للناس ظاهره فيه الخير وباطنه فيه الهلاك.

بقي في ذلك الصراع القائم بين عقله وقلبه حتى مضت الأيام ووجد نفسه يودع الجميع قبل أن يسافر لأول مرة في حياته خارج وطنه.

بدأ بفاتن، فذهب والتقى بها قبل سفره بثلاثة أيام، فاستقبلته بالدموع واستدبرته بها، ابتسم لها ابتسامة مصطنعة يحاول أن يواري بها ضعفه أمام لحظات الوداع التي قهرت جميع العشاق في كل زمان ومكان، ثم قال لها عندما انهمرت في البكاء:

ــ ألم أقل لك أكثر من مرة أني لا أحب أن أرى دموعك الغالية وهي تسقط من عينيكِ؟

قالت:

ــ إذا لم تجد بالدموع عيني في مثل هذا الموقف فلأي موقف تدخر الدموع!

استأذنها في الذهاب بحجة أن عليه أن يذهب لترتيب بعض الأغراض، ولكنه في الحقيقة عجز عن مواجهة ذلك الموقف بالصلابة اللازمة له، فآثر أن ينسحب قبل أن يظهر أمامها بضعفه وهي التي ما عرفته إلا صامدا متجلدا.

ذهب وتركها مع دموعها بعد أن جددت له الوعد بأن تنتظره حتى يعود إليها.

أما هو فلم يكن بحاجة إلى هذا الوعد، كان يعرف أن الذي بينهما أكبر من أن يحتاج إلى إعطاء وعود.

لم تطلب منه قبل أن يذهب أي شيء غير أن يطمئن قلبها عليه بالاتصال بها كلما أمكنه ذلك.

وفي اليوم الذي كانت ستنطلق فيه الباخرة وهي تحمله على متنها بآلامه وآماله التي تتصارع بداخله ذهب إلى قبر أمه في الصباح الباكر كي يودعها للمرة الثانية فجلس أمام قبرها بعد أن ألقى عليها السلام.

كان يستنشق أمام ذلك القبر عبق ذكرياته معها، لم يكن يدري لماذا قلبه يطمئن كثيرا بالجلوس في المقابر التي يستوحش منها كثير من الناس، هل لأن بها أحب الناس إليه، أم لأن اليأس بدأ يدب في قلبه لدرجة أنه قد أصبح يستبطئ الوقت الذي سيأتي فيه إليها مقيما لا زائرا.

أم لأنه كان يجد فيها السكون الذي قل أن يظفر به في مكان غير ذلك المكان الموحش.

لكنه لم يكن بالنسبة إليه موحشا على الإطلاق، فمنذ ماتت أمه قد اعتاد قضاء بعض الوقت فيه من آن إلى آخر، حتى أصبح ذلك الأمر شيئا ضروريا في حياته.

لم يكن يخبر أحدا بذهابه إلى زيارتها حتى لا يجدد عليهم الأحزان، ففي آخر مرة أخبرهم بزيارته لها ألحت عليه زينب في أن تذهب معه، فاستجاب لها، ثم ندم على ذلك بعد أن فقدت وعيها على باب قبرها من شدة البكاء والنحيب.

لا زال يتذكر حين قدم إلى قبرها فوجد منصور يبكي أمامه كالثكالى، فجلس بجواره مصطنعا التجلد وهو يقوم بتهدأته، فما هو إلا أن قام منصور من مكانه ليذهب إلى عمله حتى غرق هو فيما كان ينكره عليه.

لم يكن يعجب لهذا الأثر الذي تركه رحيلها في نفوسهم جميعا؛ لأنهم جميعا لم يكن لهم في الدنيا سواها، فترك رحيلها في حياتهم فجوة كبيرة لم يكن ليملأها من بعدها سوى الحزن والألم اللذين تولدا من فراقهم لها، وتجرعهم مرارة اليتم للمرة الثانية .

أخذ يناجيها في ذلك اليوم الذي سينطلق فيه إلى مستقبله المجهول عبر الباخرة وكأنها تستمع إليه فقال لها:

ــ أما والله لقد ذهب بذهابك أكثري يا أمي، وما بقي مني قليل ليس يغني عني في مواجهة نوائب الأيام المتتالية شيئا، ووالله إن حزني عليكِ قد ملأ قلبي حتى لم يعد فيه لغير الحزن متسعا، ولو كان بيدي لفديتكِ بعمري، إذ ليس لي به بعد رحيلك من حاجة.

ولكنه قدر الله وقضائه الذي ربيتنا على الرضا به والتسليم له.

من لي بمثلك في زمان كثر فيه النفاق والخداع فلا تكاد تجد لك فيه وفيا ولا مخلصا.

قد ارتدى العدو ثوب الصديق، وظهر الحاقد في هيئة الناصح، وراح الشامت يقذف بسهامه المسمومة وهو يصوبها نحو مقاتلي ليستمتع بمشاهدتي وأنا أتقلب على جمر النوائب.

من لي بعدك يا أمي غير عبرة تجلب عبرات، وأنة تتبعها أنات، وأنا بين العبرة والأنة أسير الزفرات.

منذ رحلت وأنا أشعر بالشيب يشتعل في رأسي خفية متنكرا بالسواد، وبالضعف يستوطن جسدي وعظامي، فأصبحت بحالي شيخا وإن كنت في عمر الشباب.

تابع حديثه معها فقال لها والدموع تنسكب من عينيه:

اليوم سأسافر يا أمي، سأذهب وفي قلبي غصة كوني لن أستمع إلى دعواتك الزكية التي عودتني على سماعها عند إقدامي على كل أمر ذي شأن، ومع هذا فحسبي أن أشعر بروحك وهي تحلق حولي في كل مكان، فأستنشق عبق رائحتها الزكية أينما توجهت.

ثم غادر المقابر إلى البيت بعد أن جفف دموعه التي كانت تتساقط مع دعائه لها بالرحمة والمغفرة، والسكنى في فسيح الجنات.

لم يمكث في البيت غير ساعة واحدة ظل خلالها متحيرا ما بين ذهابه إلى صديقه محمود وتوديعه له، وما بين نسيانه لأمره، أو تناسيه إذا لم يستطع له نسيانا.

كان يعرف أن على محمود أن يأتيه زائرا لا أن يقوم هو بزيارته، إذ هذا هو الذي تقتضيه صداقتهما وعشرتهما الطويلة برغم ما حدث، ولكنه كان يعرف أيضا أنه لا يستطيع أن يرحل من غير أن يودعه.

غلب لينه قسوته، وصرع شوقه كبرياءه، فذهب إليه في بيته يخبره بأنه سيسافر بعد بضع ساعات، لم يندهش محمود من خبر سفره، وكأنه كان على علم مسبق به.

ومع كونه ظل عابسا طوال جلوسه معه وقد أتى لتوديعهِ، ولم يستطع ولو أن يتظاهر بابتهاجه لزيارته لأنه في بيته، وأيضا لأنه سيرحل ولا أحد يعرف إن كان لهما بعد اليوم لقاء أم أن القدر سيكون له في هذا رأي آخر، إلا أن هذا الأمر لم يزعج خالد؛ لأنه كان متوقعا حدوثه.

كان يتمنى أن يبدأه محمود بالحديث عن خطيبته هدير معاتبا له استبقاء لصداقته، فلعله يستطيع أن يغير شيئا مما برأسه نحوها، ويثبت له براءتها مما رميت به، ولكنه خيب ظنه كما كان متوقعا، فلم يفاتحه في أي شيء، ومع ذلك فلم يحزن أيضا من ذلك، إذ أن الحديث في هذا ما كان ليجدي شيئا وقد تزوجت بعد ستة أشهر من إنهاء خطبتهما، وكأنها كانت تتعمد أن تنتقم بزواجها السريع من محمود الذي أطلق عليها رصاصات الشك والاتهام، من غير أن يعطي لنفسه فرصة الاستماع إليها.

وقد نجحت في ذلك الانتقام بشكل كبير، حيث ساءت حالته، وأصبح مكتئبا بعد زواجها عدة أشهر، ولكن الذي دفع ضريبة انتقامها هو خالد، فكلما ازداد الكرب والغم بمحمود امتلأ صدره بالحقد على خالد والكره له، وكأنه هو الذي خطط لكل الذي حدث!

وبعد أن ساد الصمت بينهما في تلك الزيارة سأله محمود:

ـــ هل ستغيب طويلا في سفرك هذا؟

ـــ أرجو ألا أغيب طويلا يا محمود، ولكني لا أعرف تحديدا متى أرجع، ولكن كل ما أرجوه هو أن ييسر الله لي الأمور وأجد عملا مناسبا حتى لا أغيب طويلا.

ـــ وماذا لو لم تجد العمل المناسب؟

ـــ إن شاء الله سأجده، كلي ثقة في الله، وإن خاب ظني فسأعمل في أي شيء، لا خيار أمامي غير العمل من غير فتور أو كلل حتى أحصل على المال الكافي لقضاء ديني وتكاليف زواجي.

فاجأه بقوله:

ـــ ما جزاء خيانة الصديق يا خالد؟

لمح شرارات حقد وحنق تتطاير من عينيه وهو يقذفه بهذا السؤال المفاجئ الذي يعرف ما يرمي إليه من خلاله، فأجابه في ثبات:

ـــ الصديق الحق لا يخون أبدا يا محمود، ولو خان فهو لم يكن صديقا من البداية.

عاود سؤاله وهو يعاود معه تلك النظرات قائلا له:

ـــ ما أجبتني، ما جزاء خيانة الصديق إذا خان صديقه وغدر به؟

فقال له وقد ضاق ذرعا بسؤاله ونظراته:

ـــ يكفيه ذل الخيانة الذي يظل ملتصقا به أبد الدهر، وعارها الذي يظل محفورا فوق جبينه، وحسبه شعوره بالهوان الذي يملأ صدره ويُنكِّسُ طرفه.

ـــ ألا يكون جزاؤه من جنس ما فعل عقابا عادلا له يشفي صدر صديقه من الأحقاد، وينتصر للصداقة من دعي نقض عراها؟

تعمد ألا يرد عليه، لم يرد أن يطول الحوار أكثر من هذا وقد كان ثقيلا على نفسه، وأيضا لأنه كان في شغل عن الحديث في مثل هذه الأمور التي لا تقدم ولا تؤخر.

استأذنه في الانصراف، فما كان منه إلا أن ودعه بنفس الجمود والبرود الذي استقبله به.

****

انطلقت الباخرة لتشق طريقها عبر البحر بعد عصر ذلك اليوم، وبالرغم من كونه كان على علم بآفات السفر عبر البحر من طول الطريق، ودوار البحر، وحرارة الشمس وغير ذلك من تلك الأمور إلا أنه كان مضطرا إلى ذلك نظرا لأن التذكرة كانت أقل سعرا مقارنة بالسفر عبر الطائرة، وأيضا كانت أقل جهدا ومشقة من السفر برا والذي كانت تكاليف السفر من خلاله متقاربة مع سفره عبر الباخرة.

وما هي إلا ساعات قليلة حتى وجد الظلام يبتلع كل شيء في جوفه الأسود، كان المشهد مروعا ومع ذلك كان يستمتع به،أو كان يحاول أن يقنع نفسه بأنه مستمتع به بعد أن حال الأرق بينه وبين النوم فلم يغمض له جفن، ظل واقفا أعلى سطح السفينة وقد اتخذ من السماء سقفا، ومن ضوء القمر مصباحا.

ظل واقفا لساعات طويلة وهو يفكر فيما هو مقدم عليه، هل يكون الأمل الذي ظل ينشده طويلا بانتظاره هناك حيث يقصد، أم أن حظه العاثر سيتبعه حتى خارج وطنه الذي تركه في محاولة منه للهرب من قسوته التي ما عاد يحتملها.

كان يخشى من أن يكون قد تسلل خفية إلى إحدى حقائبه من غير أن يشعر كي يستمر في ممارسة هوايته المفضلة معه وهي النيل منه وإتحافه بشتى أنواع البلاء.

ولكن هل من الممكن أن يتسلل فعلا إلى هذه الحقائب، وأي من حقائبه سيفضل السفر معه من خلالها!

لم يكن معه غير حقيبتين، الأولى كانت صغيرة، كان يضع فيها أوراقه وجواز سفره، وبعض النقود القليلة، لم تكن تتسع تلك الحقيبة الصغيرة لذلك الحظ العاثر.

والثانية كانت حقيبة متوسطة، وضع فيها بعض ثيابه، وثلاثة كتب، وبعض الأغراض الأخرى التي لا غنى عنها لمسافر إلى بلد لا يعرف عنه شيئا.

كانت تحيط به الكثير من المشاعر المتناقضة، فكان يشعر بالخوف وهو يرى نفسه فجأة وحيدا على متن باخرة ضخمة في وسط البحر والأمواج تتلاطم حولها في كل مكان، وهي تمشي قدما غير مكترثة لشيء مما حولها، فكلما صوب نظره إلى مكان لم يجد فيه غير الأمواج التي تتصارع مع بعضها البعض، وكلما أطلق بصره رجع إليه بشيء من

الخوف والوجل، كان يستغرب من خوفه مع أنه قرأ أن النظر إلى البحر يزيل الكثير من التوتر والقلق، ولكنه لم يكن يتزود في نظره بشيء غير الذي أراد نفيه عن نفسه، أم أن النظر إلى البحر وأنت على الشاطئ يختلف عن النظر إليه وأنت في رحمه!

ومع هذا الخوف الذي كان بداخله فقد كان يستحضر معية الله، وإحاطته له، وإدراكه بعنايته، وعينه التي لا تنام ولا تغفل.

كانت كلمات أمه ترن في أذنه حين قالت له: من كان الله معه فلن يضره أن يكون الجميع عليه.

تذكر وهو على متن الباخرة أنه كان يحلم أن يكون كاتبا كبيرا بعد أن انهارت أكثر أحلامه الأولى، لم يكن يعرف ما الذي حال بينه وبين هذا الحلم، مع أن الكثيرين قد أشادوا به وبموهبته في الكتابة.

لم يجد لذلك السؤال الذي انفجر في عقله جوابا غير أنه تعود أن يحلم فقط، لكنه لم يتعود على أن يتحقق له أي حلم.

أحلامه كانت في عينيه كظله تماما، كلما هرول خلفها هرولت منه!

اعتاد أن يقنع نفسه دائما بأنه من أسرة فقيرة، والفقير وإن استطاع أن يسرق الحلم خفية من غير أن يشعر به أحد فليس من حقه أن يطمع فيما هو أكثر من ذلك.

كان يعرف أن رأيه هذا يخالفه الواقع، فكثير من العظماء الذين خلدهم التاريخ وحفر أسماءهم على جدرانه الصلبة لم يخرجوا إلا من تحت عباءة الفقر الذي انصهروا فيه حتى خرجوا إلى الناس ذهبا خالصا.

ولكنه كان قد تعود على أن يلقي باللوم على الفقر في جميع ما ترميه به الأيام من فجائع، إذ أن الذي رآه منه لم يكن قليلا كما كان يعتقد.

إذن فما الذي يحول بينه وبين أن يصبح عظيما مثلهم إن لم يكن الفقر هو السبب!

هل الحظ هو الذي مشى بهم نحو المجد والشهرة وقعد به.

أم أن الأمر فيه سر يتناقله العظماء فيما بينهم جيلا بعد جيل، من غير أن يطلعوا عليه أحدا؛ ليبقى بينهم، فتكون العظمة حكرا عليهم وحدهم دون غيرهم من الناس!

بدأت تراوده بعض الأفكار الغريبة، مثل ماذا لو غرقت الباخرة الآن؟

لم يكن يفكر في هذا خوفا على حياته، ولكن لأن هناك من تعنيهم حياته بشكل كبير كأخيه وأخته، وهناك أيضا من يشاطره حياته هذه فهي ليست ملكا له وحده.

لأول مرة يندم على أنه لم يتعلم السباحة، فهو يعرف أن من يجيد السباحة كمن يمتلك عمرين كما يقولون، ولكن هل تجدي السباحة شيئا لو غرقت الباخرة في وسط البحر!

ولو أنه نجى من الموت غرقا فهل ينجو من الموت عطشا فوق مياه البحر المالحة!

أليس أمرا عجيبا أن يموت الإنسان عطشا في المكان الذي يموت فيه الناس غرقا.

من المفارقات العجيبة أن يكون هلاك بعضهم بسبب أشياء من المفترض أنها وقاية لهم من الهلاك، مثل ذلك الذي

يموت من إفراطه في تناول الدواء، وذلك الذي تكون منيته بسبب شراهته في تناول الطعام، أو إفراطه في التحرز لنفسه والاحتياط لها من أسباب الهلاك، كأنهم لا يعلمون أن الحذر لا يغني مع القدر!

تمنى أن يصرعه النعاس ليتخلص من هذه الأفكار التي أرهقته ولو قليلا.

ظل يسأل نفسه لماذا ينام الجميع الآن وهو الوحيد المستيقظ، هل لأنه لأول مرة في حياته يسافر؟ لكنه كان يعرف أن على متن الباخرة الكثيرين ممن لم يسبق لهم أن سافروا قبل اليوم، ومع ذلك فهم يغطون في سبات عميق.

أم لأنه لأول مرة في حياته يركب البحر، مما تسبب له في الكثير من الخوف والتوتر الذي طرد من عينيه النوم، ولكنه عرف أيضا أنه ليس الوحيد الذي يركبه لأول مرة، ففي هؤلاء النائمين من شأنه كشأنه، وما عدموا النوم الذي عدمه!

ربما لأن الهم الذي يحمله في صدره كان كبيرا، لدرجة أنه قد أصبح عائقا بينه وبين النوم!

لم يكن يريد أن ينام لأجل لذة النوم، أو لأجل الفرار من كدر الأرق، ولكنه أراد أن يريح عقله من شوائب الفكر الزائد التي بدأت تنعكس على جسمه فأصابت رأسه بالصداع، وبطنه بالألم.

أخرج من حقيبته أحد الكتب الثلاثة التي جلبها معه في محاولة منه لطرد الأرق، أو على الأقل طرد بعض الأفكار من مخيلته، كانت الكتب هي أكثر أصدقائه وفاء له، وقد كان هو أيضا وفيا لها، فلم يكن يمر عليه يوم من غير أن ينظر فيها، وبالرغم مما هو مقدم عليه إلا أنه لم ينس عهده بها فجلب معه بعض الكتب.

ما هي إلا بضعة دقائق وأدخل الكتاب من حيث أخرجه بعد أن عدم فيه المتعة التي كان يرجوها.

لم يكن الكتاب مملا، ولكن حالته هي التي وقفت عائقا بينه وبين الاستمتاع به.

وأخيرا وبعد أن أرهقه الفكر شعر بالكرى يغزو جفونه، فرفع له رايته البيضاء من غير إبداء أدنى مقاومة من جانبه، ثم ذهب إلى سريره ليهنأ بالنوم الذي لم يصل إليه إلا متأخرا شأن كثير من الأشياء التي كان ينتظرها، فحمد له وصوله المتأخر إذ أن هناك أشياء انتظرها طويلا وما تأتت له مطلقا، وكان من المقتنعين بالحكمة التي تقول: أن تأتي الأشياء متأخرة أفضل من أن لا تأتي أبدا.

****

في اليوم الثاني على ظهر الباخرة تعرف على شاب يكبره بقرابة الأربعة أعوام، كان ذلك الشاب ذا بشرة سمراء، وجسم نحيف، وقامة متوسطة بين الطول والقصر.

حين صعد خالد في الصباح إلى أعلى السفينة كي يتأمل الصباح في رحم البحر كيف يكون تفاجأ بذلك الشاب يقف بجواره ويمده بسيجارة.

اعتذر منه عن قبول سيجارته متعللا بعدم التدخين.

سأله:

ــ هل لي بمعرفة اسمك؟

ــ اسمي خالد، خالد عبدالرحمن.

ــ تشرفت بمعرفتك يا خالد، وأنا إسماعيل.

ثم سأله عن سبب سفره، وإلى أين سيتجه تحديدا في المملكة.

استنتج خالد من سؤاله أنه يعاني من الملل وأراد أن يطرده عن نفسه بحديثه معه.

ومع أنه لم تكن لديه الرغبة في الحديث مع أي أحد إلا أنه أجابه بأنه مسافر بحثا عن عمل، وأنه سيتجه إلى أحد أصدقائه من أيام الدراسة ليسكن معه بعض الأيام حتى يتيسر له الحصول على عمل ملائم.

فقال له ذلك الشاب:

ــ ولكن لا تحسب أن الحصول على عمل في السعودية أمرا هينا، لاسيما في هذه الأيام التي توترت فيها الأوضاع بينها وبين مصر بسبب الأحداث السياسية الجارية عندنا في مصر.

فقال له وقد بدا على وجهه القلق:

ــ ماذا تعني تحديدا؟ هل تقصد أن السعودية ستضيق بي كما ضاقت بي مصر!

ــ كلا، لا أقصد هذا يا صديقي، ولكني أقول لك هذا لتوطن نفسك عليه حتى لا تصطدم بالأمر هناك، وإن شاء الله تتيسر لك الأمور.

بادره خالد بسؤاله:

ــ هل سافرت إلى السعودية قبل ذلك؟

فقال له:

ــ نعم، أنا أعمل هناك في إحدى المزارع، لقد سافرت مثلك منذ ثلاثة أعوام وكلي حماس وأمل في أن أجد العمل المناسب، ولكن يبدو أن خريجي كلية الخدمة الإجتماعية مثلي غير مرغوب فيهم في أي مكان.

المهم هو أنني في النهاية لم أجد غير تلك المزرعة لأعمل فيها.

استأنس خالد بذلك الشاب، مع أنه لم يكن يرغب في الحديث معه أول الأمر، ولكنه رأى أنه يشبهه في الحظ العاثر نوعا ما، فتعمد أن يطول الحديث بينهما، فبادره بقوله:

ــ هل أنت متزوج؟

ــ ليس بعد، ولكنني أستعد الآن للزواج، وإن شاء الله بعد عام وبعض الأشهر من الآن سأعود إلى مصر كي أتزوج من ابنة خالي، فهي في حكم مخطوبتي الآن.

وماذا عنك أنت؟

فقال له وقد توقع ذلك السؤال منه:

ــ ما كان لي أن أفكر في السفر لولا أني أريد أن أتزوج من الوحيدة التي أحببتها.

ابتسم إسماعيل وهو يقول له:

ــ إن شاء الله يحقق الله لك كل ما تتمناه، ثم استأذنه في الذهاب كي يتناول إفطاره بعد أن أعطاه رقم هاتفه هناك، وعنوان المزرعة التي يعمل فيها، وقال له:

ــ إن احتجتني في شيء فلا تتردد في أن تتصل بي، وإن ضاقت بك الدنيا فتعال إلي، وإن شاء الله أدبر لك عملا، فقد انشرح لك صدري، وإن عدمت مني المساعدة فلن تعدم مني النصيحة، ألم يقولوا قديما: أكبر منك بيوم يعرف أكثر منك بعام.

شكره خالد على ذلك اللطف، وهذا الذوق، ثم مضى يتأمل البحر الذي يشعر بأنه قد التصق بالسماء من غير أن يوجد بينهما أي فاصل.

كان المنظر خلابا لدرجة أنه تمنى ساعتها أن يكون رساما ليعمل ريشته في تصوير ذلك المشهد البديع.

حاول أن يقذف بكل همومه في ذلك البحر، فلعلها أن تلفظ أنفاسها الأخيرة بين أمواجه العاتية، ولكنه عجز عن ذلك، أو ربما البحر هو الذي أبى أن يقبل منه تلك الهدية.

لم يكن يقلقه إلا زينب، كان يعرف أنها على الأرجح قد امتنعت عن كل شيء عدا البكاء.

لم يكن يعنيه أي شيء قدر ما كان يعنيه أمرها، كان يود أن تضاعف الباخرة من سيرها حتى يصل ويتمكن من الاتصال بمنصور هاتفيا؛ ليكلمها ويطمئن عليها.

لا زالت وصية أمه له قبل أن تموت بأن يعتني بها تضاعف من خوفه عليها، وأيضا من خوفه أن يكون قد أضاع وصية أمه بابتعاده عنها.

كان يهون على نفسه ذلك الأمر بأنه ما سافر إلا ليحصل على المال الذي يسمح له بأن يتزوج من فاتن ويأخذها معه لتعيش في بيته معهما، وإلا فمن أين له أن يفعل ذلك إن لم يأخذ تلك الخطوة وذلك القرار!

وفي محاولة منه لنفي الهموم وجلب المزيد من الأمل الذي استمده من مشهد البحر في الصباح قام بإخراج صورة فاتن من داخل محفظته وأخذ يتأملها وهو يبتسم لها، ثم أخذ يناجيها وكأنها معه على متن الباخرة.

كان يعلم أنها على الأرجح تبكي هي الأخرى لرحيله عنها، فهو يعرفها رقيقة القلب غزيرة الدمع، ثم قام بإخراج أحد الكتب الثلاثة التي كانت معه في حقيبته وكانت قد أهدته له في آخر مرة قابلها فيها قبل سفره بثلاثة أيام، وأوصته أن لا يفتحه إلا وهو في وسط البحر.

فتح الكتاب فإذ بورقة تسقط منه أثناء فتحه له.

أمسك بالورقة ليجدها عبارة عن رسالة منها، وقبل أن يشرع في قراءتها أخذ يستنشق رائحة تلك الرسالة بعد أن أدناها من أنفه، عرف أنها قد عطرتها برائحتها المفضلة التي أهداها لها منذ فترة، ثم أحكم إمساكها بكلتا يديه حتى لا تخطفها منه الرياح لتسلمها للبحر هدية.

شرع في قراءة رسالتها وهو يتدبر كل حرف فيها وهي تقول له:

ــ الخالد في ذاكرتي خالد:

ليتني الآن أستطيعُ أن أطلعكَ على شيء من النيران المسعرة بداخلي جراء رحيلك عني، بل ليتني أتمكن الآن من أن أريك بعض دموعي الحارة التي مع قلتها ترجح بماء البحر الذي يحيط بك من كل جانب إن هي وزنت به.

وكيف لا يكون ذلك كذلك وما هي إلا نفسي تذوب فكان ذوبانها في هيئة الدموع وشكلها.

أحمد الله أنك لا تراني الآن وأنا على ذلك الحال، فأنا أعرف كم تؤلمك دموعي.

لقد أوصيتك أن لا تفتح رسالتي إلا وأنت في كبد البحر حتى تجعل من البحر شاهدا على هذه الكلمات:

للمرة الثانية أعاهدك على أن لا أكون لغيرك مهما حدث، ووالله لأن أزف إلى الموت أحب إلي من أن أزف إلى غيرك.

وما الموت إلا أن يكون اسمي ملتصقا بغيرك، وما الحياة عندي إلا أن أكون بجوارك.

ليتني كنت مرآة تصطحبها معك في سفرك فتهنأ بالنظر إليك خلسة من حيث لا تدري.

ليتني كنت صفحة في كل كتاب تمد يدك نحوه لتقرأه، فأستمتع بأطراف أصابعك وهي تلمسني وتقلبني بدلا من جمر الهجر الذي أتقلب عليه الآن.

بل ليتني كنت قطعة من السكر تضعها تحت لسانك فتهون عليك مرارة الغربة حتى وإن كان في هذا ذوباني وهلاكي.

فكلي فداء لبعضك، وبعضي فداء لك من أصغر شوكة تشاكها، وأقل هم تجاهده، وأهون ألم يلم بك.

أشهدك وأشهد البحر والسماء، والسمك والهواء أني أحبك من أول لحظة وقعت فيها عيني عليك تحت الشجرة التي كانت شاهدة على حبنا في الحديقة، وأن حبك بداخلي ينمو على مر الأيام كما ينمو الجنين في أحشاء أمه حتى ليكاد قلبي يضيق عن كل ذلك الحب، وأعاهدك للمرة الثالثة على مرأى ومسمع منهم جميعا على أن أكون في انتظارك، مهما بعد مقامك، وطال غيابك.

أسيرتك في الهوى:

فاتن.

(الفصل السابع)

يونيو ٢٠١١م

مضى على وجود خالد في المملكة العربية السعودية ثلاثة أشهر وهو لا يزال يبحث عن عمل يليق به وبالسنين التي قضاها في الدراسة غير تلك الأعمال الشاقة التي لا يحسنها، والتي أصابتهُ بعدة كدمات في جسده، مع بعض الجروح الطفيفة، حيث كان يعمل في الأشغال المعمارية المرهقة، فيوما يعمل في البناء ويكون عمله عبارة عن تجهيز الأسمنت بتخميره في الرمل والماء، ثم تقديمه للبنَّاء، مع حمل الطوب الذي يلزمه في البناء على كتفه، مما أصابه بالعديد من الجروح في كتفه.

ويوما يعمل في الحفر مع العديد من العمال الأميين، وأياما أخرى كان يمكث فيها بلا عمل، لا لعزوفه عنه لأجل المشقة التي تلحقه من ورائه؛ ولكن لعدم توفره له، وحصوله عليه.

تفاجأ في نهاية الشهر الثالث بصديقه سعيد الذي أغراه بالسفر يطالبه بأن يشاركه في دفع أجرة الشقة التي أسكنه معه فيها، وأن يعطيه أجرة الثلاثة أشهر الماضية.

بالرغم من أنه حمد له أنه هو الذي استقبله في السعودية، وأحسن ضيافته، وأسكنه معه، إلا أنه بداخله تضايق منه؛ لأنه كان أكثر شخص يعرف ما كان يمر به في تلك الفترة من عِوَز.

لم يكن عنده أي مانع في أن يشاركه أجرة الشقة لو كانت الأموال التي معه تسعفه لأن يفعل ذلك، لاسيما والشقة يسكنها ستة أشخاص غيره هو وسعيد، والأجرة ستكون مقسمة على الجميع بالتساوي.

كان يأمل في أن يمد له صديقه يد العون فيحمل عنه هم السكن بدفعه هو للإيجار بدلا عنه حتى يتسنى له أن يجد العمل المناسب الذي يتيح له أن يشاركه فيها، وبعدها يعطيه كل ما دفعه عنه، كان سعيد يعمل مندوب مبيعات في إحدى الشركات، وكان راتبه الشهري خمسة أضعاف ما كان يحصل عليه خالد خلال عمله المتقطع طوال الشهر، ومع ذلك فلم يفكر في أن يُقرض خالد ولو ريالا واحدا في بداية قدومه، فضلا عن أن يعطيه أي مال على سبيل الهبة حتى يجد العمل المناسب.

كانت الأجرة التي يحصل عليها خالد من عمله بالكاد تكفي حاجاته من الطعام والشراب، وبعد أن يقوم بدفع خمسمائة ريال لإيجار الشقة في أول كل شهر إضافة، إلى دفع ألف وخمسمائة ريال إيجار الثلاثة أشهر الماضية فقد لا يجد ما يأكله!

كان من حسن حظه أن الكفيل الذي سافر عليه قد رضي منه بأن يُحفِّظ أولاده من القرآن، مقابل أن لا يأخذ منه أي مال نظير كفالته.

لم يتصل خلال الشهر الأول من إقامته بمنصور وزينب غير ثلاث مرات لعجزه عن أن يتصل أكثر من ذلك بسبب قلة المال معه.

وأما فاتن فلم يتصل بها أكثر من مرتين، والاتصال الثالث كان منها هي، فنهاها عن أن تكرر ذلك الأمر.

بالرغم من أن غربته قد استطاعت أن تجرده من الكثير من الكبرياء الذي فشلت في أن تجرده منه فاقته إلا أنه كان لا يزال بداخله تلك الأنفة التي لا تسمح له بأن يجعلها هي تتكبد غرامة الاتصال به.

كان يخبرها بأنه مُقل في الاتصال بها لأن المكان الذي يعمل فيه لا تكون الشبكة متاحة فيه أكثر الوقت، وكانت بفراستها تعرف أن السبب في ذلك يرجع إلى عدم توفر المال معه بسبب معاكسة الظروف له.

كانت تفهمه من نبرة صوته، لم تكن تصوب نظرها إلى ما يقوله بفمه، ولكن إلى ما يضمره بقلبه.

وكان يعلم أنها تشعر بما هو فيه بالرغم من أنه لم يكن يخبرها بشيء.

كل الذي كان يعنيه في ذلك الوقت هو أن يتمكن من ادخار المبلغ الذي اقترضه منصور من بعض أصدقائه من أجل سفره.

خمسة عشر ألف جنيه اقترضها منصور لأجله، غير تلك الأموال التي وضعها هو من عنده.

بدأ يشعر أن آماله التي كان قد علقها على سفره ذهبت هي الأخرى هباء منثورا.

رأى أنه لم يجد في غربته غير ذلك الذي فر منه، لم يكن يدري ماذا عليه أن يفعل وقد سدت في وجهه كل الطرق، هل يكمل فيما هو فيه فلعل الله أن يجعل له من عنده فرجا ومخرجا، أم يعود إلى مصر بخفي حنين!

ولكنه خرج من مصر فرارا من الفقر، فهل يعود إليها بمزيد من الفقر والدين!

وكيف يسمح لنفسه أن يقابل فاتن إن هو عاد مطأطئ الرأس، منكس الطرف، وهو مدثر بيأسه وعجزه!

ثم كيف له أن يرجع وما قضى تكاليف سفره التي اقترضها من أجله منصور!

وفي صباح يوم من أيام الغربة الكئيبة التي تتشابه جميع أيامها ولياليها فكأنها يوم واحد من كبد الضجر جلس في الشقة على غير عادته من غير أن يخرج للبحث عن أي عمل.

كان يعاني من حمى أصابته فأقعدته في الفراش يهذي كالسكارى.

جلس يستمع إلى أنين ذاكرته، وأصداء ذكرياته وهو ينتفض من الحمى التي أصابته.

لم يكن عنده أي استعداد لأن يمكث عاطلا في الفراش ولو يوما واحدا، ولكن أقعدته الحمى على الرغم منه.

عرف حينها أنه يمتلك ثروة كبيرة لم يكن ينتبه لها، إذ الصحة كالأمن تماما، لا يمكن أن تعرف قيمتها إلا حين تفقدها.

ولأنه لا يكاد يخلو بنفسه ساعة من الليل أو النهار إلا ويتفكر في ماضيه البائس، ومستقبله المجهول، وحاضره الذي يود أن ينتزع نفسه منه انتزاعا بكل ما أوتي من قوة، فقد وجد في تلك اللحظات التي كان يجاهد فيها الحمى وتجاهده فرصة جيدة لأن يخوض في لجج أفكاره وأمانيه، لاسيما وكل من في الشقة قد غادروها سعيا وراء العمل، ولم يبق فيها باستثنائه أحدا.

شعر برغبة ملحة في البكاء، ولكن عينه ضنت عليه ببعض الدموع التي كان من شأنها أن تسكن النيران المسعرة بداخله ولو قليلا.

كان يرى أن المناخ العام بطبيعته يشجع على سكب القليل من الدموع إن هو أخفق في سكب الكثير منها.

وهل يوجد ما هو أفضل من شقة فارغة من كل شيء عدا الهم الذي يحمله على كاهله في وطن لا يعرفه فيه أحد كي يطلق لدموعه العنان فتنطلق غير مبالية بشيء.

لم تنزل منه دمعة واحدة، لا لأنه لم يكن يرغب في ذلك، ولكن لأنه من كثرة ما عود عينه أن تكون شحيحة بدموعها فقد أصبح الشح بالدموع لها عادة، فحتى إن هو أمرها بالجود بالقليل منها أبت عليه ذلك، ورفعت في وجهه راية العصيان.

ترك عينه وشأنها، وراح يراجع نفسه في ذلك الهدوء الذي عم جميع غرف الشقة وجدرانها.

كان يتمنى أن يجد الطريق إلى الثراء في غربته كي يعود إلى وطنه مرفوع الرأس مشرق الجبين.

لم يكن عنده شك في أن مقياس النجاح والفشل ما عاد له معايير غير ما يملكه المرء من المال، فبقدر ما تملك بقدر ما تكون ناجحا في نظرهم.

جاء وقد عزم أن يجني الكثير منه، أو على الأقل يحصل على ما يكفيه لشراء شقة، أو استئجارها إن هو عجز عن الشراء، وأن يمتلك ما يكفيه لأن يسد ديونه، ويتزوج من فاتن، كي يعيش معها مغتبطا قربه منها، وأيضا كي ينتقل بأخته كما أوصتهُ أمه.

لم تكن تعنيه كثيرا تلك الطريقة التي يحصل من خلالها على المال قدر ما كان يعنيه الحصول عليه ما دام سيحصل عليه عن طريق الحلال.

لم يعرف أن الدنيا ستضيق به في غربته كما ضاقت به في وطنه.

ولكن أي غرابة في أن يلفظك وطن أنت عنه غريب وقد لفظك وطنك الذي خرجت من رحمه وغذيت بمائه وهوائه!

في تلك اللحظات اشتعلت بداخله ثورة عارمة كتلك الحمى التي اشتعلت بجسده.

كان يشعر بتلك الثورة تغلي بداخله، ولكنه لم يكن يدري على من يصوب نصالها.

هل يصوبها على وطنه الذي كان يرجو منه الكثير فلم يجد عنده من رجائه فيه قليلا ولا كثيرا.

أما هو فقد أدى لوطنه فيما يحسب ما كان يتطلبه منه كابن بار له.

فعزم أن يكون عضوا صالحا فيه، وأن ينفعه أينما كان ما استطاع إلى ذلك سبيلا، بل كان يحلو له أن ينظم في أوقات فراغه بعض الشعر فيه وكأنه يتغزل في امرأة يهواها.

وحينما انتهى من دراسته الجامعيه بادر بتقديم أوراقه لأجل التجنيد الإجباري ولكنهم أعفوه منه، معلنين له تنازلهم عن خدماته.

كان يحمل لوطنه كل حب وما تمنى أن يفارقه يوما من الأيام.

وحينما اشتعلت ثورة يناير كان من أول المشاركين فيها، فثار مع الثائرين ونادى بأعلى صوته وهو يهتف ضد الظلم والفقر والاستبداد، حتى كادت حبال حنجرته أن تنقطع.

كان يحسب كما حسب كثير من الشباب أن أيام شقاء الوطن قد رحلت مع النظام الراحل، لم يكن يدري أن الأسوأ هو القادم.

ظن كما ظن الكثيرين أن الدماء التي سالت، والأرواح التي أزهقت ستكون فاتحة خير وبركة على الوطن بمن فيه.

لا زال يتذكر أحد الثائرين معه في بداية اندلا ع الثورة وقد لفظ أنفاسه الأخيرة على ذراعيه متأثرا بعيار ناري أصاب جبهته، لم يكن يعلم من أين أتته تلك الرصاصة، ولا لماذا استهدفته هو تحديدا دون غيره، ولماذا لم تكن تلك الرصاصة من نصيبه هو وقد كان ملاصقا له ولا فاصل بينهما.

كانت آخر كلماته التي قالها وهو يجود بروحه: (قولوا لامي متزعليش، أموت أموت وبلدي تعيش).

ها هو قد مات في غير شيء، شأنه شأن كثير من الشباب الذين واجهوا الموت فقط لأنهم رفعوا راية العصيان في وجه الاستبداد.

لم يكن يعلم أن الثورة سيقوم بها أناس ليستمتع بجني ثمارها أناس آخرين ما كان لهم فيها ناقة ولا بعير!

لم يكن يدري على من يثور، على وطنه الذي خذله أم على حظه العاثر الذي يتبعه في كل مكان يذهب إليه تماما كظله.

أم يثور على فقره الذي أذاقه الحرمان طفلا، وجرعه الذل صبيا، وأعوزه لغيره شابا، ثم رمى به في أحشاء الغربة، غير مبالٍ ولا مكترث.

أخذ يتفكر في غربته تلك وينظر إليها نظرة متشائم، لم يكن يؤلمُ أنه يستوحشُ في تلك الغربة من كل شيء، فحتى الغربة نفسها كانت شيئا مألوفا عنده من قبل أن يغادر وطنه، كان يشعر بها دوما بداخله، لذلك لم يكن يأنس بشيء أنسه بعزلته.

كم هو مؤلم أن تشعر وأنت في أحضان وطنك بالغربة تعيش بداخلك!

لم يخلصه من هذا التفكير اليائس، وتلك الخواطر الحزينة غير سنة من النوم أخذته، أو ربما هي الحمى استحكمت منه حتى أفقدته وعيه، فلم ينتبه إلا وقد عاد الجميع مساء من العمل.

في مساء هذه الليلة تم اكتشاف عملية سرقة قد وقعت على أحدهم، كان المبلغ المسروق ألف ريال، وكان صاحبه قد وضعه في حقيبتهِ، فلما ذهب يتفقد الحقيبة تفاجأ باختفاء المبلغ، فأبرق وأرعد، وهدد وأوعد، وفي اجتماع طارئ لجميع ساكني الشقة لأجل معرفة السارق تم اتهامه من دونهم جميعا بتلك السرقة.

كان الاتهام أكبر من أن يدافع عن نفسه، فلم يرد عليهم بكلمة واحدة، وإنما رد عليهم بالضحك، لم يكن ضحكه إلا سخرية من ذلك الاتهام، ومن ذلك الذي اتهمه به.

لو كان ممن عندهم الاستعداد لأن يضحوا بالشرف لأجل المال فما الذي حمله على أن يتغرب عن بلده وأهله!

كان بإمكانه أن يجني الكثير من المال إن هو فقط أعطى لضميره منوما قويا.

قال له أحدهم وقد استفزته ضحكاته المتواصلة:

ــ لم يكن في الشقة أحد باستثنائك، وكلنا يعرف أنك تعمل يوما وتمكث أسبوعا بغير عمل، وأنك بالكاد تحصل على ما يكفيك للطعام ودفع إيجار الشقة، فأنت أكبر من لديه دوافع السرقة فينا جميعا.

ثم إننا نسكن معا منذ فترة كبيرة، وكلنا يعرف الآخر، ولم يحدث قط أن تمت لأحدنا أي سرقات قبل مجيئك، وأنت الوحيد الدخيل علينا، ولا يعرفك هنا غير سعيد.

توقف عن الضحك وفي حلقه كالعلقم، ثم صمت واسترسل في الصمت طويلا من غير أن ينطق بكلمة واحدة يدافع بها عن نفسه، رجاء أن ينتصر له من تلك الإهانة الواقعة عليه صديقه الذي يعرفه أكثر منهم.

فقال سعيد لذلك الذي وجه اتهامه نحو خالد:

ـــ لا ترمِ بالاتهامات هكذا جزافا دون أدلة، أعرف خالد منذ سنين طويلة، وأن يموت جوعا أحب إليه من أن يمد يده نحو شيء ليس له.

والله إني لأشك في نفسي ولا أشك فيه، وأثق فيه أكثر من ثقتي فيكم جميعا.

الرجل مكث معكم ثلاثة أشهر، فهل رأيتم منه إلا الخير!

بدا لخالد أن جميعهم قد أجمعوا على أنه السارق، بدليل أن أحدا منهم لم يكلف نفسه مشقة الدفاع عنه ولو بكلمة.

كان دليلهم الوحيد على أنه هو السارق أنه قد مكث في الشقة وحده في ذلك اليوم.

فهل كان بيده أن تزوره الحمى على غير اختيار منه فتقعده في الشقة وحيدا حتى توجه إليه أصابع الاتهام!

أم كان عليه أن يغادر معهم في الصباح الباكر، رغم ما كان به، حتى لا توجه إليه تهمة الاختلاء بالشقة في وضع مخل بالأمانة!

وفي محاولة منهم لإيجاد المخرج وتعويض المتضرر قرروا أن يجمعوا المبلغ المفقود منهم جميعا، على أن يساهم في الدفع معهم خالد، إضافة إلى إخلائهِ للشقة، وعدم إقامته معهم، أو بالأحرى طرده منها، رغم عدم وجود دليل واحد يصلح لأن يكون دليلا ضده.

قام من مجلسهِ بعد أن وجهوا له التهمة، وأصدروا عليه الحكم وهو يشعر للمرة الثانية بالظلم يقع عليه من غير أن يستطيع أن يفعل حياله أي شيء.

للمرة الثانية يتهم في عرضه، ويرمى بما هو منه بريء.

لم يكن معه غير ثلاثمائة ريال، قام بإعطائهم مائتي ريال منهم، مع أن الذي كان عليه أن يدفعه أقل من هذا، ولكنه لم يكن يكترث.

خسارة المال هينة إذا ما كانت في مقارنة مع الشرف.

طلب منهم أن يمهلوه حتى الصباح، وبعدها سيرحل إلى حيث يقدر الله له الرحيل.

خرج من فوره من الشقة متوجها إلى أقرب حديقة منه، مع ما كان به من آثار الحمى.

كانت حديقة عامة، يمكن للجميع أن يدخلوها متى شاؤوا، تماما كقلبه الذي كان مفتوحا للجميع، حتى من اعتادوا الإساءة إليه.

جلس بين أشجارها والظلام يحيطُ به من كل جانب إحاطة أحزانه بهِ والأشجار بهذه الحديقة الصغيرة.

لم يكن فيها أي مخلوق باستثنائه هو وآلامه التي تصرخ بداخله كرجل نشبت النيران في ثوبه وجسده.

استحكم اليأس منهُ في تلك اللحظات، بدأ يشعرُ أنه على وشكِ أن يفقد كل شيء، فحتى سمعتهُ التي لا يملكُ ما هو أعز لديه منها أصبحت مستباحة.

لم يعد يدري أين يمضي، ولا كيف يسير وقد ضاقت به السبل.

وماذا عن فاتن التي تنتظر عودته ليتقدم لخطبتها من والدها، وأخته التي وعدها أن يعود بعد عام واحد.

كانت كل المؤشرات تشير إلى أن الوضع إن ظل على ما هو عليه فربما امتد العام إلى عامين وثلاثة، وربما أكثر من ذلك.

شعر هذه المرة برغبة ملحة في البكاء أكثر من تلك التي شعر بها في الصباح، هذه المرة لم تخذله عينه فجادت بالكثير من الدموع الحارة، وكأنها أشفقت عليه أن تخذله هي الأخرى وقد خذله الكثيرين.

كانت دموعه تسقط من عينيه بغزارة يدفع بعضها بعضا، كأنما هي في سباق شرس.

لم يكن يعرف لماذا يبكي الآن كل هذا البكاء المفرط، هل يبكي لخيبة أمله في السفر الذي كان يرجو أن يكون نافذته التي سيطل من خلالها على أمانيه السالفة.

أم لأنه بدأ يستشعر مرارة الظلم الذي وقع عليه.

لم يكن يدري لأي شيء كان بكاؤه، كل الذي كان يعرفه هو أن البكاء قد يخفف عنه شيئا مما به، كما أنه كان يعرف أن الدموع لن تجدي شيئا، ولن تغير من واقعه قليلا ولا كثيرا، ولكنه مع كل هذه الشدائد لم يفقد إيمانه بالله ولا ثقته فيه.

كان يؤمن بأنه في رحم كل محنة منحة، وخلف كل دمعة بسمة، وبعد كل عسر يسر، ووراء كل ضيق فرجا ومخرجا.

ظل في الحديقة على تلك الحالة إلى ما بعد منتصف الليل، أخذ يتجول فيها كعادته وهو يمارس هوايته المفضلة، وأثناء تجوله كان يتنقل بعقله بين ماضيه وحاضره ومستقبله.

عرف أن عليه أن يرحل من الشقة، ولكنه كان يجهل إلى أين سيسير، وفجأة تذكر ذلك الشاب الذي كان معه على متن الباخرة التي أقبل فيها، وتذكر أنه لا يزال محتفظا بعنوانه ورقم هاتفه، فرأى أنه لا خيار أمامه غير اللجوء إليه، لاسيما وقد وعده بمساعدته، ومد يد العون له.

وبعد ساعات قضاها في الحديقة عاد إلى الشقة قرابة الفجر، كان يغلب على ظنه أن الجميع قد راحوا يغطون في نوم عميق، وما إن ولج بيمينه بداخلها حتى فاجأه سعيد بقوله:

ــ أين كنت؟

وقبل أن يجيبه على سؤاله قال له ووجهه يتهلل فرحا:

لقد وجدنا النقود المفقودة في مكانها، وعلى الراجح فإن صاحبها قد أصيب بعمى مؤقت أثناء بحثه عنها في المرة الأولى فلم يرها، وقد عزم الجميع على أن يعتذروا منك، وكلهم أمل في أن تقبل عذرهم، والله يا خالد لو عرفت الذي فعلناه بصاحب النقود حينما عثر عليها لأشفقت عليه من سيول الشتم والإهانة التي أنزلناها به.

وقد كلفني الجميع بأن أطلب منك عدم مغادرة الشقة، وإلا فإنهم لن يسامحوا أنفسهم أبدا.

لقد انتظروك ولكنك تأخرت فناموا، تعرف أن عليهم أن يستيقظوا باكرا لأجل العمل.

سكت قليلا ثم أردف كلامه قائلا:

ــ لقد ظللت أتصل بك طويلا، وفي كل مرة كنت أجد هاتفك مغلقا، حتى قلقت عليك كثيرا.

لم يجد أي كلام يسعفه ليرد به عليه، فلم يرد بغير ابتسامة مصطنعة تحمل في طيها الكثير من الكلمات التي عجز عن التلفظ بها، ثم توجه إلى الغرفة التي ينام فيها وهو عازم مغادرة لشقة، فأسلم جنبه للفراش، بعد أن أضناه الفكر، وأرهقته الحمى.

استيقظ في الصباح الباكر، مع أنه لم ينم غير ساعات قليلة، وما هو إلا أن توجه إلى صنبور الماء كي يتوضأ لصلاة الصبح حتى بادره سعيد ومن معه في الشقة بالاعتذار منه.

فقال لهم:

ــ لا عليكم، لم يحدث ما يستدعي اعتذاركم.

فقال له سعيد:

ــ إذن فلن تفارقنا، أليس كذلك؟

ــ كنت أتمنى أن أمكث معكم، ولكن كما ترون، فقد أخفقت في أن أحصل هنا على عمل مناسب، سأجرب حظي في أي مكان آخر، فالمملكة واسعة ومترامية الأطراف.

ــ لكن هل حقا ستذهب لتجرب حظك، أم لأجل الاتهام الكاذب الذي وجه إليك بالأمس؟

ــ لا يهم يا صديقي السبب ما دامت النتيجة واحدة.

أتم وضوءه، ثم صلى الصبح، وبدأ في ترتيب أغراضه وحقيبتيه.

فكر قليلا إذا ما كان عليه أن يتصل بإسماعيل لكي يخبره بقدومه إليه، أم يذهب إليه مباشرة دون اتصال.

قطع تفكيره ثم أخرج هاتفه من حقيبته واتصل به على الرقم الذي أعطاه له، كان قلبه يدق مع جرس الانتظار.

لم يجب أي أحد على الهاتف، انتظر دقيقتين مروا عليه وكأنهم أزمنة متطاولة ثم عاود الاتصال، رد عليه قائلا:

ــ السلام عليكم.

أجابه بقليل من الفرح وكثير من التوتر:

ــ وعليكم السلام ورحمة الله، كيف حالك يا إسماعيل.

ــ الحمد لله، في نعم كثيرة، ولكن عذرا من أنت، فأنا لا أعرفك.

ــ أنا خالد عبدالرحمن، سافرت معك من مصر إلى هنا على متن الباخرة ألا تذكرني؟

ــ بلى، أذكرك جيدا يا صديقي العزيز، اعذرني فهذه هي أول مرة أسمع فيها صوتك عبر الهاتف، لذلك لم أميزه.

ــ لا عليك، أردت أن أخبرك أن ما تنبأت به هو الذي قد حدث بالفعل، وأنا هنا أشعر بخيبة أمل بعد أن سدت في وجهي جميع الأبواب من جديد.

أراد أن يسترسل فيقول له: هل أجد عندك العمل الذي وعدتني به لو ضاقت بي الدنيا، ولكنه استحيا من ذلك فقال له:

ــ هل أجد عندك النصيحة التي كنت قد وعدتني بها؟

ــ بالتأكيدِ يا خالد، فنحن أبناء بلد واحد، لا يزال العنوان الذي أعطيتك إياه معك، أليس كذلك؟

ـــ نعم، بالتأكيد معي.

ـــ حسنا، يمكنك إذن أن تشرفني في أي وقت وسأكون في انتظارك، فقط أعلمني قبلها.

فقال له على الفور:

ـــ سأتوجه إليك الآن إن لم يكن عندك ما يمنع، قد أخبرني الأصدقاء هنا أن الطريق بيني وبينك سيستغرق قرابة العشر ساعات، أي أنني سأكون عندك مع أول الليل إن شاء الله.

ـــ لا بأس يا صديقي، أنت على الرحب والسعة في أي وقت، إن وجدت صعوبة في الوصول إلي فاتصل بي وسأساعدك في الوصول بشكل أيسر.

أغلق معه وهو يشعر ببعض التفاؤل الذي كان بحاجة إليه بعد أن استحكم منه اليأس، وما هي إلا نصف ساعة وقد استعد للمغادرة، فودع سعيد وسلم على من كانوا في الشقة ولم يغادروها بعد لأجل العمل، ثم مضى بعد أن أخبرهم بأنه ليس غاضبا منهم.

لم يكن معه ساعتها غير ثلاثمائة ريال، وقد كانت كافية لأن تسعفه في سفره إلى إسماعيل، وقد أحسنوا إليه حين ردوا له الأموال التي دفعها لصاحب النقود التي اتهم في سرقتها.

****

وصل أخيرا بعد أكثر من تسع ساعات قضاها في الطريق ما بين عناء الحر الشديد، والتعب الذي لقيه داخل السيارة، وكان مثل الكثيرين يحب السفر، ولكنه يبغض وسائل المواصلات.

ما أن وصل حتى استقبله إسماعيل أحسن استقبال، فأدخله المزرعة، ومنها إلى البيت والغرفة التي يسكن فيها، ثم قدم له العشاء، كان يتضور جوعا، ولكن الحياء حمله على أن يخبره بأنه ليس جائعا.

كان حريصا على أن يبقى ماء وجهه من غير أن يسمح لغربته بأن تتمكن من أن تبخره له في الهواء.

أقسم عليه إسماعيل أن يأكل، كان الطعام شهيا ولذيذا، ومع ذلك فلم يأكل غير القليل من الأرز، مع قطعتين صغيرتين من اللحم.

ولما هم بأن يبدأ معه الحديث قال له:

ــ لا أحاديث اليوم، الآن ستنام وغدا سنتحدث بما شئنا، وبالنسبة للعمل فلا تقلق، سوف تتسلمهُ من الغد إن شاء الله.

ثم أعد له الموضع الذي سينام فيه، فاستأذنه في أن يجري اتصالا بأخيه منصور قبل أن ينام كي يطمئن عليه، ثم خرج ليتصل به.

أجابه منصور وبصوته نبرة حزن يعرفها فيه كلما كان مهموما:

ــ كيف حالك يا خالد، قد اشتقت إليك كثيرا يا أخي.

رد عليه:

ـــ بخير الحمد لله، ولكن أخبرني هل من شيء حدث؟ أرى في صوتك الحزن.

ـــ فقط اشتقت إليك.

ـــ ما أخبار زينب، هل هي بخير؟

سكت قليلا ثم قال له بعد تمتمة:

ـــ هي بخير، لا ينقصها فقط إلا أن تراك.

ثم تابع كلامه فقال:

ـــ كنت سأتصل بك كي أخبرك أن والد صديقك محمود قد انتقل إلى جوار الله منذ يومين، ولكن شغلتني والله يا أخي بعض الأشياء عن ذلك فسامحني.

ـــ لا حول ولا قوة إلا بالله، إنا لله وإنا إليه راجعون، سامحك الله يا أخي، ليتك أخبرتني يومها، لا بد وأنه يحمل لي في نفسه أني لم أكلمه.

لكن لا بأس، إن شاء الله بعد أن أغلق معك سأتصل به.

هل زينب مستيقظة؟ أريد أن أسلم عليها.

فعاد إلى التمتمة ثم قال له:

ـــ لا، لقد نامت منذ قليل، تعرف أنها لا تطيق السهر.

لم يكن يعرف لماذا يتلجلج في الكلام كلما سأله عن زينب، كان يتمنى أن يكلمها، فهو لم يتمكن من أن يسمع صوتها منذ أسبوعين بسبب الأعباء التي كان يواجهها.

أغلق معه بعد أن طلب منه أن يسلم له عليها، ثم أخبره بأنه سيتصل مرة أخرى من أجل أن يطمئن بنفسه عليها ويسمع صوتها، وأخبره بأنه سيحاول أن يرسل له بعض المال قريبا، هو في الحقيقة لم يكن معه أي مال كي يرسله، ولكنه يعرف أن علياء زوجته لن تتوقف عن نفث سمومها في أذنيه، وإخباره بأنه ناكر للمعروف والإحسان لأنه منذ سافر لم يرسل أي مال.

لم يكن يعرف هل سيتيسر له المال الذي وعده به أم لا، ولكنه قدم حسن الظن بالله واستبشر خيرا.

بعد أن أغلق معه الهاتف بلحظات قام بالاتصال بمحمود، فاعتذر منه عن تأخره عن الاتصال به، وأخبره أنه لم يعرف الخبر إلا من لحظات عندما اتصل بمنصور.

فقال له:

ــ لا عليك يا صديقي، فدائما الأعذار عندك حاضرة.

ضايقته منه هذه الجملة الأخيرة، ولكنه تابع كلامه معه متجاهلا لها فقال:

ــ هل مات فجأة أم كان يشكو من شيء؟

ــ بل كان يشكو منذ بضعة أشهر بحنجرته، كان مريضا بالسرطان، لذلك فأنا من كنت أتولى إدارة جميع أعماله أثناء مرضه. رحمة الله عليه.

ـــ كن متجلدا في مصابك، واعلم أننا جميعا إلى زوال، ووالدك الآن لن ينتفع منك بالحزن أو العويل، وإنما بالدعاء له، والترحم عليه.

أغلق معه وهو مندهش من حاله، لم يكن يبدو عليه أي حزن لفقده والده، كان يعرف أن والده بخيل شحيح، وأنه كان يتعجل موته كي يرث كل تلك الأموال التي تركها، ولكنه ما كان يظن أن موته يمر عليه هكذا دون أن يكون له عليه أي تأثير، ثم لماذا يستعجل موته وقد آلت الأمور كلها إليه في حياته!

لم يجد للأمر تأويلا غير أنه بداخله يتألم لوفاة والده ولكنه كان يتظاهر أمامه بالتجلد، غير أنه كان يعرف أن تأويله ذلك كان ضعيفا.

للحظات حسد محمود على ما هو فيه، هاهو والده يرحل مخلفا له ولإخوته الكثير من الأموال التي كان بها شحيحا، ما أغناه الآن عن التغرب والعمل فيما لا يليق به.

وها هو الآن قد أصبح من أرباب المال، فقد مات والده وخلف وراءه عمارتين والكثير من الأموال في البنك، ولا وريث له سوى محمود وشقيقيه وأمه.

ولأنه أكبر إخوته فسيكون كل شيء تحت إمرتهِ.

وأما هو فقد رحل والده مخلفا لهم الفقر القائم، والهم الدائم.

بعد أن أجرى اتصاله بمنصور ومحمود ذهب إلى الغرفة كي ينام حتى يبدأ عمله من الغد بنشاط وهمة.

في الصباح استيقظ باكرا لأجل العمل، حتى أنه قام من نومه قبل أن يستيقظ إسماعيل، توضأ وصلى الصبح، ثم خرج يتأمل الشمس ساعة شروقها لحين استيقاظه من نومه.

وعندما استيقظ سأله عن العمل الذي سيقوم به.

فقال له:

ـــ سأتصل بصاحب المزرعة أولا كي أخبره بأنك سوف تعمل معنا، فنحن هنا فريق مكون من أربعة أشخاص نقوم على هذه المزرعة التي تراها، وعلى الاعتناء بها، وذلك بزراعتها وحراستها ورعي الأغنام فيها، والمزرعة بحاجة إلى ستة أشخاص على الأقل، لأننا نتناوب العمل فيها، وقد كلفني منذ بضعة أسابيع بالبحث عن شخص أو اثنين كي ينضموا إلينا.

فقال له وهو يستنكر كلامه:

ـــ ولكني لا أعرف شيئا عن الزراعة، فلم يسبق لي في حياتي أني أمسكت فأسا!

ـــ لا تقلق، سأعلمك كل شيء، ثم لا تنس أننا معك ولن نتركك وحدك.

لأنه لا بديل فقد قبل بأن يعمل معهم.

وبالفعل قام إسماعيل بالاتصال بصاحب المزرعة، فأخبره بأنه لا مانع عنده في ذلك، ولكن عليه أن يقابله في أقرب وقت حتى يتأكد بنفسه من قدرته على العمل معهم، ثم طلب منه أن يجلبه معه إلى بيته بعد أسبوع من أجل رؤيته.

بدا خالد متخوفا من تلك المقابلة، لأنه كان على يقين من رسوبه في أي اختبار في شؤون الزراعة أو الرعي، ولكن إسماعيل طمأنه بأن صاحب المزرعة لا يعنيه أي شيء سوى سلامة البنية الجسدية عند من يعملون في المزرعة.

كان الراتب الشهري في المزرعة للجميع ألفي ريال، عدا إسماعيل كان راتبه ثلاثة آلاف، حيث كان أقدم العاملين.

بالرغم من أن العمل في تلك المزرعة لم يكن بالسهل، إضافة إلى أن الراتب الشهري فيها لم يكن مغريا، إلا أن خالد قرر العمل فيها بحماس وجدٍّ من اليوم الأول، ورأى فيها بصيص الأمل الذي كان يبحث عنه.

ومع كونه قد سقطت من على كاهليه في عمله الجديد عقبة إيجار السكن، وشراء الطعام، لأن كل ذلك كان يتكفل به صاحب المزرعة، إلا أنه كان على يقين بأن مدة إقامته ستكون على أقل تقدير عامين لا عاما واحدا، حتى يتسنى له ادخار المبلغ المناسب.

بدأ العمل من ذلك اليوم، وكان إسماعيل يعلمه بمنتهى الرفق، وإذا عجز عن شيء لم يعنفه ولم ينفعل عليه، وإنما يقوم به بدلا عنه، كان يشعر منذ اليوم الأول الذي ذهب فيه إليه بأنه مع أخيه لا مع شخص لم يتعرف عليه إلا منذ ثلاثة أشهر على متن باخرة.

وفي مساء اليوم الثاني من وجوده في المزرعة ورده اتصال من منصور، استغرب من ذلك الاتصال، فلم يحدث منذ قدومه أن اتصل به منصور، وإنما هو الذي كان يتصل به.

وأيضا لم يكن يعرف ما الداعي لهذا الاتصال وقد اتصل هو به في الأمس القريب.

قام بالرد عليه مبتدأ كلامه بالسلام كعادتهِ، ولكن لا أحد يرد، لم يكن يسمع منه شيئا غير البكاء.

فقال له وقد تملكه الرعب:

ـــ ما الأمر يا منصور.. لماذا تبكي؟

لم يرد عليه سوى بمزيد من البكاء.

فقال له وقد ارتفع صوته:

ــ منصور ما الأمر؟ هل ابنتَيك بخير؟

قال له وهو يجهش بالبكاء:

ــ لقد ماتت زينب يا خالد، ماتت أختنا.

قال وهو يصرخ فيه:

ــ ما هذا الذي تقوله!

لا يمكن أن تموت، كيف تموت وأنا بعيد عنها. لا تقل هذا يا منصور لا يمكن أن يحدث هذا.

لا بد وأنها بجوارك أعطها الهاتف كي أسلم عليها، فأنا لم أكلمها منذ خمسة عشر يوما.

حاول منصور أن يهدأ نفسه ويستجمع قواه، ثم قال له:

ــ لقد سقطت منذ ثلاثة أيام على رأسها من الخلف فأصيبت بارتجاج في المخ، نقلناها إلى المشفى، فبقيت هناك طوال الثلاثة أيام، كنت معها ولم أفارقها ساعة واحدة ولكنهم لم يكونوا يسمحون لي بالدخول عليها.

لم يدخلوني عليها إلا الآن.

ثم علا صوته بالبكاء وهو يقول له:

لم يدخلوني إلا الآن يا خالد، هل تعرف لماذا؟ لأنها ماتت الآن.

لم يتمالك خالد نفسه من البكاء، فأغلق معه وهو مستمر في بكائه وصراخه حتى أقبل عليه إسماعيل وهو على تلك الحالة فسأله :

ـــ ما الذي جرى؟ هل حدث مكروه لأحد من أهلك؟

فقال له وهو يبكي كالأطفال:

ـــ لقد ماتت أختي يا إسماعيل، ماتت زينب.

ماتت أمي الثانية، أنا الذي قتلتها، ما كان لي أن أسافر وأتركها وحيدة.

ثم أخذ يصرخ وهو يقول:

ـــ سامحيني يا أمي، لقد أضعت وصيتك وقتلت زينب، لم أكن أمينا على وصيتكِ يا أمي، لم أكن أهلا لثقتك.

المسكينة ظلت تقول لي لا تسافر يا خالد، لا تتركني وحدي، ولكني لم أبالي لكلماتها ولا لتوسلها.

وكأنها كانت تعرف أنها ستموت وأنا في الغربة، هي التي قالت لي قد ترجع فلا تجدني إلا بجوار أمك، كانت على موعد مع الموت ولم تخبرني.

مؤكد أنها ماتت وهي غاضبة مني.

لا بد وأنها ستشكوني لأمي.

فقال له إسماعيل في محاولة منه لأن يواسيه وأن يخرجه من تلك الحالة التي كادت تذهب بعقله:

ـــ هل تظن أنك لو كنت بجوارها ما كانت لتموت؟

ـــ على الأقل كنت سأراها، كنت سأودعها، كنت سأطلب منها أن تسامحني، وأتوسل إليها أن تغفر لي تقصيري نحوها.

ـــ وما أدراك أنها غاضبة منك؟

ـــ حتى وإن لم تكن غاضبة مني، فقد قصرت في حقها، ما كان لها في الدنيا بعد أمي أحد غيري، وما كان علي أن أسافر وأتركها وحيدة.

لم أعرف أن قلبي أقسى من الحجر إلا اليوم.

لا بد وأنها كانت تعاني في غيابي، وها أنا أعاني في غيابها مثل ما عانت، وهذا هو العقاب العادل من الله.

آه لو أملك الآن مالا كافيا لعودتي في أول طائرة تسافر إلى مصر، تبا للفقر، كم ضجرت منه، هو الذي أتى بي إلى هنا، وهو الذي باعد بيني وبين أختي، وهو الذي يحول الآن بيني وبين وداعها، لا أستطيع حتى أن أصلي عليها، أو أشهد جنازتها وأحمل نعشها على كتفي.

تبا للغربة، تبا للفقر، تبا لكل شيء.

لم يتمالك إسماعيل نفسه فبكى لبكائه ولحرارة كلماته التي خرجت من أعماق قلبه المتصدع لوفاة أخته، ثم أخذه في حضنه وضمه إليه وهو يقول له:

ـــ قد وقع قضاء الله وليس لرده حيلة، فاصبر وتجلد وكن رجلا يا صديقي.

****

أقبل عيد الأضحى محملا بالفرحة والسرور، ولكنه لم يكن بالنسبة إليه كذلك، كان يسمع كثيرا عن آلام المغترب في غربته، لكنه لم يكن يعلم بأن أكبر آلامه تكون في أكثر الأوقات هناء وسرورا للآخرين.

أن تكون مغتربا يعني أن تكون مع الأيام كالمصاب بعمى الألوان مع ألوانه، لا فرق بين أصفر أو أحمر، وأنت لا فرق عندك بين يوم عيد أو يوم كسائر الأيام.

ها هو العيد يقبل عليه بوجه غير الذي يعرفه، أو ربما هو الذي لم تكن عنده الرغبة في التعرف عليه.

قطرة حزن واحدة كفيلة بأن تفسد يوما حافلا بالعديد من الأشياء الجالبة للسعادة، فكيف بسيول من الأحزان!

سبعة أشهر مروا عليه في غربته، لم يكن في هذه الشهور شيئا مختلفا أو جديدا، كل الأيام قد تشابهت عليه، فيومه كأمسه، وأمسه كغده، لا يوجد أي يوم يخالف اليوم الذي قبله أو الذي بعده في كثير أو قليل.

يستيقظ من نومه في الصباح الباكر، يباشر أعمال المزرعة مع إسماعيل وباقي المزارعين حتى قبيل العصر، وفي المساء يجلس وحيدا مع الليل حتى ساعة متأخرة منه.

ومع أن إسماعيل تعب من كثرة ما حذره من السهر لأنه يستيقظ باكرا وليس مفيدا له أن يعتاد ذلك السهر إلا أنه لم يكن يهتم لما يقوله له.

كان يجد في الليل متعة يرى أن من الحماقة أن يفوتها على نفسه بالنوم.

اعتاد في كل عيد على أن يستيقظ مع الفجر، فيذهب للصلاة ثم يجلس في مصلاه حتى صلاة العيد، وبعد ذلك يرجع فيسلم على أمه وهو يقبل يدها ويهنئها بالعيد، ثم يسلم على زينب ومنصور، وبعد ذلك يرتدي أجمل ثيابه تأهبا للخروج ليقضي باقي اليوم مع محمود.

لكن ما الفرق الآن بين عيد الأضحى وعيد الفطر الذي ولَّى منذ قرابة السبعين يوما!

فهو في عيد الفطر لم يخرج طوال يومه من البيت الذي يقيم فيه داخل المزرعة، بل لم يغادر الغرفة التي ينام فيها مع إسماعيل.

كان يحلو له أن يردد مع المتنبي قوله:

عيدٌ بأيـــة حالٍ عـــــدت يا عـــــيـــدُ

بما مَضَـــــــى أم لأمرٍ فيك تجديدُ

أما الأحبة فالـــبـــيداءُ دُوْنَـــهُـــــــمُ

فـــلـــيتَ دونَكَ بِيداً دونَهـــــا بِيـــــدُ

كان المتنبي بعيدا عن أحبته، أما هو فقد ابتعد عنه أحبته، ذهبوا إلى حيث لا عودة ولا لقاء.

كان عيد الفطر الذي مضى عليه شهرين وعشرة أيام هو أول عيد يحطم له الأرقام القياسية في أنه الأول.

فكان أول عيد يمر عليه في غربته، وأول عيد يمر عليه بعد وفاة أمه وأخته، وأول عيد يمر عليه بعيدا عن فاتن منذ عرفها، وأول عيد تداعب الدموع فيه عينيه، وأول عيد لا يصلي فيه صلاة العيد.

لم يكن شهر رمضان يختلف عن العيد كثيرا في كل هذه المشاعر الحزينة.

ربما العمرة التي قام بها في رمضان هي التي هونت عليه شيئا مما به.

كان قد عزم منذ قدومه إلى المملكة أن يزور بيت الله الحرام في أقرب مناسبة تتيح له ذلك، ومع أن الأمر لم يكن سهلا إلا أنه قد قرر ذلك.

كان لقاؤه بصاحب المزرعة الذي انتقلت كفالته إليه فاتحة خير عليه لم يكن يحلم بها، فحين ذهب إلى لقائه كما طلب سأله عن دراسته و عن سبب سفره فأخبره بكل شيء، فرأى فيه الثقافة العالية، والذكاء المشتعل، فأسند إليه مع عمله في المزرعة مهمة الاعتناء بدروس أبنائه، ومذاكرته لهم.

لم يتردد في قبول ذلك، كانت هدية من الله تعالى له، فقبلها وهو يحمده عليها بقلبه ولسانه.

كان يذاكر لهم دروسهم أربعة أيام من كل أسبوع، من بعد صلاة العصر وحتى صلاة المغرب، على أن يكون راتبه الشهري مقابل مذاكرته لهم ثلاثة آلاف ريال تضاف إلى الألفين اللذين يتحصل عليهما من عمله في المزرعة.

فاستطاع بذلك أن يبدأ في تسديد شيء من ديونه، وأن يقوم أيضا بأداء العمرة.

لم تكن هذه العمرة من أجل زيارة بيت الله الحرام الذي تهفو إليه القلوب والأرواح قدر ما كانت هدية ثمينة يقدمها في شهر رمضان المبارك لأمه وأخته.

اعتمر ثلاث عمرات، الأولى له، والثانية لأمه، والثالثة كانت لزينب.

بكى هناك ما لم يبكه في حياته، أخذ يتذكر أمنية أمه في زيارة بيت الله الحرام، ورؤية الكعبة المشرفة، ها هي أمه قد ماتت دون أن تحقق أمنيتها، وها هو قد حقق لها بعد أن ماتت جزءا من تلك الأمنية الغالية، عمرة قام بها بالنيابة عنها كما كانت تقوم هي بالعديد من الأشياء نيابة عنه.

ظل يدعو لها، ويطلب من الله أن يعفو عنها ويغفر لها، ثم أخذ يستغفر لزينب ويدعو لها، ويسأل الله أن يغفر له تقصيره نحوها.

كان يحب زينب ربما كحبه لأمه، لم تتوقف عبراته وهو يعتمر عنها ويدعو لها.

لم تفارق صورتها مخيلته لحظة واحدة، كان يتمنى أن لو رآها قبل أن توسد التراب بجوار أمها، أو على الأقل يشهد جنازتها، لم يكن ضميره يكف عن تأنيبه له بشأنها كلما تذكرها، وما أكثر ما كان يتذكرها.

كانت زينب توأم روحه، وأمه الثانية، وابنته الصغيرة، لكي ينسى العديد من أعبائه كان يكفيه أن ينظر إلى بسمتها حين تبتسم.

لذلك لم يكن يحزنه شيء أكثر من تذكره لموتها المفاجئ.

لم يكن حاله في عيد الأضحى يختلف في كثير أو قليل عن حاله في عيد الفطر.

اتصل هاتفيا بأخيه منصور فسلم عليه وعلى علياء، وتبادل معهما التهاني بالعيد، كانت كلماته تخرج من جوفه بشق الأنفس، لم تكن عنده الرغبة في ذلك اليوم أن يتحدث مع أي أحد، ولا حتى مع منصور، ولكن كان عليه أن يكلمه، لاسيما وأن له قرابة الأسبوعين لم يتصل به.

وبعد مكالمة ثقيلة وبعض الكلمات الباردة مع منصور طلب منه أن يقبل له ابنتيه جهاد وجميلة.

كانت جهاد وجميلة قد أتمتا في ذلك الوقت العامين تقريبا، وكانوا يتمتمون ببعض الكلمات القليلة مثل أبي وأمي، وفي أول مرة لفظت جهاد كلمة (عمي) له عبر الهاتف،كانت تنطقها (أم) بفتح الهمز وحذف الياء.

كان يعلم أن منصور دربها على النطق بها، أو ربما علياء هي التي فعلت ذلك.

فلا بد وأنه قد أصبح مقبولا عندها منذ أرسل لهم بعد وفاة زينب ألفي ريال كان قد اقترضهم من إسماعيل لكي تعينهم على نفقات جنازة زينب ودفنها، ثم أردف الألفي ريال بألفين آخرين بعد شهرين من وفاتها.

وقبيل صلاة الظهر من يوم العيد قرر الاتصال بفاتن، مع أنه لم تكن عنده الرغبة لأن يفعل، كان مهموما في ذلك العيد بالقدر الذي يجعله يفضل الصمت والوحدة، ولكنه كان يعلم أنها على الأرجح ستحزن كثيرا، بل ربما تغرق في البكاء إن تجاهل الاتصال بها في ذلك اليوم.

ما أن اتصل بها حتى غرقت في بكاء متواصل، ظن أنها تبكي من أجل أنه تأخر عليها في الاتصال، ولم يتصل بها باكرا كما فعل يوم عيد الفطر.

ولكنه وبعد أن هدأت قليلا عرف أن هناك من تقدم لخطبتها من والدها، وأن والدها وأخويها مصممين على ارتباطها به.

عرف منها أنها قد استنفذت جميع الحيل في رفضها لكل من تقدموا لخطبتها على مدار عام كامل.

كانت تجد في كل واحد منهم شيئا تتذرع به لكي ترفض، أما هذا الذي تقدم لخطبتها هذه المرة فهو من وجهة نظرهم جميعا لا يوجد فيه عيب واحد.

فقال لها على الفور:

ـــ من المؤكد أنه غني، فلا يوجد إنسان في الدنيا بلا عيوب، ولكن المال يسدل على العيوب ستائره فلا تُرى، ويلقي على الأعين تعاويذه فيصيبها بالعمى عن كل نقص.

فقالت له وهي تجهش بالبكاء:

ـــ يقولون أنه غني، ولكن مالي أنا ولغناه أو فقره.

عليك أن تفعل أي شيء يا خالد، لا يمكنني أن أرفض مجددا، لا أجد فيه عيبا واحدا أتذرع به لرفضه، ولو رفضت الآن هكذا بلا سبب يقنعهم فسيرتابون في أمري، ولا أظنك تحب لي أن أكون موضع ريبة أو شك.

أبي يقول لي: الناس يتساءلون عن سبب رفضك لكل من يتقدمون لخطبتك، أما كليتك فقد انتهيت منها منذ عدة أشهر، وأما البيت فلا يوجد فيه ما يمنع زواجك.

لابد وأن تتصرف يا خالد.

كان هذا الذي يسمعه منها هما جديدا يضاف إلى سلسلة همومه.

قال لها مغتما:

ـــ وماذا بيدي فعله؟

فأنا حتى لا أملك المال الكافي لتسديد النقود التي اقترضها منصور من أجل سفري.

ـــ وماذا يعني هذا يا خالد.. هل ستتركني أضيع من يدك؟

ـــ لن أسمح بهذا أبدا، ولكن أي شيء في يدي يمكنني فعله؟ كل شيء بيدك أنت، ولا أظنهم سيرغمونك على الزواج من شخص لا ترغبين في زواجك منه.

ـــ كلا يا خالد، قد يفعلون ذلك، وأنا لا ألومهم إن فعلوا، فأخي يكبرني بثلاثة أعوام، وهو إلى الآن لم يتزوج كما تعلم، تعرف لماذا؟

لأن أبي يرفض فكرة زواجه قبل أن أتزوج أنا، لذلك فالجميع دائما ما يلحون علي في الزواج.

اسمع يا خالد:

أنا لا أطلب منك أن نتزوج الآن، فأنا أعرف ظروفك جيدا، ولست قاسية حتى أحملك فوق طاقتك، ولكن ما رأيك في أن تتقدم لخطبتي الآن؟ من جانبي فسأفعل المستحيل لكي أجعلهم يوافقون على هذه الخطبة، كل ما عليك هو أن تأخذ هذه الخطوة.

ولكن أستحلفك بالله أن تعجل في أخذها قبل أن يعطي أبي لذلك الشخص وعدا، وساعتها فسيكون كل شيء قد ضاع.

أغلق معها وقد وعدها أن يفكر في إيجاد أي حل للأمر من غير أن يبدي لفكرتها هذه رفضا أو موافقة.

كان هذا الأمر بالنسبة إليه قاصمة ظهر، لم يكن له من أمل في الحياة غير فاتن، وها هو يجدها تتفلت من بين يديه، وكالعادة فإنه لا يملك من أمره شيئا.

جلس حزينا في يوم العيد الذي يبتهج فيه كل الناس حتى هجم الليل على النهار ووضع أعلامه في كل مكان، وخرج كعادته إلى المزرعة، جلس وحيدا في عتمة الليل يفكر في أي حيلة أو مخرج يستبقي به حبيبته قبل أن يفقدها.

لم يجد أي حيلة أو مخرج غير أن يتقدم لخطبتها من أبيها، كان يعلم أن في الأمر مجازفة كبيرة، ولكنه كان يعلم أيضا أنه لا خيار أمامه لكي يلجأ إليه.

كل الذي كان يعنيه ساعتها هو كيفية إقناع منصور بالأمر، وكيفية مفاتحته فيه.

لم يكن قد مضى على موت زينب غير قرابة الأربعة أشهر، لم تكن هذه هي العقبة، أو بمعنى أدق لم تكن العقبة الوحيدة.

ولكن العقبة الحقيقية هي كيف يقنعه بأنه يريد أن يخطب الآن، لم تكن هناك أي مقومات معه تشجعه على مفاتحته في الأمر.

ومع ذلك فقد قرر أن يكلمه في شأن خطبته وأن يقنعه بها، كان يعلم أن أصعب ما يواجهه الآن هو أيسر ما في الموضوع، إذ أن هناك ما هو أصعب من إقناع منصور، وهو إقناع والد فاتن.

فمع ما قالته له من أنها ستفعل ما تقدر عليه لجعلهم يوافقون إلا أنه لم يكن مطمئنا.

ربما لو أنه تقدم وحده لخطبتها لكان قلبه مطمئنا نوعا ما، ولكن الإشكالية الآن تكمن في أنه سيتقدم لها وهناك من سبقه بالتقدم، ومن المتوقع، بل من المؤكد أنه سيوضع في مقارنة معه، وأي مقارنات ستتم بينه وبين غيره فقطعا لن تكون في صالحه.

بعد روية وتفكير قرر أن يأخذ الخطوة ويتقدم إليها، إذ وضعه المادي الآن قد أصبح جيدا، بل ممتازا مقارنة بحاله قبل ذلك، وأيضا مقارنة بأي شاب في مثل سنه وظروفه.

كان راتبه الشهري خمسة آلاف ريال، مما يعني أنه بعد فترة ليست بالكبيرة سيتمكن من القضاء على جميع ديونه، وادخار المبلغ المناسب الذي يؤهله للزواج.

اتصل بمنصور مرة أخرى في نفس اليوم وأخبره بحبه لفاتن، وأنه كان قد وعدها أن يتزوجها بعد عودته من السفر، ولكنه الآن إن لم يقم بخطوة عملية الآن فربما يفقدها، ولأن منصور لم يعد له في الدنيا سوى خالد الذي كان يعتبره بمثابة ابنه فقد وافقه على ما أراد، بالرغم من عدم اقتناعه بالخطوة، ثم أخذ منه العنوان ووعده أن يذهب في مساء اليوم التالي إلى والد فاتن ليطلب منه خطبتها له.

وعقب إغلاقه معه الهاتف قام بالاتصال مرة أخرى بفاتن فقال لها:

ــ أريدكِ أن تكوني غدا في أجمل زينتكِ، فقد وعدت أخي منصور أن يرى غدا قمرين في وقت واحد، أحدهما في السماء والآخر في بيتكم.

لم تصدق نفسها حين سمعت منه تلك الكلمات، فقالت له وكأنها تستوثق من صحة ما فهمت:

ــ ماذا تقصد يا خالد، هل سيأتي منصور غدا عندنا في المترل؟

ــ ليس منصور هو الذي سيأتي، وإنما شقيق زوجكِ. إن شاء الله سوف يأتي إليكم في مساء الغد لكي يطلب يدك من والدكِ.

فقالت له وهي تشعر بسعادة غامرة:

ـــ سيطلب يدي فقط، ألا تريد مني شيئا غير ذلك؟

ـــ بلى، أريد بالتأكيد، ولكني أريد يدكِ أولا، فهي التي ستبلغني الباقي يا مشاكسة.

كانت تستمتع بكلماته كثيرا فتعمدت أن تسترسل معه في الحديث فقالت له:

ـــ وما الباقي؟

فهم ما ترمي إليه، فقال لها على الفور:

ـــ ألا تعرفيه؟

ـــ بلى أعرفه جيدا، ولكني أريد سماعه منك.

ـــ لكني لا أتوقف عن قوله، أيعقل أنك لم تستمعي إلي وأنا أثرثر به!

ـــ أيها المحتال، لم تقل أي شيء مطلقا!

ـــ بلى، قلت مرارا، ولكني لم ألفظه بلساني.

ـــ بأي شيء لفظته إذن؟

ـــ بقلبي الذي تسكنين بداخله.

ـــ لكني لم أسمع شيئا من ذلك.

ـــ حقا؟ لكني سمعتُ منكِ كلمات كثيرة لم ينطق بها غير قلبك.

فقالت له وقد ارتفع صوتها فجأة وهي تحاول أن تخفي خجلها:

ـــ ويحك، وماذا سمعت مني؟

ـــ سمعتكِ وأنت تقولين لي:

شوقي إليك يقتلني، وحنيني يغلبني، ودموعي تارة تسعفني وتارات أراها تخذلني، وما بين الشوق والحنين، واللهفة والأنين، تمر أيامي مخضبة بالسواد كأنها في حداد على سعادتي التي ماتت منذ رحيلك عني.

فقالت له وقد غلبها الخجل الذي تجلى في نبرة صوتها ولم تستطع إخفاءه:

ـــ ويحك يا خالد، أنا لم أنطق بحرف واحد من ذلك الذي تقوله.

ـــ ولكن قلبكِ فعل.

ـــ لست مسؤولة عنه ولا عما ينطق به، فلو كان لي عليه سلطان لما سمحت لك بأن تسكنه أيها المحتال.

ـــ إذن فأنت تعترفين بأنه قد قال ذلك الكلام؟

صمتت قليلا ثم قالت:

ـــ بل أعترف بأنه قال ذلك وأكثر من ذلك بكثير، ولكن مثلي لا يذاع له سر.

أنهى معها المكالمة وقد كان يريد أن يسترسل فيها أكثر من ذلك، ولكنه كان يعلم أن هاتفه لن يسمح له بالمزيد من الثرثرة عن الحب والمشاعر وقد أوشك الرصيد على النفاد.

لم يعرف النوم لعينيه طريقا في هذه الليلة، كان ينتظر رد والدها على منصور في شأن خطبته وكأنه متهم في قضية قتل وينتظر حكم القاضي عليه بالبراءة أو الإعدام.

وفي أثناء هذه المشاعرة المتناقضة من السعادة والحزن، والخوف والرجاء، واليأس والأمل، ورده اتصال من صديقه سعيد يخبره فيه بأنهم قد اتفقوا في الشقة على أن يجتمعوا كلهم في الغد كي يحتفلوا بالعيد، وأخبره أن عليه أن يحضر لأن الاحتفال سيضم العديد من المصريين وبعضهم من زملاء الدراسة الموجودين في السعودية.

تردد في الذهاب إلى هناك حيث كانت المسافة بينه وبين سعيد تستغرق منه سفرا يصل إلى قرابة العشر ساعات.

ولكنه رأى أنه بحاجة إلى أن يذهب إلى هناك كي يلتقي بهم ويشعر بأنه في أيام عيد، بدلا من تلك الوحدة والكآبة التي يعيش فيها.

ومما شجعه على الذهاب إلى هناك رغبته في أداء عمرة مرة أخرى حيث كانوا قريبن من بيت الله الحرام، ولم يكن بينهم وبينه غير ساعة واحدة في السيارة.

استأذن إسماعيل في أن يتغيب عنه ثلاثة أيام يقضيها مع أصدقائه الذين سكن معهم في أول عهده بالمملكة، فقال له كيف تفعل ذلك يا خالد؟ أليسوا هم من اتهموك بالسرقة!

فقال له:

ـــ لكنهم اعتذروا مني، وتوسلوا إلي كي أبقى معهم بمجرد أن تيقنوا براءتي، أنا لا ألومهم يا إسماعيل على اتهامهم لي، ربما لو كنت مكانهم لفعلت ذلك، وعلى أي حال فقد سامحتهم، ثم إنك تعرف أن سعيد يتصل بي بشكل دائم ويحب

أن يعرف جميع أخباري وأحوالي، وأنا أشكر له هذا الاهتمام، فكيف لا ألبي دعوته تلك، كما أنني سأستغل الأمر وأقوم بأداء عمرة لي وعمرتين لأمي وأختي.

ـــ زادك الله برا بأمك وأختك يا خالد، ولكن إياك أن تتأخر عن الثلاثة أيام،وإلا سأقتلك، فأنت تعرف أن أعباء المزرعة ثقيلة، وتزداد ثقلا إذا تخلف واحد منا.

ـــ لا تقلق، ثلاثة أيام ولن أزيد إن شاء الله.

ـــ متى ستذهب؟

ـــ سوف أنطلق مع الفجر إن شاء الله.

ـــ تصحبك السلامة، والآن هيا بنا لننام، قد تأخر الوقت، وعندك سفر في الصباح الباكر.

****

وصل خالد إلى الشقة التي يسكن فيها سعيد وسائر أصدقائه عقب صلاة الظهر مباشرة، أول ما دخل عليهم استقبلوه جميعا بالمعانقة، حتى بعض من لم يكن يعرفهم وكان يراهم هناك لأول مرة من أصدقائهم عانقوه.

في صقيع الغربة تتوق نفسك لأن تلامس أي شيء يحمل عبق الوطن، لذلك فإن عثورك على شخص من وطنك كفيل بأن يبعث في نفسك الكثير من البهجة، وما هو إلا أن تحتضنه حتى تشعر بدفئ ذا مذاق خاص معتق بنكهة الوطن يجتاح كيانك.

جلس معهم بعض الدقائق، وبعدها قام فتوضأ وصلى الظهر، ثم عاد إليهم فوجد وليمة كبيرة عليها من الطعام ما تلذ برؤيته العيون وبالتهامه البطون.

كان احتفالا على طريقة أثرياء الخليج.

كان يعلم أن مائدة كهذه لا تقل تكلفتها عن سبعة آلاف ريال على أقل تقدير، حيث كانت محملة بأصناف الطعام المختلفة واللحوم الكثيرة المشوية وغير المشوية، مع العديد من المشروبات الغازية التي انتشرت في جميع زوايا المائدة ووسطها انتشار النجوم في السماء.

وبالقرب من تلك المائدة الكبيرة مائدة أخرى صغيرة مجهزة بشتى أنواع الفاكهة، لم تتخلف عنها فاكهة واحدة من فواكه الصيف أو الشتاء.

قال لهم على الفور:

ـــ ويحكم، ما كل هذا الطعام وتلك الفاكهة؟ هل استوليتم على خزانة الملك أم أمطرت السماء عليكم ذهبا وفضة!

قال له سعيد:

ـــ هل نسيت يا خالد أننا في عيد الأضحى، ولحم الأضاحي في المملكة أيام العيد كالتمر في المدينة أثناء شهر رمضان.

ـــ ولكن من سيأكل كل هذا؟ فهذا الطعام يحتاج إلى مائة من الرجال الأشداء، ولست أرى هنا غير خمسة عشر شخصا وأنا من جملتهم.

فقال له أحدهم ممازحا له:

ــ ربما كنت محقا في كونه يحتاج إلى مائة شخص من الرجال الأشداء، ولكن برأيك إلى كم شخص من المصريين يحتاج؟ أظن المعايير ستختلف الآن، أليس كذلك؟

قال له:

ــ أتفق معك في أن المصريين يحبون الأكل ويقدرونه، ولكن ليس إلى هذه الدرجة التي تشير إليها تلك المائدة التي تكاد أرجلها تتحطم من ثقل ما عليها.

وكأني بها الآن تناشدكم الله والرحم أن تعينوها وتحملوا عنها في بطونكم شيئا مما تحمله على ظهرها قبل أن يكون الهلاك مصيرها.

أعجبتهم دعابة خالد فضحكوا جميعا حتى أحدثوا بالضحك ضجيجا.

فقال سعيد:

ــ دعونا الآن من الثرثرة وهيا اجلسوا للطعام.

فقال له خالد:

ــ أحسنت يا سعيد، لذلك يقولون:

إذا وضع الطعام غاب الكلام.

فقال له:

ـــ حكمة جميلة، أظن أن الذي قالها رجل ذواقة.

قال له:

ـــ أو ربما ذا شهية جيدة.

بعد أن انتهوا من تناول الطعام جلسوا يسترجعون ذكرياهم، ويتبادلون الدعابات وهم يأكلون الفاكهة.

كانوا مستمتعين بالحديث كثيرا، ولكنه كان شاردا عنهم بشأن خطبته من فاتن، كلما تقدمت الساعة كلما ازداد قلبه خفقانا.

كانت من أكبر الأشياء التي دعته إلى تلبية دعوة سعيد أن يشغل نفسه عن التفكير الزائد في شأن خطبته والذي بدأ يعكر عليه صفو العيد الذي يهنأ فيه كل الناس، ومع هذا فلم ينشغل لا بالأكل ولا باجتماع الأصدقاء عن تفكيره في الأمر.

كان عنده خوف من أن يتم رفضه من قبل والدها لأن هناك من تقدم لها معه وهو أفضل منه حالا من وجهة نظر والدها.

ولكن ما كان يطمئنه هو أن فاتن وعدته بأن تفعل ما بوسعها، فحتى لو تم رفضه من قبل والدها، فسترفض هي ذلك الشخص الآخر، ومن ثم يتقدم لها مرة أخرى وهو في وضع أفضل، فلا يملك والدها إلا أن يوافق.

لاحظ سعيد شروده عن الجميع وإسهابه في الصمت، فسأله:

ــ ما بك؟

وأجابه أنه لا شيء فقط تذكر أمرا ما.

وفي مساء تلك الليلة كاد قلبه من شدة دقاته أن يوقظ النائم ويزعج المستيقظ، كان يعرف أن منصور على الأرجح يجلس مع والد فاتن في هذه اللحظات، تمنى أن يمضي الوقت سريعا حتى يتصل به منصور كما قال له ويخبره بجميع تفاصيل تلك المقابلة.

في ذلك الوقت قرر أن يخرج إلى الحديقة المجاورة للشقة التي يسكن فيها سعيد ومن معه.

سأله سعيد:

ــ إلى أين ستذهب؟ فأخبره أنه سيخرج قليلا في الهواء الطلق.

فقال له:

ــ انتظر دقيقتين سأرتدي ثيابي وأخرج معك.

وفي الحديقة سأله سعيد:

ــ ما بك يا خالد، أشعر أن هناك ما يشغل فكرك، أخبرني ما بك، فربما وجدت عندي دواء علتك.

كان سعيد على علم بأن خالد يحب فتاة اسمها فاتن، ولكنه لم يكن يعرفها، وكان على علم بأنه ينوي الارتباط بها بعد عودته إلى مصر، وكثيرا ما كان يسأله عنها وعن أخباره معها كلما اتصل به وهو في تلك المزرعة.

لذلك قام بإخباره بأن هناك من تقدم لها، وأنه طلب من منصور أن يتقدم لخطبته منها اليوم، ثم أخبره بأن ذلك الأمر هو الذي يجعله الآن في غاية القلق والتوتر.

فقال له سعيد:

ـــ يا لك من وغد يا خالد، كيف لك أن تقوم بأخذ هذه الخطوة من غير أن تخبرني؟ هل هذا هو حق الصداقة التي بيننا.

أجابه وقد بدا عليه الغضب:

ـــ ما بك يا سعيد؟ وهل حدث أي شيء بعد لكي أخبرك به، هل رأيتني تزوجت منها، أو حتى خطبتها؟

غاية ما في الأمر أنني سأتقدم اليوم لخطبتها، والله أعلم بالعاقبة ما تكون.

ـــ حسنا، لا تقلق، إن شاء الله ييسر الله لك الأمور، ثم إنك تملك جميع المقومات التي تؤهلك لأن تفوز بها دون غيرك، فأنت تعمل عملا تتقاضى عليه راتبا جيدا، والفتاة تحبك، وستناصرك وتقف بجانبك.

فلا أرى أي داع لهذا القلق، وأما عن هذا الذي تقدم لخطبتها فستقوم هي برفضه بمنتهى السهولة، فلا أحد الآن بإمكانه أن يغصب أي فتاة على أن تتزوج من شخص لا ترغب في الزواج منه لو كان وزيرا، فكيف بها وهي فتاة متعلمة وجامعية، وفوق ذلك فهي وحيدة والدها مما يعني أن أحدا لن يغضبها.

كانت هذه الكلمات من سعيد كمسكن لكثير من قلقه وتوتره، فشكره كثيرا على أنه أسعفه بها، وبينما يواصل حديثه معه إذ بمنصور يتصل به فشعر باضطراب شديد لم يعرف له سببا غير رهبته من هذه المكالمة التي كان ينتظرها انتظار الصائم أذان المغرب في يوم شديد الحرارة.

فقام هو بالاتصال به ومن غير أن يبدأه بالسلام أو غيره قال له:

ــ ما الأخبار يا منصور.. هل كل شيء على ما يرام؟ يكاد قلبي يتوقف وأنت تتأخر علي كل هذا! سامحك الله.

ــ لا أدري لم كل هذا يا خالد، قد ذهبت أنا وعلياء إلى أهل الفتاة، وجلست مع والدها، وطلبتها منه لكي تكون زوجة لك، ولم أرَ من الرجل إلا البِشر والقبول، حتى أنه جعلها تقدم لنا الشاي بنفسها، ثم جلست معنا بعض الوقت.

ثم ضحك وهو يقول له:

ــ وقد أحسنت الاختيار، فالفتاة في غاية الجمال، ومن شدة حيائها لم تتكلم معنا غير بعض الكلمات القليلة ووجها مصوب نحو الأرض.

فقال له:

ــ وبماذا شعرت من طريقة كلام والدها، هل رأيت فيها القبول؟

ــ يا خالد لا تقلق، صدقني ستكون الفتاة لك، فقد استقبلنا والدها بحفاوة كبيرة، وقال لي بأنه سيرد علينا بعد أسبوع بعد أن يسأل عنك وعن البيت.

وبالنسبة للفتاة فكل شيء بيدها، ولأني رأيت منها قبولا كبيرا فيمكنني أن أبشرك بأنك بعد أسبوع واحد ستصبح خاطبا لها بشكل رسمي.

****

(الفصل الثامن)

يونيو ٢٠١٢م

في مساء ذات لهفة وحنين إلى الوطن الذي يظل محبوبا مهما كان قاسيا جلس خالد يرتب أغراضه لكي يعود إلى مصر بعد غياب امتد لعام وثلاثة أشهر.

كان يتابع الأحداث السياسية في مصر يوما بعد يوم، وكان يعرف أن الأوضاع فيها تنتقل في كل يوم من سيء إلى أسوأ، حتى أصاب الجميع شيء من اليأس، حتى أولئك المغتربين قد أصابهم اليأس بشيء من شظاياه.

بل ربما كانوا أشد حزنا من غيرهم على ما آلت إليه الأمور، وما تنذر به جميع المؤشرات، إذ هم أكثر من تضرروا بسبب سوء الأوضاع.

وأي ضرر أكبر من أن تلقي بنفسك داخل جوف الغربة الفاتكة.

وأي شيء يعوضه عن أجمل أيام حياته والتي التهمتها الغربة على حين غفلة منه أو يقظة.

أما الأموال فلا تغنيه وإن كثرت عن الذي ضاع منه، ولا تساوي ما أخذ منه.

فالغربة تأخذ أضعاف ما تعطي، تماما كأولئك المرابين المستغلين حاجة الناس.

فإن وهبت المال سلبت العمر، وإن مَنحت الراحة أخذت السعادة، وإن أمَّنت المستقبل كدَّرت الحاضر.

ها هو ينفض عن جسده غبار الغربة ليستقبل عبق الوطن بجسد نظيف وذاكرة مشوهة.

كان ينتظر منذ أول عهده بالسفر تلك اللحظة التي يعود فيها مرة أخرى إلى بلده لكي يرمي بنفسه داخل أحضان أخيه منصور.

كان يتوق إلى أن يستنشق رائحة عرقه وهو يضمه إليه ضمة قوية تعوضه عن الأيام التي مكث فيها بعيدا عنه.

كان منصور بالنسبة إليه هو وطنه الثاني، وشقيقه الأكبر، ووالده الراحل، وصديقه الوفي.

لذلك فلم يستكثر عليه وحده حقيبة خاصة به محملة بشتى أنواع الهدايا والثياب الغالية له هو وابنتيه جهاد وجميلة ومولوده الجديد.

لم تكن لسعادته حد حين اتصل به منصور وأخبره أن علياء قد أنجبت مولودا ذكرا، لا لأنه قد سمى مولوده الجديد (خالد) على اسمه فقط، ولكن لأنه أيضا كان يعلم أن منصور يتوق لتلك اللحظة التي ينجب فيها مولودا ذكرا.

كان يشعر في تلك اللحظات التي يرتب فيها حقائبه بسعادة وانتشاء لأنه قد وفق في سفره بشكل كبير، فقد جنى بعض الأموال التي لا بأس بها، والتي مكنته من أن يسد جميع الديون التي كانت عليه، وأيضا تمكن من ادخار المبلغ الذي يكفيه لأن يعجل بزواجه إن هو أراد الزواج.

وقد أحسن إليه أبوعدنان صاحب المزرعة التي كان يعمل فيها إحسانا كبيرا حين استدعاه في صباح ذلك اليوم إلى بيته كي يشرب معه فنجانا من القهوة قبل أن يرجع إلى مصر.

كان أبو عدنان يحب خالد كثيرا حيث رأى فيه الأمانة والصدق التي عدمها في أكثر المحيطين به، ورأى إخلاصه في عمله في المزرعة، وفي تدريسه لأبنائه.

استقبله أبوعدنا في بيته في صباح ذلك اليوم بحفاوة كبيرة، ثم أجلسه بجواره، لم يكن خالد يتكلم معه كثيرا في الغالب لأنه كان يهابه، كان برغم لينه وتواضعه ذا هيبة، ولم يكن يهابه لأنه صاحب الأموال الطائلة التي لا تعد كثرة، ولكن لأجل إحسانه الدائم إليه، وأيضا لأنه كان يكبره بقرابة الثلاثين عاما.

ابتدأ معه الكلام فقال له:

ـــ سنشتاق إليكَ كثيرا يا خالد، إياك أن تنسانا أيها المصري بعد أن تعود إلى أهلك.

فقال له:

ـــ وهل هذا يعقل! واللهِ لقد فعلت معي ما لم يفعله بعض أصدقائي، ثم ابتسم وهو يقول له:

ـــ ألم تسمع قول المتنبي إذ يقول: ومن رأى الإحسان قيدا تقيدا

ـــ أنت تستحق كل خير يا خالد، أكثر الله من أمثالك يا ولدي، والله لكم أتمنى أن يكون في أبنائي من هو جدير بالثقة وتحمل المسؤلية مثلك.

لن أثقل عليك، فأنا أعرف أنك اليوم كثير الانشغال بسبب تجهيزك لسفرك غدا، ولكني استدعيتك فقط كي أودعك وأعطيك بنفسي هذا المبلغ.

ثم ناوله ظرفا وهو يقول له:

ـــ خذ يا خالد.

أخذ منه الظرف وهو يقول له في استغراب:

ـــ ولكن لم هذا المال؟ فقد أخذت كل مستحقاتي، حتى أنني أخذت أجرة هذا الشهر كله مع أنني لم أعمل فيه غير عشرة أيام.

ـــ هذا المبلغ عبارة عن خمسة عشر ألف ريال، عشرة آلاف منها هي (حلاوة) نجاح الأولاد في اختبارات نصف العام كما تسمونها في مصر، فقد حصلوا على درجات مرتفعة ، وكل هذا بفضل الله، ثم بفضل جهودك معهم، ومذاكرتك لهم.

والخمسة آلاف الأخرى هي هدية مني لك، لابد وأنك ستشتري بعض الهدايا للأهل والأصدقاء، وأنت بحاجة إليها من دون ريب.

ـــ لا أعرف ماذا أقول لك، فإحسانك قد ألجم لساني.

ـــ لا تقل شيئا، فقط لا تنساني من دعائك، ولا تحرمني من سماع صوتك عبر الهاتف، يمكنك الذهاب الآن لتجهز أغراض سفرك.

ثم انصرف من عنده، بعد أن ودعه وشكر له إحسانه.

كان سعيدا بهذا المبلغ الذي أتاه فجأة من حيث لا يدري، كان معه خمسة وثلاثون ألف ريال قد ادخرها طوال فترة إقامته في المزرعة بعيدا عن جميع نفقاته والأموال التي كان يرسلها لمنصور من آن إلى آخر ليسد بها ما كان عليه، والآن قد أصبح معه خمسون ألف ريال.

خمسون ألف ريال فائضة عن حاجته، يمكنه أن يفعل بها ما يشاء، وهي رهن إشارة من يده.

دخل عليه إسماعيل أثناء تجهيزه حقائبه وهو يقول له:

ـــ سوف أتزوج يا خالد بعد ثلاثة أشهر من اليوم، ومعك عنوان بيتي في محافظة الشرقية، والله إن لم تحضر زواجي ليكونن هذا فراق ما بيني وبينك.

فقال له وهو يمازحه:

ـــ أيها الأحمق، هل الأخ بحاجة إلى دعوة من أخيه، بكل تأكيد سوف أكون أول الحاضرين، ولكن إياك أن تأكل معي حين آتي إليك، لي عام كامل لم أشبع من الطعام مرة واحدة لا لشيء إلا لأنك تأكل معي، ما هو إلا أن أبدأ في الأكل حتى أجدك قد نسفت جميع الأطباق نسفا.

أطلق إسماعيل ضحكات عالية ثم قال له:

ـــ ومن أدراك أني سأكون متفرغا لك، وهل سأتزوج لكي آكل معك أنت، سوف آكل مع ابنة الخال وزوجة المستقبل.

فقال له وهو مستمر في مشاكسته:

ـــ والله يا إسماعيل أنا أشفق كثيرا على ابنة الخال وزوجة المستقبل هذه، أخشى أن تدخل عليها يوما وأنت جائع فلا تجد ما تأكله غير تلك المسكينة.

ثم انفجرا في الضحك، قطع إسماعيل ضحكه وهو يقول له:

ـــ سأشتاق إليك كثيرا يا خالد، والله لا أعرف كيف ستمر علي الأيام المتبقية لي هنا من غيرك، لا أحد هنا يهون علي مرارة الغربة ووحشتها غيرك يا صديقي.

ــ هانت يا إسماعيل، هي أيام وستمر كما مرت قبلها الشهور والأعوام، فقط اعتني بنفسك، وإن شاء الله سوف آتي إلى زيارتك بمجرد وصولك إلى مصر.

ــ إن شاء الله يا خالد، تشرفني زيارتك في أي وقت بالتأكيد.

انتهى خالد من ترتيب حقيبتين ولم يتبقَّ أمامه غير حقيبة صغيرة تحتوي على بعض الهدايا التي اشتراها لفاتن.

كانت هداياه لها عبارة عن زجاجتين من العطر الذي تحبه، وبعض زيوت الشعر، وعلبتي تجميل من الحجم الكبير، وبعض الثياب الغالية التي اختار ألوانها بعناية فائقة.

كان يهتم بالألوان أكثر من اهتمامه بأي شيء آخر.

لا زال يتذكر حين قالت له:

ــ أنا لا تعنيني جودة الثياب قدر ما تعنيني ألوانها.

يومها قال لها:

ــ أتفق معكِ في أن الألوان شيء هام ينبغي أن ننتبه إليه في الأثواب التي نود شراءها، لكن ألا تتفقين معي في أن خامة الثوب وجودته أولى وأهم.

قالت:

ـــ إننا لا نرتدي الأثواب إلا لغيرنا، بدليل أنه لا أحد يتأنق في ارتداء ثيابه إلا إذا أراد مقابلة الناس، فإذا اتفقنا على ذلك فإننا حتما سنتفق على أن جاذبية الأثواب وألوانها أمر في غاية الأهمية، فإن جودته لنا، وألوانه لغيرنا.

لذلك فليس من السهل على الشخص معرفة جودة الثوب من عدمه حتى يتفحصه بنفسه، ولكنه ومن النظرة الأولى يمكنه أن يدرك مدى جاذبيته وتناسق ألوانه من عدمها.

ـــ إذن فأنتِ تهتمين بالمظاهر أكثر من أي شيء آخر؟

ـــ أهتم بها لأنها عند الكثيرين تساوي قيمتك، ولكن لست أهتم بها أكثر من أي شيء آخر كما تقول، هي عندي شيء لا مفر منه، ولا تنسى أننا في زمان المظاهر.

ـــ تقصدين زمان الأكاذيب؟

ـــ ما دام المعنى واحدا فلا مشاحاة في الألفاظ.

لم تنسه فرحته بالعودة إلى مصر أن يحضر لزينب وأمه هداياهم، فاشترى على نفقته عشرة مصاحف لكي يضعهم في أقرب مسجد من بيتهم كصدقة على أرواحهم، كان يود أن لو اشترى أكثر من ذلك، ولكن الطائرة لم تكن لتسمح له بأن يتجاوز الوزن المحدد له.

ما أن انتهى من ترتيب أغراضه حتى تذكر أن فاتن قد طلبت منه في أول سفره أن يشتري لها ساعة ذهبية اللون حتى ترتديها مع الشبكة في يوم زفافهما.

انطلق من فوره ليشتري تلك الساعة وكأنه كان يخشى أن يداهمه النسيان مرة أخرى.

كان يعرف أنها تحب الساعات كثيرا، لا زال يتذكر يوم سألها عبر الهاتف فقال لها:

ــ كم الساعة معكِ الآن:

قالت له:

ــ ليس من اللائق أن نسأل عن الوقت ونحن بحضرة من نحب.

ــ أعرف ذلك، ولكن إذا تعارفت الأرواح، وتعانقت القلوب، سقطت الكلفة.

ما أجبتني كم الساعة.

ساعتها قررت مشاكسته فقالت له:

ــ الساعة معي دوما في عجلة، لذلك أنصحك ألا تسألني عنها مرة أخرى.

فقال لها:

ــ بل هذا سيجعلني دائم السؤال عنها بالتأكيد، تعرفين أني أكره الانتظار كثيرا، مما يعني أن ساعتك ستكون صديقة لي إذ هي التي ستختصر المسافة بيننا والوقت الذي بيني وبين ما أنتظر.

ألا تعرفين أن المغترب يود أن لو كان العام في غربته في قِصر شهر، والشهر فيقِصر يوم، واليوم ساعة أو أقل من ذلك.

ضحكت وهي تقول له:

ـــ ما كل هذا، لو كانت ساعتي كما تقول لأهديتها لك بعد أن أحمد فيها تلك الخواص بقلبي ولساني، ولكن عجلتها لا تكون إلا في أوقات سروري فقط، تجعل الوقت يمر وكأنه لحظات، حتى وإن كان طويلا، تهرول وكأنها خيل سباق حتى تخلعني من السرور وتغرسني في الحزن، لذلك أفكر في الاستغناء عنها.

ـــ إذن فعليكِ الاستغناء عن كل الساعات أيضا، فالذي تشكين منه ليس وقفا على ساعتك أنت وحدك، ولكنه في كل أخواتها من ذوات الأرقام والعقارب.

ـــ تعرف يا خالد.. كثير من الفتيات يحبون الساعات لأنها بالنسبة إليهم زينة في المقام الأول، أما أنا فأحبها لأنها فوق ذلك تجعلني أعرف قيمة الوقت وقصر العمر، لذلك فسأنتظر منك الساعة التي لن تفارق معصمي أبدا إن شاء الله.

ساعتها أغلق معها الهاتف بعد أن وعدها أن يشتري لها أجمل ساعة تليق بها.

ظل محتارا في تلك الساعة التي تجدر بأن تبقى في معصمها فلا تفارقه أبدا، لم تكن لديه خبرة في كل ما هو خاص بالنساء، حتى الثياب التي اشتراها لها وعلب التجميل لم يستطع أن يشتريها بسهولة.

وبعد أن ظل يتجول داخل محل للساعات قرابة النصف ساعة في محاولة منه لاختيار الساعة المناسبة لم يتمكن من الاختيار، فقال لصاحب المحل أريد أغلى ساعة نسائية عندك بشرط أن تكون ذات لون ذهبي، وألا تتأثر بالماء.

ومع أنه أعطاه ساعة ثمنها يزيد على السبعمائة ريال إلا أنه لم يتردد في شرائها، وأثناء بحثه عن ساعة لها في أول دخوله للمحل كانت قد أعجبته ساعة رجالية كثيرا فقرر شراءها كهدية لمحمود مع باقي الأشياء التي اشتراها له، فدفع قيمة الساعتين ثم رجع سريعا كي يأخذ قسطا من الراحة قبل أن يستدبر الغربة بآلامها ويستقبل الوطن بآماله.

****

ها هي الطائرة تحلق به عاليا، كان لأول مرة في حياته يركبها، تذكر كلمات إسماعيل حين قال له:

ــ من يركب الطائرة إما تأخذه المتعة، وإما أن تملأه الرهبة.

لكنه لم يكن يشعر بأي رهبة من ركوبه لها، كان الأمر عنده سيان هو والسيارة أو الباخرة.

وأيضا لم يكن يستشعر أي متعة في الأمر، ربما لأن هناك ما كان يشغل فكره حتى جعله يحلق مع خيالاته كما حلقت الطائرة عاليا براكبيها.

وبينما هو على تلك الحالة إذ بشخص له من العمر قرابة الخمسين عاما جالس على المقعد الملاصق لمقعده ينحي عن وجهه الجريدة التي كان يتصفحها ويسأله:

ــ هل مكثت في المملكة كثيرا؟

فأمسك عن التحليق مع خيالاته، ثم وقف وقوفا اضطراريا ليجيبه على سؤاله قائلا:

ــ نعم، أنا هناك منذ خمسة عشر شهرا.

قال له الرجل وهو يبتسم ابتسامة هي أقرب إلى السخرية منها إلى التبسم، بنبرة يصطنع فيها التعجب والدهشة:

ــ خمسة عشر شهرا؟ كثير فعلا، كيف تحملت كل هذه الفترة، يالك من شاب صبور.

فقال له:

ــ الله عز وجل يهون، الحمد لله على كل حال.

ثم سأله:

ــ وأنت كم لك هناك؟

ــ أنا لست صبورا مثلك، لهذا لم أتمكن من أن أمكث هناك مثلك.

ــ وكم مكثت إذن؟

أجابه وهو يبتسم:

ــ لم أمكث سوى تسعة عشر عاما.

دُهش خالد من كلامه لدرجة أنه لم يدرِ بم يجيبه، لم ينتظر الرجل منه ردا فأكمل قائلا:

ــ لقد تخرجت من كلية الهندسة منذ ما يقرب من ثلاثين عاما، كان بإمكاني أن أعيش في مصر براتب يكفيني لو بقيت فيها، ولكني أبيت أن أعيش على الكفاف.

فقررت أن أقود ثورة على الفقر الذي كان كل ما ورثته عن أبي، ثم سافرت إلى المملكة العربية السعودية.

في البداية مكثت فيها عاما واحدا كنت أعمل خلاله في شركة كبيرة وأتقاضى أجرا مغريا، ثم نزلت إلى مصر فتزوجت وسافرت بزوجتي ومن يومها لم أرجع إلا اليوم.

راق لخالد حديث الرجل كثيرا عن نفسه وبدا له مثيرا، فقرأ الرجل في إحدى عينيه علامات الدهشة وفي الأخرى علامات الاستفهام، لذلك ما كاد يسأله عن سبب رجوعه اليوم تحديدا حتى بادره الرجل قبل أن يطرح عليه سؤاله قائلا له وهو يسترسل في كلامه بعد لحظات من الصمت:

ــ لا بد وأنك تتساءل الآن في نفسك عن سبب عودتي اليوم تحديدا إلى مصر.

ــ نعم هذا تحديدا ما كنت سأسألك عنه.

فتابع الرجل:

ــ لقد توفي أخي بالأمس بعد صراع طويل مع المرض استمر أكثر من عامين، من المخجل ألا أشهد عزاء شقيقي الأكبر وقد فاتتني جنازته، ولولا ذلك ما كنت لأعود الآن.

بادره بقوله:

ــ أعظم الله أجرك في مصابك. ولكن كيف لك أن تطيق كل هذا الابتعاد عن مصر!

أنا أستغرب لك، لا يمكنني أن أكون مثلك أبدا.

ــ سأصدقك القول، لقد كنت أفكر في أن أعود بزوجتي وأبنائي إلى مصر ونستقر فيها منذ عامين تقريبا، وما إن قامت الثورة هناك وعمت الفوضى، وأصبح الرجل لا يأمن على ماله أو نفسه أو عرضه حتى قررت وأد هذه الفكرة في مهدها.

توقف عن كلامه ليسأله:

ــ ما اسمك؟

أجاب:

ــ خالد.

ــ اسمع يا خالد، مخطئ من قال بأن الوطن هو تلك البقعة التي نولد فيها، بل هو عندي مجرم يستحق العقاب على ترويجه لهذه الأكذوبة السخيفة.

الوطن يا خالد هو الراحة والاستقرار، هو أن تنعم بالأمن والصحة وتتوفر لديك كل أسباب الراحة النفسية والبدنية، فحيثما وجدت هذه الأشياء في مكان فهو وطنك.

قاطعه قائلا:

ــ اسمح لي أن أختلف معك في وجهة نظرك، نعم يمكن للمرء أن يشعر بالراحة والاستقرار، وكذلك بالصحة والأمن في أماكن كثيرة، ولكن لا يمكنه أن يشعر بأي قيمة تذكر لهذه الأشياء إذا كانت تتأتى له خارج أسوار موطنه.

ألم يقولوا قديما بأن الغنى في الغربة فاقة؟

تعرف لماذا قالوا ذلك عن الغربة؟ لأن الذي ينأى عن موطنه لا تزال بداخله تلك الكسرة التي لا تفارقه حتى يطأ بقدميه تراب وطنه ويروي ظمأ شوقه من مائه وهوائه.

حتى أنت يا سيدي لا يمكنك أن تنكر ذلك، وحتى إن أنكرت ذلك ظاهرا بتلك الكلمات التي تسلي بها نفسك، فلا يمكنك إنكاره بينك وبين نفسك.

ها أنت قد مات شقيقك وأنت في غربتك، وها هو قد دفن ولم تشهد جنازته، وأنا توفيت شقيقتي منذ عام وأنا في الغربة، ولم أشهد جنازتها أيضا، ولا حتى وقفت لدقائق على قبرها أستغفر لها الله وأسأله لها المغفرة.

كم يساوي ذلك الأمر، وأي شيء في الدنيا يمكنه أن يخفف ألما كهذا الألم!

يرحل أقرب الناس إليك إلى حيث لا لقاء من غير أن تودعهم، أو حتى تختلس منهم بعض النظرات التي ترجو أن تكون زادا لك في مواصلة الحياة من بعدهم.

هذا هو ثمن الغربة الغالي الذي لا بد وأن يدفعه كل من هرول إليها مكرها كان أو مختارا.

ولكني برأيي كنت أفضل منك حالا، فقد اضطررت إليها اضطرارا نظرا لفقري وحاجتي، ولولا ذلك ما فكرت فيها طرفة عين.

أما أنت فقد ذهبت إليها باختيارك وقد أغناك الله عنها، ولا أقول أنك قد أخطأت في هذا، فالبحث عن المال حق مشروع للجميع ما دام عن طريق الحلال، ولكنك من وجهة نظري قد أخطأت حينما أمكنك أن ترجع فتماديت.

قال له الرجل وقد انطفأ ذلك الحماس الذي كان في نبرة صوته في بداية حديثه:

ـــ ربما كنت محقا في بعض ما قلت يا بني، ولكنك لا تزال صغيرا، لم تمر بعد بالتجارب التي توقفك أمام الحقيقة الكبرى في هذا الزمان والتي مفادها أن المال هو كل شيء.

كانوا يقولون قديما بأن المال يمكنه أن يشتري كل شيء عدا الحب، أخطأوا في ذلك، ففي هذا الوقت أصبح بإمكانه القدرة على شراء كل شيء، حتى الحب.

فحتى المرأة تحب زوجها الغني الذي ينفق عليها بسخاء وإن كانت تبغض فيه أشياء فإن ماله يسترها فلا تراها، وإن رأتها حملتها أمواله على أن تتغافل عنها، بينما تتضجر المرأة من زوجها الفقير الذي يضطر إلى أن يحجم من نفقاته ويقلصها حتى وإن تأتت له كل الفضائل عن بكرة أبيها.

لم يشأ خالد أن يسترسل معه في الحديث أكثر من ذلك، فاستأذنه في الجريدة التي كان يتصفحها، لا لأجل قراءتها، ولكن لأجل إنهاء الحديث معه بطريقة لبقة ولائقة، عرف الرجل من طلبه لها أنه لا يرغب في الاسترسال في الحديث معه، فناوله إياها، ثم راح يغط في النوم، وبمجرد أن بدأ النوم يتملكه حتى وضع خالد الجريدة بجانبه من غير أن يقرأ فيها شيئا، ثم استأنف الإقلاع مع أفكاره وتخيلاته مرة أخرى.

ها هو يرجع مرة أخرى من حيث أتى، رجع وهو يحمل معه ما يزيد على الثمانين ألف جنيه، ثمانون ألف جنيها دفع مقابلها عاما وثلاثة أشهر من عمره.

لم يكن حزينا على هذه الشهور التي قضاها في غربته، كان يعرف أنه لو ظل في مصر تلك المدة لما تيسر له أن يدخر نصف ذلك المبلغ ولا ربعه، بل ربما لم يتيسر له حتى أن يدخر معشاره في ظل الركود الذي عم كل شيء.

ها هي الطائرة تحلق فوق أرض مصر، وها هو يشتم رائحة الوطن الزكية التي تخترق كل جزء في جسده.

نظر من نافذة الطائرة فانتعشت ذاكرته، وتجلت له ذكرياته السعيدة، فرسمت على ثغره ابتسامة بلهاء.

حين تغوص داخل الذاكرة فغالبا ستعود بدمعة أو ابتسامة، فالذاكرة تأبى إلا أن تكرم ضيوفها وزائريها.

بدأت الطائرة تهبط شيئا فشيئا بعدما كانت تحلق فوق السحاب، وكلما هبطت قليلا كلما بدأت نبضات قلبه تزداد ضجيجا وصخبا.

كان يعلم أن منصور ينتظره داخل صالة الانتظار في المطار، فحينما أبلغه بموعد طائرته أخبره بأنه سيكون في استقباله.

لم يكن يعرف إذا ما كان محمود سيكون في استقباله أيضا أو لا، فقد كان يتصل به من آن إلى آخر في أثناء سفره، وحينما عرف منه موعد زواجه قرر أن يعود إلى مصر مع أنه كان ينوي أن يرجع بعد ثلاثة أشهر أخرى ليتم عاما وستة أشهر، ولكن محمود ألح عليه في أن يحضر زفافه فلم يشأ أن يخذله.

كان لا يزال يطمع في أن تعود صداقتهما صلبة وقوية كما كانت.

وفي محاولة منه لإرجاع الأمور إلى ما كانت عليه جلب له بعض الهدايا والتي تتألف من زجاجتين من العطر، ومصحفا صغيرا يتألف من ستة أجزاء، وبنطالين وقميص أزرق، إضافة إلى بذلة كاملة قد اشتراها له من أجل زفافه بعد أن سأله عن مقاسه في الثياب، والساعة التي اشتراها له مع ساعة فاتن والتي اختار أن تكون سوداء اللون لتناسب البذلة.

ها هي الطائرة تهبط أخيرا، وها هو يرفع الحزام عنه ليتأهب أخيرا للنزول.

****

في مساء مترع بالشوق واللهفة دخل خالد إلى المنزل مع منصور، كان المنزل نظيفا ومرتبا بشكل كبير، كل شيء كان يبدو أنيقا ومنظما، ورائحة البخور الزكية كانت تنتشر في كل مكان فيه.

ما إن ولج بيمينه داخل المنزل حتى أصيب بسهمين من السعادة والحزن في آن واحد.

أما سعادته فلأنه أخيرا عاد إلى أحضان المنزل الذي لم يجد بقعة في الأرض أحن عليه منه، أو أكثر منه دفئا.

وأما حزنه فلأنه لم يجد أمه تستقبله بلهفتها عليه كما هو شأنها كلما غاب عنها ولو قليلا، ولا رأى زينب تلقاه بابتسامتها البريئة.

ما إن دخل حتى جلس على كنبة الصالة بجوار منصور بعد أن وضعوا عنهم الحقائب التي كانت معهم، فبادره منصور بقوله وهو يبتسم في وجهه:

ـــ (حمدالله عالسلامة يا خالد، نورت البيت والباطنية ومصر كلها).

رد على ابتسامته بأختها وهو يقول له:

ـــ سلمك الله يا منصور، لو تعرف كم اشتقت إليك وإلى رؤية جهاد وجميلة ومولودك الجديد.

فقال له:

ـــ ليس أكثر من شوقنا نحن إليك يا خالد.

نادى على علياء لكي تسلم على خالد، فأقبلت وهي في كامل زينتها، فسلمت عليه ثم رجعت إلى غرفتها وعادت وهي تحمل خالد الصغير، كان يبلغ من العمر خمسة أشهر وأحد عشر يوما كما قال له منصور أثناء حمله له.

قبله في جبينه وهو يشعر بسعادة كبيرة، ثم أخذ يحمله بيد واحده ويرفعه عاليا وهو يداعبه ويقول له:

ـــ أنا عمك يا خالد، هل تعرفني؟ لقد أحضرت لك لعبا كثيرة، إن شاء الله سوف نصبح أصدقاء، وسنظل نلعب بها أنا وأنت، ولن نجعل جهاد وجميلة يلعبان معنا أبدا.

سأل علياء عن الطفلتين فقالت له:

ـــ هما الآن يغطان في النوم، إن شئت أيقظتهما لك.

ـــ كلا، لا تفعلي، سأراهم في الصباح إن شاء الله، لابد وأنهما قد كبرتا الآن يا منصور، أليس كذلك؟

فقال له منصور:

ــ بلى، لقد كبرا وأصبحا مزعجين بشكل لا يطاق، كان الله في عون كل من عنده في بيته أطفال.

فقالت له علياء:

ــ إذا كانوا مزعجين هكذا كما تقول فلماذا لا تتوقف عن اللعب معهما، ومشاكستهما كلما جلست في البيت.

ضحك وهو يقول لها:

ــ اللعب والمشاكسة شيء، وصراخهما المزعج كلما هممت بأن أنام أو أرتاح شيء آخر.

نظر منصور إلى علياء وهو يقول لها أحضري الطعام لكي نأكل أنا وخالد، فاعتذر منه خالد بحجة أنه قد أكل في الطائرة، ولا يجد للأكل متسعا، فقال له منصور:

ــ لا بأس، فأنا أيضا قد أكلت قبل أن أذهب لاستقبالك.

ثم قال له:

ــ لابد وأنك في غاية التعب والإرهاق الآن، هيا قم إلى غرفتك كي تنام، لقد أعدتها لك علياء، ورتبت لك كل شيء فيها.

ــ نعم يا منصور، أنا متعب كثيرا، ولكني أريد أن أجلس معكم، لم أكن أتشوق في طريقي إلى النوم أو الراحة، ولكن إلى اجتماعنا كما كنا في السابق.

أخبرني كيف حال الناس هنا، هل من شيء جديد؟

ــ لاجديد، هم كسابق عهدهم، كل واحد منهم عنده من همومه ما يشغله عن غيره.

فقال له على الفور وقد تملكه الحزن وتغيرت نبرة صوته:

ــ وماذا عن زينب يا منصور، هل كانت غاضبة مني قبل موتها لأني سافرت وتركتها؟ لابد وأنها كانت غاضبة، أليس كذلك؟

ــ كلا يا خالد، لم تكن غاضبة منك البتة، كانت تعرف أنك لم تكن تريد أن تبتعد عنها، ولكن الظروف هي التي أرغمتك على ذلك.

نكس رأسه في الأرض ثم قال:

ــ لقد اشتقت إلى رؤيتها كثيرا.

ــ كلنا نشتاق إليها يا خالد، فقط لا تنساها من دعائك، هذا كل ما تريده منك.

ــ لا أتوقف عن الدعاء لها هي وأمي وأبي، وقد اعتمرت عنها هي وأمي ودعوت لهما كثيرا.

سأدخل الآن إلى غرفتي لكي أنام، ائذن لي يا أخي.

ابتسم وهو يقول له:

ــ هذا ما كنت أقوله لك منذ قليل.

قام فتوجه أولا إلى غرفة أمه والتي أصبحت مقرا لزينب منذ تزوج منصور، وحتى استدبرت الدنيا واستقبلت الآخرة.

كانت قد تحولت إلى غرفة أطفال كي تناسب أبناء منصور، فقبَّل جهاد وجميلة وهما نائمتين، ثم أخذ يقلب نظره في الغرفة وكأنه يبحث فيها عن زينب، وبينما يجول بنظره فيها وقعت عينه على الكرسي المتحرك الذي لم تكن تجلس عليه إلا نادرا، كان الكرسي على هيئته الجديدة كيوم جلبته أمه لها غير أن التراب كان قد استوطن كل أجزائه بسبب إهماله وعدم استخدامه.

أخذ الكرسي ووضعه في منتصف الغرفة بعد أن أزال عنه التراب ثم جلس عليه وقد أغلق كلتا يديه ووضعهما على خديه ثم نكس رأسه إلى الأرض وهو يتذكر أنه كثيرا ما كان يجلس معها في هذه الغرفة، وكثيرا ما كان يحملها فيها، مرة بين يديه كطفلة، ومرات على ظهره وهو يلعب معها.

ثم تذكر حين قالت له بعد رحلتها معه في الحديقة هي وفاتن بيومين:

ــ هل سأحضر زفافك يا خالد أنت وفاتن أم أنني سأحرم من ذلك كما حرمت أمي، لستُ خائفة من أن أموت، فالموت والحياة عندي سواء منذ ماتت أمي، ولكني لا أريد أن أموت قبل أن أحضر زفافك.

يومها قال لها:

ــ أيتها الحمقاء، وهل يكتمل زفافي بغير حضوركِ!

ثم أراد أن يداعبها فقال لها:

غاية ما في الأمر أن هناك مشكلة يسيرة هي التي قد تمنعكِ من الحضور.

قالت له في استغراب:

ــ وما هي هذه المشكلة؟

ـــ المشكلة هي أن فاتن قد بدأت تغار منك كثيرا، وتقول لي زينب جميلة بشكل كبير يا خالد، أخاف أن تأخذ الأنظار مني في يوم زفافنا.

ضحكت بشكل كبير، ثم توقفت عن الضحك فجأة لتقول له:

ـــ لا أرى أي داع لقلقها، فالنظرات إليها في ذلك اليوم ستكون نظرات فرح وإعجاب، والنظرات إلي لن تكون إلا نظرات شفقة ورحمة، ولا أحد يغار من نظرات الشفقة التي تصوب نحو المرضى، ليتك تطمئنها بهذا.

لم يعرف ما يقول لها، فتعمد أن يغير الموضوع، فقال لها:

ـــ المهم هو أن فاتن قالت لي أنها جادة في أن تكون صديقة لكِ، ما رأيكِ في هذا؟

قالت له وقد علاها الحزن كعادتها:

ـــ وكذلك كانت تقول علياء أثناء خطبتها هي ومنصور، فلما تزوجت منه ناصبتني العداء، وها هي قد أنجبت ولا تجعلني أحمل بنات أخي، ولا تسمح لي باللعب معهم.

نظرت إليه فجأة ودمعة تترقرق في عينيها وهي تقول له:

ـــ هل ستسمح لي فاتن بأن أحمل أولادك يا خالد أم ستخاف عليهم مني مثل علياء، وتمنعني من أن أقترب منهم؟

نزلت من عينيه دمعة وكأنها هي نفس الدمعة التي كانت تلمع في عينيها يوم قالت له تلك الكلمات.

وبعد قرابة نصف ساعة قضاها في غرفتها التي تعمد أن يطفئ المصباح فيها لكي يسترجع ذكرياته معها في سكون قام فتوجه إلى غرفته كي يستريح من عناء السفر.

كان يشعر بالأرق مع ما به من التعب.

أخذ يتصفح مكتبته الصغيرة وقد علاها التراب، كان سعيدا بأن أحدا لم يعبث بها فيغير فيها شيئا كذلك التغيير الذي حدث لغرفة زينب.

وبينما يتصفح أدراج مكتبه الذي كان قد أهداه له منصور وهو في الثانوية العامة إذ به يعثر على روايته التي أفنى في كتابتها عامين من عمره.

أخذ يتصفحها وكأنه يعتذر لها عن إهماله لها، كان يفكر في تلك اللحظات أن يعيد طباعتها مرة أخرى بشكل جدي على نفقته، فهاهي الأموال معه، وحيث وجد المال تحققت الآمال.

ظل يقرأ فيها بعض الوقت بعين الناقد إلى أن وضعها في مكانها مرة أخرى وقد عزم أن يطبعها بعد أن يعيد نظره فيها لكي يصوب فيها بعض الأشياء ويضيف إليها بعض الإضافات التي لابد منها.

أسلم جنبه للفراش في دعوة منه للنوم كي يأتيه زائرا ولكنه لم يلبي دعوته، ربما لأن جنبه قد أنكر السرير، أو السرير هو الذي تنكر له بسبب غيابه عنه لأكثر من عام.

وبعد ساعة قضاها مع الأرق تمكن النوم من أن يصل إليه فألقى علي جسده تعويذة قوية جعلته ينام نوما عميقا لم يحظَ بمثله منذ غادر ذلك المنزل.

****

لم يستيقظ من نومه إلا مع آذان الظهر، فقام من على سريره وقد عاد إليه نشاطه متوجها إلى الحمام، توضأ ثم خرج من المترل متوجها إلى الجامع الأزهر لأجل الصلاة، بعد أن أخبر علياء بأنه سوف يتأخر.

صلى الظهر ثم جلس في الجامع بعض الدقائق كعادته وبعدها انطلق مباشرة إلى المقابر كي يلتقي بأمه وأخته.

كان قبر زينب ملاصقا لقبر أمه من جهة اليمين كما أخبره منصور بذلك عندما قام بدفنها بنفسه.

لم يكن يعرف سبب تساقط دموعه في تلك اللحظات، هل تسقط منه على أمه التي لم يكن في الدنيا من هو أحب إليه منها، أم على أخته التي فجع فيها وهو بعيد عنها وبينه وبينها آلاف الكيلو مترات.

وقف أمامهما لا يتمالك دموعه، ولا يعرف كيف يسيطر على نفسه، لم تكن عنده الرغبة في التوقف عن البكاء، كان يريد أن يسكب الكثير من الدموع لعلها تخفف عنه شيئا مما به.

شرع في الحديث مع أمه كعادته عند زيارتها فقال لها:

ـــ لماذا يقولون يا أمي بأن المصيبة تبدأ كبيرة ثم تصغر مع الأيام شيئا فشيئا إلى أن تتلاشى وتنتهي؟

أخطأوا في ذلك بالتأكيد، فمنذ رحلت ومصيبتي فيك كبيرة لا تصغر قيد أنملة.

آه لو تعرفين يا أمي كم أشتاق إليك، وكم أنا بحاجة إلى أن أرمي بنفسي داخل حضنك الدافئ.

ها أنا قد أصبحت رجلا يعتمد عليه كما كنت تحبين لي أن أكون، وها قد سافرت وتغربت وعملت وجنيت المال ورجعت ولا أزال أشعر بفقدي لك.

ثم أخذ يناجي زينب ويكلمها وكأنها تستمع إلى كلماته، قال لها وكلماته تخرج منه مخضبة بدموعه:

ـــ وأنت يا زينب ألم تكوني تتمنين الخلاص من مرضك الذي أحوجك إلى غيرك يا حبيبتي؟

ها أنت قد تخلصت منه والله تعالى أكرم وأرحم من أن يبتليك به مرتين، كانت أقصى أمانيكِ هي المشي كما الناس يمشون، عساكِ الآن في الجنة يا حبيبتي، تمشين وتهرولين وتمرحين كما يحلو لكِ.

وها أنت الآن بجوار أمك التي لطالما تمنيت أن تظلي معها.

كم أحسدك على ما أنت فيه، فقد غادرت الدنيا وأنت نقية كما أنت، وقد عافاك الله من الكذب، ومن ذلك النفاق الذي انغمس فيه أكثر الناس، وها أنت الآن في ذمة من هو أرحم بك مني ومن أمك نفسها.

إياك أن تكوني غاضبة مني يا زينب كوني سافرت وتركتك، فوالله لو كنت أعلم أني سأعود فلا أجدك لما سافرت ابتداء، كنت قد خطت لأن أسافر ثم أعود سريعا لأجلك أنت وفاتن.

ها أنا قد عدت فلماذا لم تنتظريني؟

لماذا استعجلت الذهاب إلى أمك، أما كان بوسعك أن تنتظري حتى تشهدي زفافي كما كنت تريدين.

أنا الذي من حقه أن يغضب منك الآن لا أنتِ، فقد ذهبت إلى حيث أردت وتركتني هنا وحدي حيث لا أريد.

ولكني لست غاضبا منك، وأبدا لا أغضب منك مهما فعلت.

فقط أريدك أن تسلمي لي على أمك، وأن تقولي لها أنني أشتاق إليكما كثيرا، وأخبريها أنني غاضب منها لأنها لم تأتني زائرة في المنام كما عودتني منذ أكثر من خمسة أشهر.

وإن كانت غاضبة مني فاطلبي منها أن تسامحني، فما أحوجني الآن إلى أن أشعر برضاها علي.

جفف دموعه ثم غادر المقابر متوجها إلى حديقة الأزهر التي كان يتشوق إليها شوق الأسير إلى الحرية.

كان على موعد مع طيف فاتن ولم يكن يحب أن يتأخر عن ذلك الطيف حتى لا يمل انتظاره فيتلاشى.

دخل الحديقة وهو يصوب نظره في جميع الاتجاهات وكأنه يقرر في أي اتجاه سينطلق، لم يلاحظ أي تغيير في الحديقة، كانت كسابق عهده بها.

أخذ يتصفح وجوه الناس في الحديقة وكأنه يبحث عنها بينهم كطفل أضاع أمه في وسط الزحام.

كان يعرف أنه لن يلتقي بها، لا لأن ذلك اليوم كان يوم الأحد وليس الثلاثاء ومن عادته أن يلتقي بها في يوم الثلاثاء فقط، ولكن لأنه لم يعد له منها غير بعض الذكريات، فحتى إن أتت فليس من حقه أن يفعل معها أي شيء، ولو أن يسلم عليها سلاما عابرا.

ذهب إلى حيث تعود أن يجلس معها تحت تلك الشجرة التي لم يعد يعرف إذا ما كان يحبها لأنها شهدت أول حب في حياته، أم يبغضها لأنها تذكره بذلك الحب الذي ولد تحت أغصانها ثم بدأ ينمو ويكبر على مرأى ومسمع منها.

كان يريد أن يظفر ببعض السعادة التي كان يجدها في كل مرة يقابلها فيها تحت تلك الشجرة.

وفي محاولة منه لجلب شيء من السعادة التي فقدها أخذ يتذكر بعض مواقفه الجميلة معها، فتذكر يوم كتب وصفا للقبلة ولم يدرِ كيف يعرضه عليها، لم تكن عنده الجرأة الكافية التي تسمح له بأن يخبرها بذلك، كان يحب أن يعرض عليها كل ما كان يكتبه، فقرر أن يعمل على إثارة فضولها إلى أن يجعلها تطلب منه ذلك الوصف، فقال لها منفذا لتلك الحيلة:

ــ لقد كتبت بالأمس شيئا عنكِ.

قالت:

ـــ حقا؟

ـــ نعم.

ـــ جميل، فهذا دليل على أنني بالأمس قد كنت ضيفة على خاطرك، أتمنى أن أكون ضيفة خفيفة، فأنا لا أحب الثقلاء.

ـــ لستِ ضيفة على خاطري، ولكنكِ مقيمة.

ابتسمت في خجل ثم قالت له:

ـــ هيا أرني ما كتبته.

ـــ لا يمكنني ذلك، فيبدو أن قلمي كان جريئا بالأمس أكثر مما ينبغي، وأخاف أن أزعجكِ بما كتبته، لذلك أفضل أن أحتفظ به لنفسي.

ـــ لكن هذا ليس من حقك، إن كنت قد كتبت شيئا عني فهو بلا ريب ملك خالص لي.

لا تكن عنيدا وأعطني ما كتبته وإلا طلبت من أمن الحديقة أن يأخذوه منك بالقوة.

رأى أنه قد نجح في إثارة فضولها بشكل كبير، فقال لها:

ـــ ولكن تذكري أنني قلت لكِ أن من الأفضل ألا تفعلي، لذلك فلست مسؤولا عن عواقب قراءتك لما كتبته، سواء أكانت غضبا أو غير ذلك.

ـــ اتفقنا، أعطني هيا ما كتبت.

فأعطاها رسالة قد كتب فيها يصف القبلة:

القبلة جسر أوله عند شفاه العاشق وآخره عند شفاه المعشوق على متنه يرقص القلب طربا، وتطير النفس إلى عنان سماء اللذة هياما وفرحا.

القبلة هي الترجمة العملية للكلمة التي حفرت في صدور جميع عشاق الدنيا.

هي رسالة محملة بالأشواق قد كتبت بمداد من رحيق الفم المستقر على الشفاه المتعطشة إلى من يرويها بالحب، ويسقيها بالحنان، فلا يتركها إلا وقد أخمد نيران الشوق المشتعلة بداخلها أو ربما زادها اشتعالا.

القبلة ما هي إلا كلمة أحبك مكتوبة بحروف بارزة ممتزجة بلعاب الفم المتشوق لأن يلامس شفاه المعشوق ويداعبها.

هي أسمى أماني المحب، وأثمن ما يسعى إليه المتيم، وأنفس ما يحصل عليه العاشق، وأروع ما يحلم به كل من به وجد وهوى.

طعمها في الفم أحلى من الشهد المصفى، ووقعها في القلب أحلى من الماء الزلال في اليوم الصائف، فهنيئا لمن يظفر بها من معشوقه.

كم هو جميل أن يسبح المرء في عيني حبيبه، والأجمل من ذلك أن يسبح في قبلة منه وهو يعلم أن نهايته قطعا لن تكون إلا الغرق المؤكد، ولكنه غرق لذيذ لأنه بمذاق الحب، ونكهة الشوق.

حين تتصافح الشفاه تتعانق الأرواح وتنضم جميع الأعضاء إلى الشفتين المتعطشتين إلى العناق المعتق بالشوق واللهفة.

هم يقولون أن القبلة التي لا تقتلك لا تستحق أن تعيش بعدها، نسوا أن يضيفوا أن القبلة التي لا تأسرك لا تستحق أن تعيش بعدها حرا،وأن القبلة التي لا تعيدك إلى الحياة لا تستحق بعدها أن تحيا، بل هي لا تستحق أن تسمى قبلة.

حين تتصافح الشفاه وتتعانق الألسن ويمتزج الريق بالريق وتلتحم الأنفاس الملتهبة من حرارة اللقاء تنمو شجرة الحب مترعة بمزيد من الشوق واللهفة.

إذ كلما توغل العاشق في شفاه معشوقه كلما اشتاق إلى القرب منه أكثر وأكثر، فالقبلة لا تطفئ نيران القلب المشتعلة وإنما تزيدها تأججا واشتعالا.

وما هو إلا أن قرأت أول سطر من الرسالة حتى تملكها الخجل فاحمر وجهها من شدة الحياء والخجل، ثم قالت له على الفور:

ـــ يا لك من وقح يا خالد، لماذا لم تخبرني بموضوع وصفك؟

قال لها وهو يعرف ما بداخلها من فضول لمعرفة ما كتبه:

ـــ قد أخبرتكِ أنها جريئة أكثر من اللازم.

ـــ لكنك لم تخبرني بموضوعها.

ـــ لا بأس، إن لم يعجبكِ فأعطني الورقة وكأني لم أكتب شيئا.

ــ كلا، لن تأخذها، سوف أتولى أنا عملية التخلص منها بنفسي، ثم وضعتها داخل حقيبتها من غير أن تقرأ منها شيئا.

كان يعرف أنها تحتال عليه لكي تقرأها وحدها حتى لا يراها وهي صريعة الخجل فتعامل معها بقاعدة المعرّي التي وضعها في بيته المشهور:

ليــــسَ الــــغــــبــــــيُّ بســــيّد فِــــي قــــومِــــــهِ

لــــكـــــــنَّ ســــيّد قــــومِـــــــــهِ المُتَغَابِـــــــــــي

ثم أخذته الذاكرة على غير ما يهوى إلى الوراء بضعة أشهر، وتحديدا إلى تلك الأيام التي تقدم فيها لخطبتها.

تذكر أن كل شيء في بداية تقدمه لخطبتها كان يسير على ما يرام، فهي قد أخبرته بأنها ستفعل لأجل أن تتم خطبتهما كل ما بوسعها، بل قالت له باللفظ:

ــ سأفعل المستحيل كي يتحقق ذلك.

وسعيد كان قد قال له:

ــ لا تقلق فما دامت معك وتحبك فلن تكون لغيرك.

ومنصور قال له بأن والدها استقبله في بيته أحسن استقبال، وكان قد رأى في وجهه علامات القبول.

فلماذا انتهى الأمر بالرفض!

ولماذا لم تفعل هي المستحيل لإتمام الأمر كما أخبرته!

لم يكن يدري، كل الذي كان يعرفه هو أن منصور أخبره بأن والدها سوف يرد عليه بعد أسبوع في شأن خطبتهما، فمضى أكثر من عشرة أيام دون أي ردود منه مما يعني أن طلب خطبته قد تم رفضه.

وحين اتصل بها وسألها عن الأمر بعدما مضت تلك الأيام العشرة قالت له:

ـــ بعدما كان أبي مسرورا بالموضوع لاسيما وقد أبديت له القبول رجع بعد ثلاثة أيام وأخبرني بعدم موافقته على ارتباطي منك، وحينما رأى تمسكي بك ازداد عنادا وأقسم بالله بأنه لن يزوجني منك أبدا ما دام حيا.

وها هو الآن مصمم على ارتباطي من ذلك الذي تقدم إلي قبلك.

فقال لها:

ـــ وماذا أنت فاعلة؟

ـــ لا شيء بيدي، يبدو أن الله قد كتب علي أن أكون لك بقلبي فقط.

فقال وقد علا صوته وازداد خفقان قلبه:

ـــ وماذا يعني هذا؟

تمتمت قليلا ثم قالت:

ـــ لا أعرف ماذا أقول لك يا خالد، ولكن أبي يرفض موضوعنا رفضا مطلقا، ويقول أنك غير جدير بي، وأنه لا يتشرف بأن يزوجني من سارق!

ـــ سارق؟ أنا سارق!

ـــ هو يقول ذلك، ليست المشكلة في أبي فقط، ولكن إخوتي يوافقونه على ما يقول.

وما دمت لن أكون لك، فسيان عندي أن أكون لغيرك أو لا أكون لأحد، لذلك فقد أبديت لهم موافقتي على ذلك الذي تقدم لخطبتي قبلك بعدما رأيت تمسكهم به.

نزلت تلك الكلمات عليه نزول الصاعقة على البدن فلم يدر ما يقول، ثم لم يجد كعادته حين يصاب بالألم الذي يعجز عن تحمله غير الضحك، فظل يضحك ضحكات عالية ثم توقف فجأة وقال لها:

ـــ أهذا هو المستحيل الذي ستفعلينه؟ هذا هو جزائي منك يا فاتن!

أنا لم أسافر إلا لأجلكِ، لم أقصد الغربة التي أجد الآن مرارتها إلا لأجلك، سافرت وقلبي بداخله نيران مشتعلة من فقد أمي الذي لم يمضِ عليه سوى وقت قصير لأجلك، تركت خلفي أختي المريضة تعاني مرارة الوحدة إلى أن ماتت ولفظت أنفاسها الأخيرة في غيابي لأجلك، وفي النهاية هذا هو جزائي.

قالت له وقد تغيرت نبرة صوتها:

ـــ لا أدري ما أقول لك يا خالد، أرجوك لا تكن متجنيا علي.

فقال لها وقد جف ريقه، وانخفض صوته، كأنما يخرج منه بمشقة:

ـــ لا تقولي شيئا، فالحال يغني عن المقال، وعلى أي حال فأنا أتمنى لك التوفيق.

إن شاء الله بمجرد أن أغلق معك الآن سأحطم شريحة الهاتف التي عليها رقم هاتفك حتى تطمئني إلى أنني لن أزعجك مرة أخرى باتصالي، وأيضا لأني لا أريدك في لحظة ضعف منك أو ربما شفقة علي تعيدين الاتصال بي، فهذه خيانة لحبيبكِ الجديد، ولا أحبك أبدا أن تكوني خائنة.

بكت وهي تقول له:

ـــ خالد،أنا أحبك أنت ولكن....

قاطعها قبل أن تكمل جملتها:

ـــ من فضلك،لا أريد أن أسمع منك هذه الكلمة مرة أخرى، فهي ليست من حقي بعد اليوم، استأذنك في أن أغلق يا ....

ثم أغلق معها من غير أن يتم جملته.

حين تذكر هذه المكالمة انتفض جسده كتلك الانتفاضة التي حدثت له أثناءها، كانت مشكلته مع ذاكرته، لم تكن تنسى المواقف المؤلمة بسهولة، لذلك فهي تذكره بتفاصيل كل شيء دون أن تسقط منه شيئا.

لم يكن يدري هل لازال يحبها، أم أنه قد صبح يكرهها، أم هو يحقد عليها، إذا كان يحبها فلماذا يشعر بأنها خائنة تستحق العقاب!

وإذا كان يكرهها ويحقد عليها فلماذا يشعر الآن بشوق قاتل إليها، ولماذا يغلبه حنينه إليها دوما كلما تذكرها.

هو لم يكن ينساها مطلقا لكي يتذكرها.

ثم تذكر رسالتها له، والتي أوصته ألا يقرأها إلا وهو على متن الباخرة في وسط البحر، والتي كانت تقول لها فيها:

ـــ أشهدك وأشهد البحر والسماء، والسمك والهواء أني أحبك من أول لحظة وقعت فيها عيني عليك تحت الشجرة التي كانت شاهدة على حبنا في الحديقة، وأن حبك بداخلي ينمو على مر الأيام كما ينمو الجنين في رحم أمه حتى ليكاد قلبي يضيق عن كل ذلك الحب، وأعاهدك للمرة الثالثة على مرأى ومسمع منهم جميعا على أن أكون في انتظارك، مهما بعد مقامك وطال غيابك.

أسيرتك في الهوى:

فاتن.

قال بصوت يسمعه وكأنه يرد على رسالتها:

ـــ وأنا أشهدكِ وأشهد كل ما في هذه الحديقة من نخيل وماء، وورود وهواء، وجماد وبشر، وحجر وشجر أنكِ خائنة.

كما أشهدهم جميعا وأشهدك أنني ومع كل ذلك لا أزال على الرغم مني أحبكِ.

****

رجع إلى البيت مرة أخرى مثقلا بمزيد من الأحزان التي كان يرجو أن ينفيها عن نفسه بذهابه إلى الحديقة.

كانت المغرب قد أوشكت على الأذان، ولم يكن قد أكل أي شيء منذ الصباح.

كانت علياء قد أعدت طعاما كثيرا احتفالا بقدومه، فجلس يأكل مع منصور للمرة الأولى بعد رجوعه من السفر، وبالرغم من أن علياء قد أعدت له الطعام الذي يحبه إلا أنه لم يأكل غير القليل منه، ثم قام فغسل يديه.

قال منصور لعلياء وهو يوجه خطابه لخالد بشكل غير مباشر:

ــ لابد وأن الطعام لم يعجب خالد يا علياء، لذلك لم يأكل منه سوى القليل.

فبادره خالد قبل أن ترد علياء بأي رد بقوله له:

ــ بل أعجبني كثيرا، وقد أكلت منه حتى شبعت.

ثم حول مسار الحديث سريعا فقال لعلياء:

ــ أحضري الأولاد فأنا أريد أن أشاكسهم قليلا.

فقام بحملهم واللعب معهم قليلا، ثم أعطى خالد الصغير مائة جنيه، وأعطى مائة أخرى مناصفة بين جهاد وجميلة، ثم دخل إلى غرفته لكي يفتح الحقائب ويعطيهم الهدايا التي جلبها لكل واحد منهم.

استوقفتهُ هدايا فاتن، سأل نفسه: لماذا اشتريت لها هدايا وأنا أعرف أن إعطائي لها من المستحيلات!

لم يعرف للسؤال جوابا غير أنه فعل ذلك لا إراديا من غير أن يفكر فيما إذا كانت ستأخذ منه هداياه أو لا.

بل هو لم يفكر في إعطائها لها ولو للحظة واحدة، ربما فقط أراد أن يستمتع بشرائه هدايا لحبيبته، بغض النظر عما إذا كانت ستأخذها أو لا.

لم يكن قد اشترى لعلياء غير بعض الهدايا القليلة، فقرر أن يضم لها كل الهدايا التي اشتراها لفاتن.

ابتسم وهو يتذكر قول المتنبي:

بِذا قــضتِ الأيامُ بــــينَ أهْــلِــهَـــا

مصائِبُ قـــومٍ عند قومٍ فـــــوائِدُ

فلو لم يحدث ذلك الذي حدث لما أخذت علياء من تلك الهدايا كثيرا ولا قليلا، وها هي تستولي عليها جميعا.

تردد في إعطائها الساعة أيضا أو لا، لم يكن تردده لأنها غالية الثمن، ولكن لأنه لم يكن يريد أن يراها في معصمها فيتذكر فاتن كلما رآها.

ولأنه لم يكن ينساها مطلقا حتى يخشى من تذكرها فقد قرر أن يضم الساعة أيضا إلى قائمة الهدايا التي سيعطيها لها.

خرج فأعطى لمنصور الهدايا الذي اشتراها له هو وزوجته وأولاده.

كان يعلم أن علياء ستسعد بهذه الهدايا التي لم تتوقع منه أن يشتريها لها، ولا هو كان يتوقع ذلك!

كان يود أن يخبرها بأن أكثر هذه الهدايا لم يجلبها لها، وإنما لامرأة أخرى، كان يود أن يعكر عليها صفو فرحتها بها، ولكنه كان يعلم أنها لن تكترث لمثل هذا، لم يكن عنده شك في أن إخباره لها لن يشغلها في شيء، ما دامت في النهاية ستستولي على كل شيء.

رجع إلى غرفته مرة أخرى لكي يأخذ هدايا محمود التي اشتراها له، كان قد اشتاق إلى رؤيته كثيرا، ورأى أن عليه أن يذهب إليه لكي يعجل بإعطائه إياها.

وما إن خرج من غرفته بها وهم بالخروج من المنزل حتى سأله منصور قائلا:

ــ إلى أين أنت ذاهب يا خالد؟

أجابه:

ــ سأذهب إلى محمود، قد جلبت له معي هذه الهدايا، وأريد أن أعطيها له، كما أنني أشتاق كثيرا إلى رؤيته.

قال له:

ــ من المؤكد أن محمود كان يعلم بحبك لفاتن يا خالد، أليس كذلك؟

تعجب من حديثه عن فاتن، وأنه لا زال يذكر اسمها، فأجابه وهو لا يزال متعجبا:

ــ نعم، كان يعرف ذلك منذ بدايته، تعرف أنه صديق عمري، وأني لا أكتم عنه شيئا.

فقال له:

ــ إذن فمن الأفضل ألا تذهب إليه.

ازداد به العجب،فسأله على الفور:

ــ ولم؟

فقال له:

ــ هل تعرف أن محمود سيتزوج يوم الأربعاء القادم؟

ــ بلى، أعرف ذلك، فقد أخبرني بالأمر عندما كلمته آخر مرة، بل إن زواجه هو أكبر الأسباب التي جعلتني أعجل بعودتي.

ــ هل تعرف من هي مخطوبته يا خالد التي سيتزوجها؟

ــ كلا، لا أعرف، ولم أحاول أن أعرف، لأن الأمر لا يعنيني في شيء، كما أنه لم يخبرني.

فقال له وقد ارتفع صوته الذي بدا عليه شيء من الحزن:

ــ بل يعنيك يا خالد.

خطيبة صديقك محمود التي سيتزوج منها بعد ثلاثة أيام هي فاتن.

لم يجد ردا على ما سمعه منه غير الصمت.

أحيانا يكون الصمت أبلغ من كثير من الكلام، كما يحدث أن يكون أحيانا هو الرد الوحيد الذي لا نجد عنه بديلا في تلك المواقف التي تلجم الصدمة فيها ألسنتنا التي اعتادت الانطلاق.

كان ذلك الخبر الذي سمعه من منصور هو قاصمة الظهر بالنسبة إليه، ومع أنه حاول أن يتجلد أمامه حين رماه به إلا أن أثر الصدمة قد كان جليا على ملامح وجهه التي تغيرت فور سماعه له.

للحظات شعر أنه عاجز عن الوقوف على قدميه، ولكنه لم يكن يريد أن يكشف عن جراحه أمام أخيه.

كان يجب أن يسدل على جراحه ستائر سميكة من الابتسامات المصطنعة التي لا تشف ما خلفها من الألم القاتل.

رجع إلى غرفته مرة أخرى ليقضي فيها ليلة مخضبة بدموع قلبه الذي يكاد من هول مصابه يبكي دماء.

هي قالت له:

ـــ ما دمت لن أكون لك فسيان عندي أن أكون لغيرك أو لا أكون لأحد.

فهل هو يستطيع الآن أن يقول مادمت لستِ لي فسيان عندي أن تكوني لصديق عمري أو تكوني لغيره!

****

(الفصل التاسع)

بعد ليلة ليلاء لم يعرف فيها النوم إلى عينيه سبيلا أشرقت الشمس كعادتها إيذانا منها بميلاد يوم جديد.

كان ذلك الصباح في عينيه أسودا كتلك الأثواب الخفية التي أحاطت روحه حدادا على سعادته التي ذُبحت في منتهى القسوة والشراسة.

نظر في ساعته التي شقي بها،أو ربما هي التي شقيت به من كثرة ما كان ينظر إليها ويحثها على الإسراع طوال أيام غربته، فتذكر أنه اشترى ساعتين من نفس المكان وفي نفس التوقيت لفاتن ومحمود.

لم يكن يعرف أن أسماءهما ستظل ملتصقة معا التصاق ساعتيهما حين وضعهما معا في حقيبة واحدة قبل أن يسافر.

في تمام الساعة الثامنة صباحا خرج من غرفته وقد شحب وجهه وبدا عليه التعب والإنهاك.

كان منصور يشاهد التلفاز والشرود ظاهر عليه.

جلس بجواره ليبدأه بسؤاله له:

ــ لماذا لم تخبرني يا منصور أن محمود هو الذي خطب فاتن منذ حدث ذلك؟

سكت قليلا وكأنه يقدم إليه اعتذارا صامتا، ثم أغلق التلفاز وقال له:

ـــ كنت أعرف أنك ستنزعج كثيرا لو عرفت، لذلك آثرت ألا أخبرك، ثم ماذا كان بيدك أن تفعل غير أن تحمل نفسك من الحزن فوق ما تطيق.

ـــ متى تمت هذه الخطبة؟

ـــ بعد أن تقدمت أنت لها بأيام قليلة.

تيقن ساعتها أن محمود هو ذلك الشاب الغني الذي تقدم لخطبتها قبله بيومين اثنين، ولكن كلام منصور لم يشفِ غليله، كان يريد أن يعرف تفاصيل كل شيء.

كان لا يزال يجهل إذا ما كان محمود يعرفها قبل أن يخطبها أو لا، وهل كان يعرف قبل أن يفكر في خطبتها أنها هي فاتن التي يحبها، أم أنه مجرد تشابه حروف.

وهل كانت فاتن تعرف أن محمود هو صديقه الذي كان يحدثها أحيانا عن بعض أخباره وصداقته به من غير أن يتطرق معها قط لشيء من ذلك الذي وقع بينهما.

أسئلة كثيرة كانت تجول بخاطره في تدافع وازدحام.

وبعد أن تناولا معا الإفطار الذي لم يأكل منه غير لقيمات صغيرة عاد إلى غرفته قبل أن ينطلق منصور إلى عمله.

كان لا يزال يبحث عن تلك الإجابات التي لا يعرفها غير محمود.

فكر للحظات أن يذهب إليه ويسأله عن كل هذه الأسئلة، ولكنه كان يعرف أنه سيروغ منه كما تروغ الثعالب.

كان قد عزم زيارة سعيد في منزله في ذلك اليوم، وفكر في أن يسأله عن بعض تلك الأسئلة فلربما وجد عنده إجابة على أي منها، ولكنه استحيا من أن يسأله في أول مرة يزوره فيها بعد عودته مثل هذه الأسئلة.

كما أنه على الراجح لن تروق له أسئلته وهو على تلك الحالة التي يرثى لها.

فمنذ انقلبت به السيارة حينما كان في السعودية أثناء عمله وهو في حالة سيئة، حيث استدعت حالته بتر ساقه اليسرى، فاضطر إلى العودة إلى مصر بساقين إحداهما من الخشب.

وبعد قليل من التفكير والتروي قام بالاتصال بمحمود وأخبره بأنه يريد زيارته في بيته.

ما إن وصل إلى بيته في تمام الساعة الحادية عشر صباحا حتى استقبله محمود بالعناق والتقبيل.

كانت مشاعر خالد نحوه في تلك اللحظات أبرد من الثلج، ومع هذا فلم يجد بدا من اصطناع الفرحة والسعادة بلقاء صديقه.

لم يكن يعرف لماذا ذهب الآن إلى زيارته مع علمه بأنه هو الذي خطف منه حبيبته.

هل ذهب لكي يعطيه الهدايا التي اشتراها من أجله، والتي كان على رأسها بذلة زفافه التي اختارها له بعناية، أم ليدقق فيه النظر عن قرب فلعله أن يجد فيه الشيء الذي يميزه عنه والذي رآه فيه أهل فاتن حين فضّلوه عليه.

أم كانت زيارته إليه زيارة بريئة من أجل أن يرى صديق الطفولة ورفيق الصبا والشباب.

أما جميع أشواقه إليه فقد تجمدت بداخله منذ عرف بخبر خطبته من فاتن.

أخذ يطوف بعينيه في أرجاء المترل، لم يعرف في المترل شيئا مما كان يعرفه قبل سفره، فقد تغير فيه كل شيء، حتى جدرانه غدت مطلية بألوان فاقعة تسر الناظرين.

أجلسه محمود في صالة الضيوف كأي ضيف عابر.

في القديم كان يجلس معه في غرفته الخاصة، الآن قد تم إقصاؤه إلى الخلف غرفتين ومطبخا ليكون مقعده على أريكة الصالة شأنه شأن غيره من الزائرين.

لاحظ محمود صمته فبدأه بالكلام:

ـــ كيف حالك يا خالد؟ اشتقنا إليك كثيرا يا صديقي.

رد عليه بكلمات باردة كمشاعره المتجمدة تجاهه:

ـــ الحمد لله، كيف حالك أنت يا محمود؟

ـــ أنا في دوامات كثيرة، تعرف أن زفافي سيكون في يوم الأربعاء القادم، أي أنه لم يعد أمامي غير يومين اثنين كي أنجز خلالهما الكثير من الأشياء.

لم يكن خالد يعرف إذا ما كان محمود لا يعرف بأن التي سيتزوج منها هي حبيبته التي كان يكلمه عنها، أم أنه على علم بذلك ولكنه يتعمد أن يظهر أمامه بأنه لا علم له بشيء.

لم يجد بدا من أن يتظاهر أمامه هو الآخر بأنه لا يزال يجهل كل شيء، ثم أعطاه الهدايا التي جلبها له.

أخذ منه هداياه، ثم قال له:

ـــ ما كل هذا يا خالد، ما كان لك أن تتعب نفسك.

تكلف رسم الابتسامة على وجهه وهو يقول له:

ـــ أنت أقرب أصدقائي إلي يا محمود، فإن لم أتعب نفسي لأجلك فلمن أدخر التعب!

ولكن أخبرني هل ستتزوج هنا؟ يبدو لي البيت مؤهلا لاستقبال العروس، ولكني لا أظنك تفعل هذا.

ـــ أصبت، سوف أتزوج في شقة اشتريتها على النيل منذ ستة أشهر، والله يا خالد اشتريتها بنصف مليون جنيه، أصبحت الأسعار مرتفعة هذه الأيام بشكل لا يطاق.

لم يستغرب خالد أن تكون لغته الآن هي لغة الأرقام بعد أن ورث عن والده أموالا طائلة، فالأرقام هي اللغة المشتركة بين جميع أرباب المال.

ظل معه قرابة النصف ساعة، ثم ذهب من عنده وهو أكثر ضجرا من ذي قبل، لم يكن ضجره من أجل رده على العديد من الاتصالات التي وردته على هاتفه فقط، ولكن لأنه لم يستشعر ولو للحظة واحدة أنه يجلس مع صديقه الذي كان يعرفه، بل ولا حتى ذلك الذي كان غاضبا منه لأجل شيء هو منه بريء ويتمنى أن يثبت له براءته بأي طريقة كي ينفض عن صداقتهما القديمة ما شابها من كراهية وحقد.

عاد إلى البيت بخطوات سريعة، كتلك التي يخطوها عاشق تأخر عن موعده مع حبيبته، كان لقاؤه الذي يخطو نحوه بهذه الخطوات السريعة مع العزلة.

كانت لديه رغبة ملحة في أن يجلس مع نفسه بعض الوقت كي يسرد الأحداث ويحلل المواقف.

ظل في غرفته من غير أن يخرج لطعام أو صلاة حتى دخل الليل في النهار وعاد منصور من الورشة.

تذكر أنه كان عليه أن يذهب إلى زيارة صديقه سعيد، لم تكن لديه أي رغبة في أن يخرج من المترل أو يقابل أحدا، ولكنه تحامل على نفسه من أجل صديقه، كان يغلب على ظنه أنه سيحمل في نفسه عليه إن هو علم بعودته من السفر من غير أن يذهب إلى زيارته.

لا زال يتذكر كلمات سعيد حين ذهب لزيارته في المشفى بعد الحادثة التي وقعت له مباشرة، وقبل أن يقوم الأطباء ببتر ساقه.

يومها قال له وهو يتصارع مع الألم:

ـــ إن مت يا خالد فسامحني، فقد آذيتك كثيرا، مع أنك لم تكن تستحق ذلك مني.

ابتسم له خالد وهو يقول له:

ـــ على أي شيء أسامحك يا سعيد، وهل فعلت معي غير كل خير، وإن كنت تقصد أن أسامحك على أن أصدقاءك في الشقة اقموني بالسرقة فهذا أمر لا شأن لك به، وقد دافعت عني قدر استطاعتك إلى أن ظهرت براءتي، فأنا المدين لك بالشكر.

ثم قام بإعطائه ألف ريال وهو يقول له:

ـــ هذا مبلغ يسير، أعرف أنك لا تحتاج إليه، ولكن اجعله معك فلربما احتجت إليه بعد خروجك من المشفى.

كان يعرف أنه بحاجة إلى هذا المبلغ بشكل كبير، لاسيما وقد علم من الأطباء ضرورة بتر ساقه، وعلى الراجح فسيرجع إلى مصر في أقرب وقت.

فقال له سعيد:

ـــ لا أعرف كيف أشكرك يا خالد، ولكني قد لا أستطيع أن أرد لك ذلك المبلغ.

ـــ إن تيسر لك رده فهو خير، وإن لم يتيسر فهو هدية مني لصديقي العزيز.

كانت هذه الحادثة قبل نزول خالد إلى مصر بشهرين، وقد تركت في نفسه الكثير من الحزن الذي كان في غنى عن مثله.

ذهب إلى سعيد في مساء ذلك اليوم، ففتحت والدته له الباب، ثم صافحته وهي تبارك له على عودته سالما.

رد على مباركتها بالشكر، ثم سألها عن حالة سعيد النفسية، كان يعرف أنه يعيش في حالة نفسية سيئة.

قالت له وقد اجتاحها الحزن:

ـــ منذ رجع وهو جالس في غرفته، لا يريد أن يدخل عليه أحد، ولا أن يتكلم مع أحد، حتى الطعام لا يأكله إلا بعد أن نتوسل إليه، لكي يستطيع أخذ الأدوية.

فقال لها وهو لا يزال واقفا:

ـــ لا بأس عليه يا خالة، إن شاء الله سيكون بخير، هل يمكنني أن أدخل عليه أم سيرفض مقابلتي أنا أيضا؟

ـــ سأدخل وأبلغه يا بني، تفضل بالجلوس لحين استأذن لك منه.

ذهبت إلى غرفته تستأذنه في أن يدخل عليه فسمع صوته من الداخل وهو يقول لها:

ــ وهل خالد يستأذن في الدخول يا أمي، أدخليه بسرعة.

ما إن دخل خالد حتى شرع سعيد في البكاء، فأقبل نحوه يحتضنه وهو يقول له:

ــ حمدا لله أنك بخير يا سعيد.

ــ ومن قال أنني بخير، ها أنا كما ترى أمامك، جسد مشوه لا يصلح لشيء إلا أن يكون مثيرا للشفقة.

ــ هذا قضاء الله يا سعيد، وأنت مؤمن وتعرف أن قضاء الله كله خير، وعليك أن تصبر على مصابك.

ــ نعم يا خالد، علي أن أصبر، فماذا سيحدث إن لم أصبر؟ هل ستعود إلي ساقي المفقودة!

ليس أمامي إلا أن أصبر أورضى.

دعك مني وأخبرني كيف حالك أنت؟

أجابه بعد أن خرجت منه تنهيدة مشبعة بالكثير من الحزن والشجن:

ــ الحمد لله، أعيش كما يعيش الناس.

ــ لا يا خالد، أنا أعرف ما بك، أنت تتألم بسبب زواج محمود الذي سيكون بعد يومين.

ذلك المخادع لم يفكر حتى في دعوتي إلى زفافه.

نظر إليه وهو يقول له:

ـــ ولماذا أتألم من زواجه يا سعيد؟ تعرف أن محمود من أقرب أصدقائي إلي.

ـــ أعرف هذا يا خالد، كما أعرف أيضا أنه سيتزوج من فاتن التي كنت تحبها، والتي لولا منازعته لك فيها لكانت لك من دونه.

بدا على وجه خالد الكثير من الحزن الذي كان يجتهد في أن يظل بداخله وهو يقول له:

ـــ الحمد لله على كل شيء، إنما هو النصيب أولا وأخيرا.

ثم صوب نظره إليه وهو يقول له:

ـــ ولكن هل تعرف شيئا عن تفاصيل خطبته منها وكيف تمت؟

فقال له بنبرة أربكته:

ـــ بل أعرف كل شيء، وسأخبرك بكل الذي حدث فلعلك أن تسامحني، وإن كنت أعرف أن الذي فعلته معك لا مسامحة فيه.

اتسعت عينا خالد في دهشة، ثم قال له:

ـــ عن أي شيء تتحدث، وما الذي تقصده، لقد أقلقتني كثيرا، ما الأمر؟

ـــ سأروي لك كل ما حدث حتى تكون على بصيرة من أمرك ولكن لا تقاطعني.

ـــ أرجو أن تفعل ذلك فقد نفد صبري.

تنهد تنهيدة طويلة، ثم سكت قليلا، وبعدها شرع في الحديث فقال:

ـــ عندما ذهبت هدير خطيبة محمود الأولى إليك في بيتك من غير أن يعرف بالأمر منك أو منها بدأت الشكوك تأخذه نحوكما، وظن أنك تخونه مع خطيبته، ومما أكد له تلك الشكوك أن زوجة شقيقك منصور أرسلت له من يخبره بأن هدير ترددت عليك في المترل أكثر من مرة، وأنها كثيرا ما كانت تسمعك وأنت تكلمها في الهاتف، ثم اتصلت به بنفسها لتؤكد له كل ذلك بنفسها.

قاطعه خالد وقد بدا الغضب على وجهه وعينيه:

ـــ ولكن لم يحدث أي شيء من ذلك الذي ترويه مطلقا، لا يمكن أن تكون زوجة أخي هي التي اختلقت كل هذا!

فقال له:

ـــ هذا ما أخبرني به محمود عندما لجأ إلي.

ـــ عندما لجأ إليك؟ وفي أي شيء لجأ إليك محمود!

ـــ ألم أقل لك لا تقاطعني وسأخبرك بكل شيء.

ـــ حسنا، أكمل.

استرسل في كلامه فقال:

ـــ عندما عرف محمود كل هذه الأشياء عن طريق زوجة أخيك بات ظنه يقينا لا شك فيه، وبعد أن فسخت هدير خطبتها منه بسبب اتهامه لها ساءت حالته النفسية لأنه كان يحبها كثيرا، ومن يومها فقد أصبح لا يفكر في شيء عدا أن ينتقم منك شر انتقام.

عندما أغريتك بالسفر وأخبرتك بمزاياه وبأني يمكنني أن أساعدك في أن تسافر كان ذلك بتحريض منه، كان يريدك أن تبتعد بأي طريقة، كي يستطيع أن يأخذ منك حبيبتك.

كان قد قرر أن يحرمك منها، وليس هذا وفقط، ولكن عزم أن يتزوج هو منها حتى يكون قد انتقم منك الانتقام الذي يثلج صدره المكلوم.

ولأنه هو الذي أقرضني المال الذي سافرت به إلى المملكة العربية السعودية على سبيل الهبة، وساعدني على السفر، فلم يكن أمامي إلا أن ألبي له ما يطلبه مني كائنا ما كان.

كنت أعطيه جميع أخبارك وأنت في السعودية، وأطلعه على جميع شؤونك.

حادثة السرقة التي تمت في الشقة كانت من تدبيره لكي يجبرك على أن تصبح مشردا ولا يكون أمامك إلا أن تعود إلى مصر مرة أخرى وأنت غارق في ديونك.

كان دوري هو أن أنفذ خطته المحكمة في الوقت المناسب.

وفي صباح ذلك اليوم الذي نزلت بك فيه الحمى عرفت أنك لن تخرج من الشقة، فانتظرت حتى خرج الجميع، ثم قمت بسرقة الألف ريال التي اتهمت أنت بسرقتها.

كنت أعلم أن الجميع سيتهمونك بسرقتها لأنه لم يكن في الشقة أحد غيرك، ولأنك كنت بحاجة إلى المال، وجميعهم كان يعرف ذلك.

وحينما أجمعوا على طردك من الشقة رأيت أن أعيد المال إلى مكانه خشية أن تفعل بنفسك شيئا، فكل الذي كان يعني محمود هو أن تطرد من الشقة، وكنت أعلم أنني حتى وإن أرجعت المال فإن كرامتك ستأبى عليك أن تجلس معنا بعد أن اتهمناك بالسرقة.

وهذا ما حدث بالفعل.

لكن آمال محمود قد خابت عندما عرف أنك لن تغادر السعودية، فطلب مني أن أتقرب منك، وأن أعطيه جميع أخبارك، فكنت أتصل بك من آن إلى آخر، وأعطيه جميع ما أعرفه عنك من تفاصيل حياتك في الغربة.

وقبل أن يقوم بالتقدم إلى أهل فاتن لأجل خطبتها كان قد قام بحيلة خبيثة تجعلهم يوافقون عليه على الرغم منها.

كانت خطته عبارة عن إرساله بضعة أشخاص يتقدمون لخطبتها في أوقات متقاربة، كان يعرف أنها سترفضهم جميعا، لاسيما وأكثرهم إما فقير أو غير جامعي.

المهم أنه كان يتخير أشخاصا بعناية يكون في كل واحد منهم عيبا لكي يتم رفضه من أجله، حتى إذا ذهب هو لخطبتها لم يمكنهم الرفض لأنه كان مناسبا بشكل كبير، لاسيما إذا ما وضع في مقارنات مع من يتقدمون لخطبتها، وأيضا لأن سمعتها حينها كانت ستسوء بسبب رفضها لأناس كثيرين بسبب وبدون سبب.

وقد استعان في ذلك بأخيها الذي يكبرها مباشرة والذي بدأ يتقرب منه ويتودد إليه قبل أن يتقدم لخطبتها، وقد أغدق عليه الكثير من الهدايا والمال، بعد أن جعله يعمل عنده في شركته التي أسسها قبل أن يموت والده بأشهر قليلة.

وحينما عرفت منك أنك قد تقدمت لخطبتها عندما دعوتك لزيارتي في الشقة أثناء عيد الأضحى قمت بإخباره بذلك مباشرة.

فما كان منه إلا أن غضب غضبا شديدا، لأنه شعر أن جميع ما خطط له يوشك أن ينهار، وأن يذهب سدى، ثم أغلق معي بعد أن أخبرني بأنه سيتصل بي مرة ثانية بعد يوم أو يومين.

ثم كلمني بعد يومين فأملى علي رقم والد فاتن، وطلب مني أن أقوم بالاتصال به، وأن أخبره بأنني علمت بأنك قد تقدمت لابنته، فأردت نصيحته ابتغاء الأجر من الله.

ما كان مني إلا أن فعلت ما طلبه مني، فقمت بالاتصال بوالدها، وكانت نصيحتي له أن يقوم برفض خطبتك من ابنته، بحجة أنك سارق، وقد سرقت أموالنا حينما كنت تسكن معنا، فما كان منا إلا أن قمنا بطردك من الشقة التي كنت تسكن معنا فيها.

ثم جعلت واحدا من الذين كانوا يسكنون معنا يؤكد له صحة كلامي بعد أن أغريته ببعض المال والسجائر.

ثم نكس رأسه إلى الأرض وهو يقول له:

ـــ أعرف أنك الآن تجد في نفسك كرها كبيرا علي لأنني أسأت إليك إساءة كبيرة في الوقت الذي كنت تحسن فيه إلي.

لكن الله قد كفاك مؤنتي، وانتقم لك مني أشد انتقام، فقد أبى إلا أن يسلبني أحد أعضائي جزاء لي على ما فعلت.

فقال له وكأنه لم يكترث إلى كلماته الأخيرة:

ـــ إذن فكل الذي حدث لي كان من تدبير محمود!

ألهذا كان حريصا على أن أحضر زفافه؟ يريد أن يستمتع بنظراته إلي وأنا أحترق من رؤيته يجلس بجوار فاتن.

هل وصل به الحقد إلى تلك الدرجة التي أماتت قلبه بداخله!

ــ لا تذهب إلى ذلك الزفاف يا خالد كي لا تعطيه تلك الفرصة.

تنهد تنهيدة عظيمة وقد استحال وجهه إلى كتلة من الحزن والغيظ ،ثم قال له متجاهلا نصيحته:

ــ لقد قرأت كثيرا عن الصداقة وشروطها ولوازمها ومقتضياتها، وما للصديق على صديقه.

فقرأت أن الصديق لا يغدر بصديقه، فوفيت لهم وغدروا بي، فقلت لا بأس، لعلهم لم يقرأوا هذا.

وقرأت أن الصديق لا يكذب صديقه، فصدقتهم وكذبوني، فقلت لا بأس لعلهم لم يقرأوا هذا أيضا.

وقرأت أن الصديق لا يمس كرامة صديقه أبدا، فجعلت بيني وبين كرامتهم أسوارا عالية، وحواجز منيعة، فداسوا على كرامتي بأحذيتهم، فقلتُ لا بأس، لعل هذا أ]ضاً لم يقرأوه!

وقرأت أن الصديق يقف بجوار صديقه في الشدائد فوقفت بجانبهم في أحلك الأوقات، وفي أحلك أوقاتي خذلوني، فقلت لا بأس، وربما هذا أيضا لم يقرأوه.

فهل الصداقة اختفت من دنيا الناس فلم يعد لها وجود، أم أنني من ابتلي بصداقة قوم صم بكم عمي فهم لا يقرؤون!

ثم قال له وقلبه يعتصر من الألم:

ــ تعرف يا سعيد.. أتمنى أن أسامحك أنت ومحمود، وأتمنى أن أسامح فاتن أيضا، وكذلك زوجة أخي منصور، ولكني أعرف أنني لن أستطيع أن أسامحكم أبدا.

ثم قام فانصرف من عنده دون أن يستأذنه في الذهاب.

****

في طريقه إلى البيت شعر بالحقد يتسلل إلى أعماق قلبه حتى استولى عليه بجملته، قرر في تلك اللحظات أن ينتقم منهم جميعا.

كان يريد أن يثأر لنفسه التي وقعت فريسة بين أنياب أحقادهم.

لم يكن عنده أدنى شك في أن له عندهم جميعا حقا، وأنه إن لم يأخذ حقه منهم فلن يقوى على أن يقف أمام المرآة يوما من الأيام كي لا يرى ضآلته.

انحرف عن طريق البيت ليمارس هوايته مع المشي، كان بحاجة إلى أن يفكر بعمق كبير حتى يستخلص ما عليه أن يفعله، كان المشي مصدر إلهام بالنسبة له.

لم يكن يعرف كيف ينتقم منهم، ولا بمن يبدأ انتقامه.

هل يبدأه بمحمود الذي طعنه في ظهره طعنة الغدر التي قتلت بداخله كل مشاعره الجميلة نحوه، أم يبدأه بسعيد الذي كان آلة صماء في يده يديرها حيث يشاء وكيفما شاء.

أم ينتقم من فاتن التي غدرت به متناسية وعدها له، وما كان بينهما، فساعدت بذلك محمود على أن ينفذ خطته القذرة.

لم يكن عنده أدنى شك في أنها كانت تستطيع أن ترفض خطبته منها، وأن تنتظره لحين عودته رغم موقف والدها وإخوتها، ولكن أغرتها أمواله، أو ربما أغراها أهلها بأمواله، فنسيت أو تناست أن هناك من يعاني لأجلها الأمرين.

كان يستطيع أن يُشهر بها ويفضحها بتلك الرسائل التي كان محتفظا بها، والتي أرسلتها له مذيلة بإمضائها، وأيضا بما معه من صور لها قد كتبت له على ظهرها أجمل كلمات العشاق.

ظل يفكر طويلا في الطريقة التي تمكنه من الانتقام منهم جميعا، لم يكن يشغله كثيرا أمر علياء، كان يعلم أنها الوحيدة التي لن يتمكن من أن يفعل معها أي شيء، لأن أي فعل يصدر منه في حقها سيكون في حقيقة الأمر اعتداء على أخيه منصور.

ومع هذا فقد كان لها من الحقد الذي اشتعل بداخله النصيب الذي يجعلها تحظى ببعض سهام الانتقام التي سن نصالها.

قرر أن يخبر منصور بما فعلته علياء قديما وظنت أن الأيام قد دفنته في رحم النسيان.

قبيحة هي الخيانة في جميع صورها، وتزداد قبحا حين نجنيها على يد أولئك الذين أوليناهم منا ثقة مطلقة .

ظل يسير وهو لا يعرف إلى أين يتجه، وكلما تقدم خطوة تأججت بداخله نيران الحقد والانتقام.

انتصف الليل وهو لا يزال يسير مثقلا بجراحات عميقة لو كانت في غيره لربما قتلته.

كان أشد ما يؤلمه هو أن جرحه ينزف الآن على يد من كانوا مسكنا لجميع جراحاته يوما من الأيام.

ها هي قد سقطت الأقنعة، وظهرت بشاعة الوجوه التي كانت متنكرة في مهارة ممثل قضى أكثر عمره على خشبة المسرح.

كان يعرف أن القوي هو ذلك الذي لديه القدرة على أن يسامح ويعفو، ولكنه كان على يقين في أن أحدا منهم لا يستحق عفوه أو مسامحته.

وبعد ساعات قضاها مع المشي والتفكير رجع إلى البيت مرة أخرى وقد اشترى علبتين من السجائر.

لم تكن عنده رغبة في التدخين، فهو لم يدخن يوما من الأيام، ولم يعرف للسجائر طعما قبل ذلك اليوم، ولا هي قد عرفت إلى شفتيه طريقا، بل كثيرا ما كان ينكر على أخيه منصور إفراطه فيها.

ولكنه كان كغريق يحاول أن يتعلق بأي شيء ينقذه من الغرق ولو ريشة حقيرة لطائر ضعيف.

رجع إلى البيت وقد نام الجميع، فتوجه إلى غرفته مباشرة، ليسترسل مع فكرة الانتقام التي لم يعد يبصر أمامه أي شيء في الدنيا سواها.

أخرج من جيبه علبة سجائر فأشعل منها سيجارة ملحقا بها أختها، وكلما قضت سيجارة أجلها على شفتيه شرع في إشعال أخرى، حتى أهلك العلبة كاملة في ساعة واحدة.

لم يستشعر أي لذة في شربه للسجائر غير أنه كان يتخيل أنه يسلبهم جميعا آجالهم في سرعة قضائه على سيجارة واحدة من عشرات السجائر التي استعان بها لتخفف عنه بعض همومه، أو ربما لتنضم إليها!

وفي خضم أحزانه تذكر أنه أتى من السعودية لكي يشهد زفاف محمود، فهل سيبقى على العهد ويذهب إلى ذلك الزفاف بعد الذي علمه ليرى في عيني محمود لذة الظفر بالانتقام، أم يختفي عن وجهه حتى يرد له الصفعة صفعتين مفوتا عليه فرصة رؤيته في موقف الضعيف المغلوب على أمره.

عبثا حاول أن يمنع نفسه من التجوال داخل الذاكرة واسترجاع بعض ذكرياته القديمة والتي أصبحت مصدر شقاء له.

وفي محاولة منه للتخلص من أسر الذاكرة أخذ ورقة بيضاء ليكتب بعض الخواطر التي تجول بخاطره.

ومع كون المعاني كانت تتصارع بداخله إلا أن قلمه قد أصابه الجمود، فلم يكتب شيئا من تلك الخواطر التي أراد أن يسطرها.

تذكر أنه منذ زمان لم ينظم شيئا من الشعر الذي كان يجد فيه من اللذة مالا يجده في غيره.

كان على عادته لا يحب أن ينظم إلا في تلك الأشياء التي تلامس شغف قلبه.

لم يكن الشعر بالنسبة إليه غير تجسيد للمشاعر، لذلك لم يكن يكتب إلا ما يمليه عليه قلبه، في مذهبه أن أعذب الشعر أصدقه، وليس أكذبه كما يقولن.

أخذ يفكر في موضوع قصيدته، هل يجعلها عن الوفاء الذي اندثر حتى كاد يختفي، أم عن الخيانة التي يجد الآن مرارتها في حلقه.

أم ينظم في فاتن ومحمود قصيدة يصور فيها بشاعة ما قابلوه به، كي يجعلها دوما نصب عينيه؛ ليطالعها كلما حدثه قلبه بشوقه إليهما، أم يجعلها قصيدة هجاء يرشقهم فيها بمنجنيق كلماته التي تشبه الجندل في صلابتها والحجارة في قسوتها.

لم يطعه قلمه في شيء من ذلك كله، فقد أصابته شيخوخة مبكرة أطفأت ثورته، وجمدت الحبر بداخله، فلم يقوَ على كتابة حرف واحد.

أخذ يتأمل الورقة وهي لا تزال بيضاء، ها هو قلمه يعجز عن أن يسود صفحة واحدة ببعض مشاعره، وهو الذي كان ينطلق في مضمار الأوراق بسرعة الريح.

أخذ يتأمل بياضها، ويستشعر حزنها، وهي لا تزال عذراء كعروس عجز أن يثبت لها زوجها فحولته في ليلة الزفاف.

ما إن شرع في إشعال السيجارة الأولى من علبة السجائر الثانية حتى تفاجأ بمنصور يستأذن عليه في الدخول.

كانت الغرفة قد امتلأت بالدخان المتطاير في كل مكان فيها، وأعقاب السجائرالتي انتشرت في أرضيتها انتشار النجوم في السماء.

فكر في أن يتصنع بأنه نائم حتى لا يراه منصور متلبسا بجريمة قتل نفسه بالبطيء عن طريق السجائر التي لطالما حذره منها، ولكن منصور أفسد عليه تلك الحيلة حينما قال له من خلف الباب:

ــ أفتح يا خالد أعرف أنك مستيقظ، فقد فضحتك السجائر التي انتشر دخانها في كل أرجاء البيت.

لم يكن في حسبانه أن يراه منصور في مثل ذلك الموقف، ومع هذا فلم يجد بدا من أن يفتح له بعد أن أذاع الدخان سره من تحت الباب الذي أحكم إغلاقه.

ما إن دخل منصور حتى علم بحاله من غير أن ينطق خالد بحرف واحد، فبارده بقوله:

ــ لماذا تأخرت كل هذا يا خالد؟ قلقت عليك كثيرا يا أخي.

ــ ولم القلق، هل تظنني طفلا صغيرا!

ـــ بل أعرف أنك رجلا ملء العين والمكان، ولكنك تعرف أن الأوضاع في البلد ليست آمنة، وقطاع الطرق واللصوص قد انتشروا في كل مكان، ألا تخاف على نفسك!

نظر إليه وهو يقول له ساخرا من حاله:

ـــ ومن أي شيء أخاف على نفسي، لا أظن أنه قد يحدث لي شيئا أسوأ من الذي حدث.

نظر إلى أعقاب السجائر التي ملأت الغرفة ثم قال له:

ـــ أعرف أنك الآن حزين، ويمكنني أن أدرك كم أنت متألم، ولكن هل ترى أن الذي تفعله الآن بنفسك هو الذي سينقذك من الألم ويخرجك من الحزن؟!

لم يرد عليه بأكثر من نظرة صوبها إليه، ثم رمى بطرفه إلى الأرض حياء منه.

فتابع منصور كلامه:

ـــ لست أول من يحب امرأة فتتزوج من غيره.

خرج عن صمته ليقول له:

ـــ ولكن غيري هذا ليس أي أحد، بل هو صديق عمري.

ـــ وليكن ذلك كذلك، فلست أول من يحدث معه ذلك أيضا.

ـــ هل تستكثر علي أن أحزن على خسارتي لصديقي وحبيبتي معا في آن واحد؟

ـــ ولكنهم لا يستحقون ساعة حزن واحدة منك.

ـــ ومن قال لك أنني حزين عليهم.

ـــ فعلام حزنك الآن إذن؟

سكت قليلا ليعم سكون غريب على المكان كذلك السكون الذي يسبق العاصفة ثم رفع إليه وجهه وهو يبكي بحرقة ويقول:

ـــ إنما حزني الآن على نفسي التي لم تزل الدنيا تتحفها بالفجائع يوما بعد يوم.

منذ صغري وأنا عاثر الحظ،لم تكتمل لي فرحة قط.

كلما أحببت شيئا فقدته، وكلما تعلقت بشيء فجعتني به الأيام، فأصبحت أرى الحزن في داخل كل مسرة، وألمح الألم داخل كل فرحة، تعرف لماذا يا منصور؟

لأني لم أعرف الفرحة الكاملة، ولا السرور التام يوما من الأيام.

إذا شعرت ببعض السعادة وضعت يدي على قلبي وأنا أترقب لحظة زوالها وهي تخلف وراءها الكثير من الأحزان، فهكذا عودتني الأيام منذ كنت طفلا.

فتحت عيني على الدنيا فوجدتني في زمرة اليتامى أتجرع مرارة الحرمان من كأس اليتم حتى أنني لا أعرف وجه أبي، بل ولا حتى أذكر منه شيئا، فقلت لا بأس فهو قضاء الله وليس مع القضاء حيلة.

وحينما عزمت أن أحقق أمنية أمي ـــ رحمها الله ـــ في دخولي كلية الطب التي جعلتها هدفي وغايتي حالت الظروف بيني وبينها من غير أن يكون هناك أي تقصير مني، فقلت لعل الله قد ادخر لي عنده ما هو خير منها، فرجعت إلى

أمنيتي الأولى منذ كنت طفلا في أن أكون ضابطا في الشرطة، فرأيت تاريخ أبي الذي سطر في أوراق رسمية بحروف آثمة يحول بيني وبينها فحزنت قليلا ثم قلت لعل الله صرفني عنها لأمر لا يعلمه إلا هو.

وحينما كبرت التقيت بالحب الذي أشرق بداخلي على جميع أحزاني فأحرقها فما كان مني إلا أن كافحت من أجله وعانيت وتحملت وتغربت وكل ذلك من أجل أن أحافظ عليه ناصعا ومشرقا، ولأصبح أهلا لأن أعيش في كنفه ما تبقى لي من حياتي، فلما عدت من غربتي بعد أن فجعتني الأيام بأختي، رأيتها تفجعني أيضا في حبيبتي كعادتها القديمة معي في سلبي جميع ما أحب وكل ما أهوى.

وتستكثر الآن علي أن أحزن يا منصور!

بربك قل لي شيئا واحدا يكون سببا في أن أرى الآن في الحياة أملا ولو يسيرا يدفعني لأن أتابع السير فيها.

لا أزال في أول العشرينات من عمري ومع هذا فأنا أشعر بأنني قد أصبحت شيخا كبيرا قد أسرعت به الأيام فهو يمشي فيها بخطى متثاقلة، وظهر في هيئة القوس.

في مقتبل عمري ومطلع شبابي أحنى الزمان عزمي، وأوهن أملي، وجعل اليأس يستحكم مني، بعد أن أحال الدنيا في عيني سوادا حالكا، وشبحا مخيفا.

فقال له منصور في محاولة منه لانتزاعه مما هو فيه أو تخفيفه عنه:

ــ ولم كل هذا يا خالد؟ لا تهول الأمور يا أخي، فما حدث لا يستدعي كل هذا الذي تقوله، منذ متى والدنيا تتوقف على رحيل الأشخاص!

إن كنت قد فقدت صديقا فالأصدقاء كثر، وإن كنت قد حرمت من حبيبتك فغدا يبدلك الله بمن هو خير لك منها.

تردد ما بين إخباره بكل ما اطلع عليه، أو عدم إخباره بشيء، ولكنه رأى أنه قد يجد عنده الرأي الحكيم، أو النصيحة المسددة، قبل أن يقدم على فعل شيء يجلب له بعد ذلك المزيد من الحسرة أو الندم.

فقام بإطلاعه على كل شيء، ابتداء من أول معرفته بفاتن وكيف تم ذلك، مرورا بمقاطعة محمود له في فترة من الفترات بسبب إشعال زوجته علياء لنار الفتنة فيما بينهما بتلك الافتراءات التي افترتها، والأكاذيب التي اختلقتها، وانتهاء بتلك الحيل الشيطانية التي خطط لها محمود، ونفذها له سعيد الذي كان في يده كدمية بين يدي طفل.

لم يستطع منصور أن يخفي ذهوله مما سمعه منه، فأخذ يردد في دهشة وتعجب:

ــ لا حولا ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

ثم قال له:

ــ ولكن لماذا تفعل علياء ذلك، ما الفائدة التي ستعود عليها من وراء الضغينة التي أرادتها بينك وبين محمود!

ــ أما زلت تجهل أن علياء كانت تبغضني أنا وأمك وزينب، وتخصني أنا بمزيد من البغضاء كوني لم أفكر في الزواج من أختها كما كانت تخطط؟

لم يستطع منصور أن يرد على كلمات خالد إلا بصمت طويل.

كان يشعر بأنه قد شاركهم جميعا في غدرهم به وتجنيهم عليه.

وبعد صمت قد طال قال له وقد بدا عليه الحزن جليا:

ـــ صدقني يا أخي كل هؤلاء لا يستحقون أن تفكر فيهم ولو للحظة واحدة، فهم أقل من ذلك بكثير، فدعك منهم، وتناسى ما فعلوه معك، ثم فوض أمرك إلى الله تعالى وهو سيأخذ حقك منهم، فإن الله يمهل ولا يهمل.

أغلق الباب الذي بينك وبين الماضي، وأعطه ظهرك، وإياك أن تفكر في أن تفتحه مرة أخرى، فها هو المستقبل أمامك فاتح لك ذراعيه فأقبل عليه، فأنت لا تزال في أول عمرك، وهذا درس من دروس الحياة التي عليك أن تنتفع به، لا أن تجعله حجر عثرة بينك وبين مستقبلك.

أعرف أن الدرس كان قاسيا، كما أعرف أنك تحملت طاقتك، بل وفوق طاقتك، ولكني أيضا أعرف أنك قادر على أن تتجاوز هذه المرحلة.

وأما عن علياء فسأعرف كيف أجعلها تندم على ذلك الذي فعلته ما تبقى لها من عمرها.

سأتركك الآن لكي تنام، وفي الصباح لنا حديث آخر إن شاء الله.

فقال له وقد بدا مقتنعا ببعض ما قاله له:

ـــ لا يا أخي، لا أريدك أن تواجه زوجتك بشيء من ذلك الذي حدثتك به، فهو لن يجدي شيئا بعد الذي كان.

ـــ لن أواجهها بشيء، ولكني أعرف كيف أعاقبها على تلك الحماقة التي رتكبتها بطريقتي الخاصة، والآن فلتصبح على خير.

ذهب منصور ليأوي إلى فراشه بينما ظل هو من لحظة خروجه يجاهد نفسه على النوم الذي رجى فيه إطفاء النيران المشتعلة بداخله، ولكن جميع محاولاته قد باءت بالفشل، حتى نادى المنادي لصلاة الفجر، فخرج من البيت ملبيا النداء الإلهي ثم رجع فأسلم نفسه للنوم، بعد ليلة قضاها مع التفكير المضني.

****

في صباح مترع بمشاعر الكره المتدفق كدماء بهيمة حديثة العهد بالذبح استيقظ من نومه الذي لم يتجاوز الأربع ساعات.

كان صباحا مترعا بالذكريات التي كان يود أن لو رماها بقنبلة ناسفة حتى يقتلعها ميتة من أعماق ذاكرته التي ترفع في زمان الغدر راية الوفاء.

لم يكن يستنشق في صباح الثلاثاء غير عبق فاتن التي كان يلتقي بها في صباح كل ثلاثاء.

كان يجد بداخله العديد من المشاعر المتناقضة تجاهها، فهو يحبها ويكرهها، ويشتاق إليها، ويحقد عليها، ويتمنى أن ينتقم منها، ويرجو لها السعادة التي حرمته منها.

وبينما هو غارق في لجج أفكاره إذ بهاتفه يرن، ولم يكن المتصل غير محمود.

بدأه محمود بالكلام فقال له:

ــ أعرف أنك لا تحتاج إلى دعوة لأنك صاحب الزفاف، ولكني آثرت أن أؤكد عليك في أن تكون أول الحاضرين غدا، أريدك أن تكون بجانبي في ذلك اليوم.

أجابه في هدوء لا يدري كيف قدر عليه:

ــ بالتأكيد لا أحتاج منك إلى دعوة أو تأكيد يا محمود، فأنا صاحب الزفاف كما تقول.

ــ ليس عندي شك في هذا يا خالد.

ــ حقا؟ ولكني قد بدأت أشك في كل شيء.

تصنع الضحك وهو يقول له:

ــ حين تشك في محمود فعليك أن تشك في نفسك أولا.

لم يرد عليه بأكثر من قول الشاعر:

أكــادُ أشكُّ فــــــــي نفـســي لأنِّــــي

أَكَــادُ أشُــكُّ فــيكَ وأنت مِــنِّـــــــــــي

يــقـــــولُ الناس إِنَّكَ خُنْتَ عَهْدِي

وَلَـــــمْ تحـفــظ هوايَ وَلَـــمْ تَصُنِّي

فَطِنَ محمود أن خالد قد اطلع على كل شيء، أو على الأقل قد عرف بأنه تعمد أن يتزوج من فاتن انتقاماً منه، وليحرق قلبه عليها.

وأما خالد فقد تعمد أن يجعله ينتبه لهذا.

آثر محمود أن يغلق معه بدلا من أن يستمر في الزيف الذي بدا له أن خالد قد كشفه كله فقال له:

ـــ بعيدا عن الشعر وكلام الشعراء الذي لا تمل منه فإنني مضطر الآن لأن أغلق معك، فسأذهب إلى القائمين على الباخرة التي سيكون فيها الزفاف؛ لأطمئن بنفسي من أن كل شيء على ما يرام، تعرف أنني منذ زمان وأنا أحلم بأن تكون حفلة زفافي في وسط الماء.

أغلق معه وهو لا يزال يجهل إذا ما كان عليه الحضور كما وعده بأن يفعل، أم يتناسى ذلك كله ويبحث عن أي شيء يشغله عن التفكير في تلك الأمور.

وكعادته القديمة مع يوم الثلاثاء وجد أقدامه تسوقه إلى الحديقة، كانت تبدو في عينيه حزينة أو باكية.

كل شيء فيها قد ارتدى ثيابا حزينة لم يكن يراها غيره.

لأول مرة منذ عرف فاتن يدخل الحديقة ولا يذهب إلى الشجرة التي شهدت لقاءهما الأول.

كأنه كان يخجل من أن يرفع بصره إليها وقد كان يجلس تحتها مع خائنة لم تكن تستحق كل ذلك الحب الذي منحه لها.

هو الذي أخذها من يدها ليدخلها لأول مرة في حياتها إلى عالم العشاق الذي يبحث الجميع عنه بينما لا يعثر عليه منهم إلا أقل القليل.

لا يمكن للجنس البشري أن يعيش بغير الحب، لذلك فمن عجز منهم في الحصول عليه حقيقة لم يعجز في أن يوهم نفسه بحب وهمي يشبع به رغبته المتعطشة إليه.

هو الذي علمها في مدينة الحب كيف تنطق كلمة أحبك بلا حروف، وكيف تسمعها مباشرة من قلبه دون أن تمر على لسانه.

هو الذي علمها كيف تفهم لغة العيون، وكيف تستكفي بها وبما تنطق به من حروف صامتة عما عداها.

لم يخطر بباله يوما أنه سيعلمها كل هذه الأشياء كي تمارسها مع غيره، بل مع صديقه الذي كان حريصا على أن ينتقم منه بقدر ما كان يحرص هو على أن تبقى صداقتهما قوية وصلبة.

قضى أكثر نهار الثلاثاء داخل الحديقة، كان يتجول فيها ذهابا وإيابا، وفي كل مرة كان يتحاشى الاقتراب من تلك الشجرة أو النظر إليها.

الاقتراب من الأماكن المشبعة بعبق الذكريات خطير، لذلك يجب الحذر منها وإلا انقلبت مقبرة لسعادتنا.

فحين نلتقي مع مكان كانت لنا فيها ذكريات يوما من الأيام فمن الوارد أن يحدث للذاكرة انتعاشا يجعلها تتذكر أدق التفاصيل التي تراكمت فوقها الأعوام.

لم يختلف الليل كثيرا عن النهار الذي قضى أكثره داخل الحديقة، غير أنه ظل طوال النهار يتجول في ساحة الحديقة، وطوال الليل كان يتجول في ساحة أفكاره وخيالاته.

لم يتبقَّ بينه وبين زفاف فاتن ومحمود سوى بعض الساعات.

كان قد أخذ قراره في عدم ذهابه إلى ذلك الزفاف.

ما كان ليسمح لنفسه بأن يرى محبوبته تزف إلى صديقه في ثوبها الأبيض لتزف إليه هو التعاسة في ذلكم اللون الأسود الحزين.

كانت أول مرة في حياته يشتري فيها منوما كي ينقذه من التفكير الذي يكاد يقضي عليه.

قال له طبيب الصيدلية عندما سأله عما يلزمه أخذه من أقراص المنوم:

ـــ قرص واحد كفيل بأن يجعل فيلا يغط في نوم عميق خلال لحظات.

رأى أن قرصا واحدا قد يكون كافيا لأن يجعل جسده يسبح في النوم، ولكن مشكلته الحقيقية كانت مع التفكير الزائد.

قرر أن يأخذ قرصين حتى يضمن نتيجة قوية، ومفعولا سريعا، لم يكن عنده أي استعداد لأن يعيش دقيقة واحدة من تلك الليلة التي قضاها بين التفكير والسجائر.

أخذ القرصين فسافرا به مباشرة إلى عصر يوم الأربعاء الذي كان نهاية مفعول القرصين.

قام من النوم وهو يشعر بإرهاق في سائر جسده، وكأنه كان يعمل في الأشغال الشاقة أثناء نومه.

توجه إلى الحمام مباشرة ليغتسل بماء بارد من أجل أن يعيد النشاط إلى جسده المرهق، ثم خرج متوجها إلى غرفته.

كان البيت بالنسبة إليه هو غرفته الخاصة، إذ باقي البيت كان غرفتين إحداهما لمنصور وزوجته، والأخرى لأولاده الثلاثة.

دخل الغرفة ليخرج الحقيبة التي فيها الأموال التي جناها من عمله في السعودية، قرر أن يقوم بعدها، مع أنه يعرف جيدا أنها ثمانون ألفا وثلاثمائة جنيه بالتمام والكمال، فقد قام بعدها أكثر من مرة بعد أن قام بتحويلها إلى العملة المصرية، ولكنه كان يريد أن يلهي نفسه بأي شيء.

اقترح عليه منصور أن يضع الأموال في البنك حي يكون مطمئنا عليها، ولكنه رفض ذلك خوفا من أن يكون في ذلك شبهة ربا.

وبعد أن قام بعد الأموال تفاجأ بغياب ثلاثة آلاف جنيه منها، ظن أنه أخطأ في عد الأموال ثم شرع في عدها مرة أخرى بإمعان، فلم يحصل إلا على النتيجة الأولى،ف شرع مباشرة في العد للمرة الثالثة وللمرة الثالثة يكتشف غياب الثلاثة آلاف.

كان يعرف أنه لا أحد خلف غياب ذلك المبلغ إلا منصور أو زوجته، إذ لا أحد في البيت غيرهما.

ولكنه كان في حيرة شديدة من أمره، إذ علياء لم تكن تدخل غرفته مطلقا، ومنصور لو أراد ذلك المبلغ أو أكثر منه لطلبه منه مباشرة من غير أن يلجأ إلى سرقته.

للحظات شك أن أحدا من خارج المترل هو من سرق تلك الأموال.

ولكنه كان على يقين بأنه لو كان السارق من خارج المترل لأخذ الأموال بأكملها ولما اكتفى بثلاثة آلاف وهو قادر على أخذها جميعا!

لم يكن يعرف مالذي يتحتم عليه فعله حيال ذلك الأمر، هل يسأل منصور عن تلك الأموال، أم يتناسى أمرها ويجتهد في حفظ ما تبقى.

لم يكن من السهل عليه أن يخبر منصور بشيء، إذ أن إخباره له ولو عن طريق الإشارة أو التلميح سيحمل في متنه اتهاما صريحا له بسرقته لتلك النقود.

لم يكن يعنيه شأن تلك الثلاثة آلاف كثيرا، إذ هو لم يكن بحاجة لتلك الأموال على الأقل في ذلك الوقت.

ولكن الذي كان يعنيه هو كيف تمت سرقة تلك الأموال، ولماذا سرقت، ومن الذي قام بسرقتها.

لم يعرف أي إجابة لتلك التساؤلات، فقرر أن يتناسى ذلك الأمر مؤقتا، من غير أن يكلم فيه أي أحد.

ولكي يريح نفسه من عناء التفكير أقنع نفسه بأن المال إن كان منصور هو من أخذه فلابد وأنه كان محتاجا إليه وفي داخله ينوي إعادته متى تيسر له ذلك.

وإن كانت علياء هي التي أخذته فليس من اللائق أن يتهم زوجة أخيه الأكبر بالسرقة، حتى وإن كان على يقين من أنها فعلت ذلك.

وبينما هو يفكر في ذلك الأمر إذ بمحمود يتصل به قبيل المغرب ويخبره بضرورة التوجه إلى المكان الذي ستنطلق منه الباخرة حيث أنها ستنطلق بعد صلاة العشاء مباشرة.

لم يكن يستغرب كل ذلك الحرص من محمود على أن يحضر زفافه.

كان يعلم أن تخلفه عن الحضور سيضيع عليه لذة كبيرة كان يترقبها منذ استحكمت منه الشكوك وجعلته يعتقد بأنه قد خانه مع خطيبته السابقة.

كان قد عزم عدم الذهاب، بل لم يفكر في أن يذهب ولو للحظة واحدة، لا لأنه لم يكن يريد أن يجعل محمود يشعر بلذة تغلبه عليه وانتقامه منه فقط، ولكن لأنه لم يكن يريد أن تقع عينه على فاتن وهي تجلس بفستان الزفاف بجوار أحد غيره، بل بجوار صديقه.

ومع أنه قد أخذ قراره بعدم الذهاب إلا أنه كان يتمنى أن يرى فاتن، كان شوقه إليها يعذبه.

عاما وثلاثة أشهر لم يلتقِ بها، كان شوقه إليها خلال تلك الأشهر يزداد بداخله يوما بعد يوم، حتى بعد أن علم بخطبتها.

كثيرا ما كان ينكر على قلبه تعلقه بها بعد أن طرحت حبه لها أرضا، وكثيرا ما كانت نفسه تقابل ذلك الإنكار منه بآذان صماء لا تسمع غير نداء قلبه المتيم بها.

ها هو الوقت يمضي شيئا فشيئا، هل يذهب ليرى محبوبته، أم يمضي قراره في تجاهل الدعوة.

وفي أقل من لمح البصر ودون أي تفكير انتفض من مكانه كملدوغ متوجها إلى

خزينة ثيابه ليخرج البذلة التي اشتراها من أجل أن يحضر بها زفاف محمود.

كان قد اشتراها مع البذلة التي أهداها له.

وقف أمام المرآة وهو يرتدي البذلة بسرعة عريس تأخر على حبيبته التي تنتظره كي يصطحبها إلى حفل الزفاف.

ثم قام سريعا بوضع بعض العطر على يده ومسح به وجهه، كان يبدوأنيقا وجذابا في تلك البذلة وكأنه على موعد مع الحب لا الألم.

كانت قامته الطويلة وبشرته السمراء تجعلانه يبدو في تلك البذلة الأنيقة أكثر جاذبية من أي وقت آخر.

بين القامة الطويلة والبشرة السمراء رفعت كثير من الفتيات الراية البيضاء في خضوع واستسلام.

ما إن فتح باب المنزل كي يخرج حتى تفاجأ بمنصور راجع من العمل.

سأله:

ــ إلى أين تذهب بكل هذه الأناقة يا خالد؟

ــ إلى زفاف صديقي.

ــ ماذا؟ هل جننت، كيف تذهب إلى زفافه بعد كل الذي فعله معك!

ــ ولكنه دعاني إلى زفافه وأكد علي في الحضور، لا يمكنني أن أتخلف عن دعوته.

ــ هو ما فعل ذلك إلا لكي يشمت بك، ألا تفهم ذلك!

ــ وهل ستفوته الشماتة بعدم ذهابي؟ الأمر سواء يا أخي ذهبت أو لم أذهب، فقد فعل ما أراده، وحقق جميع ما خطط له.

ــ وليكن ذلك كذلك، ولكن أين كرامتك؟ ألا تستشعر المساس بها مطلقا!

ـــ دعني وشأني يا منصور، أنا أدرى بما أفعله.

ـــ إياك أن تكون قد عزمت فعل حماقة في ذلك الزفاف، أخشى أن تقوم بفعل شيء تندم عليه بعد ذلك يا خالد.

ـــ لا تقلق يا منصور، فقد قررت أن أفوض أمري فيهم جميعا إلى الله كما نصحتني.

وسأصدقك القول:

إنني ذاهب الآن لكي أقتل برؤيتي لهما معا جميع ما بقي لهما من حب بداخلي.

أريد أن أدمر كل ما لهما عندي، أو إن شئت فقل إنني أريد مزيدا من الألم، فإن الألم يقتل بعضه بعضا، حتى إذا زاد عن حده لم يعد له أي وقع لأن صاحبه يصل إلى درجة فقد الإحساس.

وهذا ما أحتاج إليه الآن، أن أفقد الإحساس كجثة بين يدي طبيب في مشرحة يقطعها إلى أجزاء صغيرة من غير أن تشعر بشيء.

لم ينتظر منه أي رد فبادره بقوله:

علي أن أذهب الآن، فالسهرة ستكون ممتعة بلا شك، فهي في وسط الماء وأخشى أن تضيعها علي بهذا الحديث الذي لا يجدي.

انطلق إلى العنوان الذي أعطاه له محمود، كانت المسافة بينه وبين ذلك المكان الذي ستنطلق منه الباخرة تقدر بساعة، مما يعني أن عليه الإسراع، وإلا فلن يتمكن من الوصول في الوقت المناسب.

ظل طوال الطريق يراقب ساعته، لأول مرة منذ خمسة عشر شهرا يتمنى منها أن تسير ببطء حتى يتمكن من الوصول.

وبعد سباق شرس بين الساعة والسيارة تمكن من الوصول إلى الباخرة قبل أن تنطلق بخمس دقائق، بعد أن حُسمت النتيجة لصالح السيارة بمجرد صعوده سلالم الباخرة.

****

ما هو إلا أن صعد سلالم الباخرة حتى انطلقت تشق طريقها وسط الماء، كأنها آلت ألا تشرع في المسير حتى يكون على ظهرها.

لم يكن محمود بعد قد وصل إلى منصة الزفاف مع فاتن، كانا على الراجح في إحدى غرف الباخرة يتأهبان لبدء حفل الزفاف الذي من المفترض أن يبدأ مع لحظة وصولهما.

أخذ يترقب وصولهما مع العديد من الناس.

لأول مرة في حياته كان يرى الماء في صورة غير التي يعرفها.

لم يكن مستمتعا برؤيته التي لم يكن شيئا أحب إليه منها، أو ربما هو الذي لم يكن عنده استعداد لأن يستمتع بأي شيء في ذلك الجو المفعم بالحزن.

كان يتظاهر بابتسامة بلهاء يرسمها على ثغره كلما شعر أن أحدا ينظر إليه.

قمة الألم أن يتحتم عليك التظاهر بالسعادة في وقت أنت مثقل فيه بالجراح ومشبع بالحزن.

كل شيء على متن الباخرة كان يبدو مبتهجا، فالأنوار في كل مكان، والألوان كلها تبعث على البهجة، بل حتى المنصة قد صممت على هيئة قلب تسبح الألوان في كل جزء فيه، هو الوحيد الذي شذ عن البهجة التي كانت تحلق فوق الباخرة.

هاهي المنصة قد أصبحت مؤهلة لاستقبال العروسين، والناس قد التفوا حولها وهم في شغف ولهفة لرؤية العروسين السعيدين.

كان الوقت يمر عليه ثقيلا، كأن عقارب الساعة قد أصيبت بالكساح فهي تمشي خطوة وتحبو خطوات.

أخرج هاتفه وبدأ يعبث به في محاولة منه للهرب من ألم الانتظار، وما هي إلا دقيقة مرت حتى مل منه، فأدخله من حيث أخرجه.

ومع حبه الشديد للماء وعشقه القديم لليل إلا أنهما لم يستطيعا أن ينفيا عنه الكآبة التي احتلته، ولا أن يبددا سحابة الحزن التي أظلته.

وبينما هو مع عالمه الذي كان في عينيه موحشا لأنه لم يكن يبصر فيه أحدا سواه إذ بباسل صديقه في الثانوية العامة يلمحه من بعيد.

أخذ باسل يتكلم بكلمات وهو مقبل عليه لم يسمع منها خالد أي شيء، كانت الأغاني التي تبثها مكبرات الصوت تشوش على كلماته.

ما إن وصل إليه حتى سلم عليه وعانقه.

لاحظ باسل أن خالد كان مشغولا عنه، أو ربما لم يتعرف عليه، والحق أنه كان مشغولا عنه بترقب الوقت الذي لا يمضي، وأيضا لم يتعرف عليه لأن آخر مرة قد رآه فيها كانت منذ أكثر من خمسة أعوام، وكانت ملامح وجهه قد تغيرت بشكل كبير، كما أنه قد أصبح بدينا وقد كان يعرفه وسطا بين النحافة والبدانة.

ثم لاحظ شروده فقال له:

ــ ألا تذكرني يا خالد؟ أنا باسل صديقك في الثانوية العامة.

ما إن قال له أنا باسل حتى تذكره ثم حاول أن يستدرك نسيانه له والذي كان واضحا قبل أن يسمي له نفسه فقال له:

ــ وكيف لا أذكرك يا باسل، ولكني فقط كنت أستغرب من تلك الأعوام التي غيرت هيئتك كثيرا حتى كدت أنكر أنك أنت صديقي القديم.

ضحك وهو يقول له:

ــ معك حق، لقد تغيرت كثيرا، وأصبحت مهملا في نفسي، حتى أصبحت بدينا كما ترى، أكره أن أكون كذلك، ولكنه الكسل قاتله الله، ولكنك لا تزال على هيئتك، لم يتغير فيك شيء.

أخبرني كيف أنت وكيف حال الدنيا معك؟

لم يكن خالد في ذلك المزاج الذي يسمح له بأن يتحدث مع أي أحد، ولكنه لم يجد أمامه غير أن يسترسل معه في الحديث حتى لا يكون لا يكون سخيفاً، فقال له:

ــ الحمد لله أنا بخير، لقد سافرت إلى المملكة العربية السعودية من أجل العمل، قضيت هناك عاما وثلاثة أشهر، وقد رجعت منذ خمسة أيام، تعرف أن فرص العمل هنا نادرة، هذا إذا وجدت ابتداء.

ــ جيد أنك فعلت ذلك، فالبلد تعاني من الكساح في كل شيء، أصبح السفر اليوم حلما مغريا لجميع الشباب، لا أدري متى يستقيم حال مصر!

ــ مالك أنت وللحديث عن السفر وعن حال البلد وقد خرجت إلى الدنيا فوجدت والدك يشغل منصبا في الدولة يدر عليه الكثير من المال، إضافة إلى ما يعطيه له منصبه من صلاحيات تمكنه من أن يفعل الكثير من الأشياء التي قد لا يقدر عليها غيره، فقد كان يعمل في الحربية وهو على الراجح قد وصل الآن إلى رتبة عميد أو لواء.

هذا ما أراد أن يقوله له وقد استفزته منه تلك الكلمات، ولكنه لم يجد من نفسه الشجاعة التي تسمح له بأن يقول له ذلك في وجهه، وأيضا لم يشأ أن يظهر أمامه في صورة الحاقد أو الوقح وهو من كليهما بريء، فقال له مصدقا على كلامه:

ــ معك حق، ولكن أخبرني كيف حال الدنيا معك أنت؟

ــ ما إن تخرجت من كلية التجارة حتى عملت في أحد البنوك، ثم تزوجت ومعي الآن طفلة اسمها مرام.

ــ يالك من محظوظ يا باسل، كيف استطعت أن تجد عملا بهذه السرعة!

ــ ليس الحظ يا صديقي، ولكنها نفوذ أبي، لقد أصبح الآن لواء في الجيش، ومعارفه كثر، وكثيرون هم من يودون التملق إليه.

ــ معك حق، يبدو أنني نسيت ذلك، على أي حال مبارك عليك العمل والزواج والطفلة أيضاً.

ــ بارك الله فيك يا خالد.

هل تعرف أنني كنت من اللذين توقعوا لك مستقبلا باهرا يا خالد، فقد كنت أكثر زملائنا ذكاء واجتهادا، بل كثيرا ما كنت أغار منك.

يؤسفني أنك لم تجد فرصتك.

ــ لا أحد يحصل على أكثر من نصيبه يا باسل، الحمد لله على كل حال.

وما هي إلا لحظات حتى أقبل محمود وفاتن، كان واضعا يده في يدها وهما يسيران معا في بطء متعمد، فاستأذنه باسل في أن يعود إلى مكانه حتى يشاهد محمود عن قرب.

أما هو فقد بقي في مكانه متصلبا كصخرة، ومدهوشا للحظات كأنها السنين التي قضاها أهل الكهف في مرقدهم.

بمجرد أن رأى فاتن شعر بالاضطراب في سائر جسده، ثم بدأ قلبه يخفق ويدق في سرعة وضجيج.

لم تستطع قدماه أن تحملاه أكثر من دقيقة، فجلس على أقرب مقعد منه حذار أن يسقط على سطح الباخرة فينكشف من أمره ما ظل يجتهد في إخفائه.

كانت السعادة بادية على وجه محمود، بقدر ما كان الحزن باديا على قلب خالد، ولم تكن سعادة فاتن كما كان يبدو له بأقل من سعادة زوجها.

لم تكن الابتسامة تفارق وجهها، كانت ما بين ضحكات محتشمة، وابتسامات هادئة وأنيقة تليق بعروس في ليلة زفافها.

لم تغير المساحيق في وجهها شيئا من ملامحها، بل ولا حتى غيرها تلك الشهور التي قضاها بعيدا عنها، كانت كما يعرفها، كأنه لم يبتعد عنها خمسة عشر شهرا.

أخذ يفكر إذا ما كانت تستشعر الآن وجوده بين هؤلاء الناس، أم أن ما هي بصدده الآن قد ألهاها عن أن تكترث له.

بل فكر للحظات إذا ماكانت ستعرفه إذا سقطت عينها عليه أم أنها قد حذفت صورته من ذاكرتها كما حذفت حبه من قلبها.

هي التي قالت له ذات يوم حينما قال لها:

ــ ألا تريدين صورة لي كتلك التي أخذتها منك؟

ــ وما حاجتي إلى الصورة وقد التقطت لك عيناي صورة ثلاثية الأبعاد لا تلمح غيرها أينما نظرت، وحيثما ذهبت.

ألا تعرف أن المرأة تمتلك قلبا يسع الدنيا بأسرها، وحين تعشق لا تجد في قلبها متسعا لغير تمثال المعشوق الذي نحتته باحترافية عاشقة.

لم يكن يعرف في تلك اللحظات التي يتذكر فيها تلك الكلمات إذا ما كانت تمكنت من حذف تلك الصورة أيضا مع حبه، أم أنها استبدلت صورته بصورة ذلك الذي يهمس الآن في أذنها فتضحك فيشتعل حقده عليها بداخله أكثر.

وأين ذلك التمثال الذي نحتته له، ليس من الممكن أن يسع القلب مهما كان كبيرا تمثالين في وقت واحد، فهل لا تزال محتفظة له بذلك التمثال، أم حطمته باحترافية مخادعة!

كانت ضحكاتها بمثابة طلقات نارية تخترق قلبه الذي يعجز عن أن يطردها من داخله.

وبعد دقائق قليلة من حضور العروسين السعيدين قام محمود بمد يده لفاتن كدعوة منه لها كي ترقص معه.

كان محمود يرقص باحترافية مراهق، أما هي فقد كانت ترقص في حياء عذراء.

تأكد في تلك اللحظات أن محمود لا يحبها؛ إذ كيف يدين لها بالحب الذي تأتي الغيرة في أول مراتبه ثم يسمح للأعين أن تقوم باغتصابها على مرأى ومسمع منه وهي ترقص وتتمايل أمامهم.

ما هي إلا دقائق بعد أن جلسا مرة أخرى حتى ظهرت راقصة عارية أو شبه عارية، أخذ الجميع يصفق لها في حماس، أو ربما في رغبة.

ما إن شرعت في الرقص حتى أخذت جميع الأنظار من فاتن ومحمود، كانت تجيد الرقص بشكل كبير، لم تكن الأنظار مصوبة إليها بسبب براعتها في الرقص قدر ماكنت مصوبة نحو أجزاء جسدها الذي بدا للجميع مثيرا ومغريا.

الوحيد الذي ظل وفيا لهما حتى تلك اللحظات التي ظهرت فيها الراقصة هو خالد.

لم يكن يرفع بصره عنهما لحظة واحدة، حتى أنه لم يعر تلك الراقصة أي انتباه.

كان على يقين بأن فاتن لا تزال تجهل وجوده في ذلك الزفاف المحفوف بالخيانة والغدر.

ظل جالسا في زاوية تمكنه من رؤيتهما وهما في الشكل الذي يسمح لنيران الحقد في قلبه أن تتأجج أكثر وأكثر، وفي نفس الوقت لا تسمح لهما برؤيته وهو في لحظات انكساره وضعفه.

لم يكن من الصعب عليه أن يقرأ في وجه محمود افتقاده له وهو الذي أكد عليه في الحضور أكثر مرة.

ولم يكن من الصعب عليه أيضا أن يقرأ في عينيه الرغبة كلما صوب نظره إلى فاتن، كانت تؤلمه نظراته الجائعة إليها والتي كانت تجردها من جميع ثيابها في لهفة محروم.

هو الذي وصف لها يوما من الأيام القبلة وأسهب في الوصف وهو يتخيل ذلك اليوم الذي يتمكن من أن يحصل عليها منها حتى يقارن بين ما كان يتخيله وبين ما حصل عليه.

لم يكن يعلم أن الأيام ستوقفه عند التخيلات لتسمح لغيره بأن يتقدم معها إلى ما هو أبعد من مجرد قبلة بريئة.

ها هو باسل يقبل عليه مرة أخرى ليقول له:

ــ تعالَ معي كي نسلم على محمود يا خالد وهو يجلس بجوار عروسه.

فجأة تجمد الدم في عروقه وكأن أفعى لدغته، أو كأنه قد دعاه للقفز من على متن الباخرة إلى الماء الذي يبدو مخيفا بسبب الظلام الممتزج بأمواجه العاتية.

قال له في هدوء مصطنع:

ــ لا أريد ذلك، يمكنك أنت أن تفعل، لا أظنك بحاجة إلي.

ــ بل ستفعل، هيا تعالَ معي، لا تضيع على نفسك رؤية عروسه عن قرب، إنها بارعة الجمال.

تمنى أن يخبره بأنه لا يخشى إلا أن يراها عن قرب حتى لا تلتقي أعينهما معا في ذلك الموقف المترع بالحزن والسعادة، والمفعم بالغدر والوفاء.

ولكنه لم يزد على أن قال له:

ــ اعذرني يا باسل، صدقا لا رغبة لي في ذلك.

ــ قلت لك لا خيار لك في هذا، هيا اتبعني في صمت.

ومع كثرة إلحاحه في أن يذهب معه لم يستطع إلا أن يخضع له.

كان باسل يتقدمه، وهو خلفه يمشي بخطوات بطيئة، وكأنه ذاهب إلى حتفه.

لم يستطع أن يخفي مشاعر الحزن التي بدت جلية على صفحة وجهه، عبثا حاول أن يرسم ابتسامته البلهاء، ولكنه لم يفلح في ذلك، كان يشعر أن وجهه وشفاهه قد تجمدتا على هيئة العبوس فليس لهما عنها محيد.

بدأ باسل محمود بالمصافحة، ثم التقبيل والعناق، لم تكن فاتن قد انتبهت بعد لوجود خالد، كان يقف في ظهر باسل مباشرة.

ما إن بلغ خالد المنصة التي يجلسان عليها حتى التفتت فاتن فإذ بها تراه واقفا أمامها.

للمرة الأولى منذ شهور عديدة تشبه في طولها الأعوام تلتقي بعينيه الحزينتين.

قرأ في وجهها الذي أظلم فجأة من بعد إشراق مدى صدمتها وهي تراه واقفا أمامها بجسده وصورته.

لم يكن عنده شك في أنها على الأرجح لم تكن تتوقع أن تراه مرة أخرى في يوم زفافها وهي ترتدي لغيره فستانها الأبيض، بل ما كانت تتوقع أن تراه مرة أخرى لا في يوم زفافها ولا في غيره من الأيام.

ها هو يقف أمامها لا يفصل بينها وبينه سوى بعض السنتيمترات، ورجل يجلس بجوارها يقول الناس أنه زوجها.

تجمدت للحظات أمام عينيه اللتين قالتا لها في لمح البصر آلاف الكلمات الصامتة من غير أن تبدي أي حركة كجذع نخلة لا يملك من أمره سوى السكون.

وفي مكر ثعلب وحيلة شيطان كان محمود يراقب تلك اللحظات التي طال انتظاره لها كي يستشعر لذة الثأر والانتقام.

ها هو يجلس بجوار حبيبته وهو لا يملك سوى أن يهنأه على حصوله عليها، والظفر بها من دونه، لم يخيب خالد رجاءه، مد يده نحوه مصافحا له، ثم عانقه وهو يبارك له زواجه السعيد، والذي لم يكن كذلك بالنسبة إليه، كان في حقيقة الأمر يصب عليه سيولا من اللعنات المحرقة، وإن خرجت من فمه في صيغة التهاني وهيئتها.

نظر إلى فاتن وقد تمكن هذه المرة من أن يرسم ابتسامته وقد كان عاجزا عنها، ولكن يبدو أن قربه من محمود صاحب الحيل الشيطانية قد مكنه من أن يفعلها هذه المرة.

ابتسم لها ابتسامة عريضة ثم قال لها:

ـــ (ألف مبروك يا عروسة).

هي لم تستطع أن ترد عليه بشيء، بل لم تجرؤ على أن ترفع وجهها في وجهه وهو يقول لها هذه الجملة المكونة من أربع كلمات.

لاحظ محمود نظرات خالد التي أطلقت شرارات أطفأت إشراق وجه فاتن في لمح البصر.

تدخل لينقذ الموقف، أو ربما ليزيده اشتعالا، فقال لفاتن:

ـــ هذا خالد صديقي يا فاتن، نحن أصدقاء منذ كنا أطفالا، هو مثلك متيم بالكتب والقراءة.

لم تستطع أن تقول له ولكني أعرف به منك، فقط استمرت في الصمت.

كان خالد ينتقل بنظره من فاتن إلى محمود في بطء سلحفاة وهو يقول له:

ـــ أحسنت الاختيار يا محمود، تعرف أنني ماهر بالفراسة، وفراستي في عروسك تقول أنها ماهرة بأشياء كثيرة.

عرفت فاتن ما كان يرمي إليه بهذه الكلمات، ولكنها لم تملك حيالها إلا مزيدا من الصمت.

كانت تجاهد عينيها كي لا تسقط منهما دمعة واحدة حتى لا تفضح شيئا من أمرها، أو ربما كي لا تفسد الألوان والمساحيق التي وضعت في وجهها بدقة واحترافية في يوم يتحتم عليها فيه أن تكون في أكمل زينتها.

التقطت عينه تلك الدمعة التي كانت تتراقص في عينيها يمينا وشمالا على أنغام الموسيقى التي كانت تصدح في كل أرجاء الباخرة.

لم يعرف تفسيرا لتلك الدمعة، أهي اعتذار صامت عن عدم الوفاء، أم هي شفقة عليه وعلى حظه العاثر الذي أتحفه بذلك اليوم المؤلم، أم أنها رسالة مكتوبة بحروف غامضة لن يتمكن من قراءتها إلا عندما يخلو بنفسه بعيدا عن ذلك الصخب والضجيج، أم تراها دمعة من دموع التماسيح التي تتقنها أكثر النساء لا يقصد بها أي شيء سوى المزيد من المراوغة والخداع.

عاد إلى مكانه بعد أقل من دقيقتين قضاهما في كنف صديقه وحبيبته، أو ربما في كنف عدوه وغادرته، ثم أخذ بعض أصدقاء محمود وأقاربه هو وفاتن يتوافدون عليهما، ويتناوبون الذهاب إلى المنصة حيث يجلسان من أجل أن يتصوروا معهما ويباركان لهما ذلك الزواج السعيد.

شعر بالندم لكونه لبَّى دعوة محمود في المجيء، تمنى أن يغادر ذلك المكان الذي بدأ يشعر فيه بضيق في التنفس، ونيران في القلب.

لم يجد أمامه أي شيء غير أن يتأمل البحر والليل في آن واحد وهما يتصارعان معا وسط ذلك الضجيج الذي كان يعم الباخرة، فترك الزفاف وتوجه إلى آخر الباخرة كي يطل على البحر موليا ظهره للزفاف بمن فيه، ثم ظل على تلك الحالة يتأمل الذي يجري ولا يكاد عقله يصدقه، والساعة التي رجعت إلى الإبطاء في السير مرة أخرى.

ها هي الباخرة تمضي قدما غير مكترثة له، ولا إلى ذلك الذي يعاني منه، ولكن إلى أين تمضي؟

إلى المجهول الذي لم يعد عنده أدنى فضول لمعرفته، أم إلى جزيرة الأحزان التي أودع روحه فيها!

لم يكن يعلم أي شيء غير أنه يريد مغادرة الباخرة ولو إلى قاع البحر، فمن المؤكد أنه لن يشقى في أي مكان شقاءه في تلك الباخرة.

****

(الفصل العاشر)

مضى أكثر من ستة أشهر على تلك الحادثة المؤلمة التي يسمونها زفافا سعيدا، كان لا يزال يحمل بداخله الكثير من المشاعر المتناقضة التي تغلي في ضجيج وصخب.

ولكنه قرر أن يتناسى كل تلك الأحداث التي مرت به، وأن يبدأ مع نفسه صفحة بيضاء يسطر فيها مستقبله القادم بعناية وحذر.

ومع أنه قرر تناسي تلك الأحداث التي مرت به إلا أنه لم يشأ أن يغض طرفه لحظة واحدة عن كل تلك الدروس التي خرج بها من معايشته لها.

كانت تلك الدروس مع ما بها من ألم وقسوة هي الربح الوحيد الذي جناه وسط كل تلك الفجائع التي حدثت له والخسائر التي لحقته.

فخلف كل محنة درس، ووراء كل خيبة حكمة، ولا حكيم إلا ذو تجارب.

الشيء الوحيد الذي أخرجه قليلا عن تلك الحالة المزرية التي كان عليها هو لقاؤه بإسماعيل بعد عودته من السفر.

حينما اتصل به إسماعيل وأخبره بأنه قد وصل إلى مصر شعر ببعض السعادة التي كان يتوق إليها في ذلك الوقت.

كان اتصال إسماعيل به لأجل أن يخبره بأن زفافه سيكون بعد أقل من أسبوع وأن عليه الحضور.

لم يتردد لحظة واحدة في تلبية تلك الدعوة التي أتته من صديق مخلص في زمان النفاق والغدر.

سافر إليه قبل زفافه بيوم واحد، ثم مكث عنده يومين كاملين، كان إسماعيل يريده أن يمكث أكثر من ذلك، ولكنه اعتذر منه بأن خلفه الكثير من الأشغال التي يريد إنجازها.

في الحقيقة لم يكن خلفه أي شيء سوى بعض الخيبات التي تطارده ويطاردها، ولكنه لم يكن يحب أن يكون ضيفا ثقيلا، لاسيما وإسماعيل كان في قمة الانشغال بسبب عرسه، ولم يكن يريد أن يضعه في أي حرج بسبب عدم تفرغه للجلوس معه.

وحينما جلس إسماعيل بجوار عروسه عند الاحتفال بزفافهما كان خالد يغبطه كثيرا حيث تزوج من ابنة خاله التي يحبها من غير أن تقف الأيام حجر عثرة بينه وبينها كما فعلت معه.

كان يحاول أن يتقاسم السعادة مع إسماعيل حينما كان يراها تتلألأ في عينيه وهو بجوار عروسه والناس من حوله يغنون ويرقصون.

كان يشاركهم في الرقص، ولكن رقصه كان مختلفا عنهم جميعا.

كان يرقص من الألم على أنغام قلبه الحزين.

فالرقص من الألم على أنغام القلب الحزين فن يتقنه كل صاحب خيبة، وكان صاحب خيبات، لا خيبة واحدة.

عاد إلى البيت مرة أخرى بعد يومين كاملين قضاهما مع صديق لم تكن مدة صداقته معه غير عام وبضع ساعات.

ولكنه كان أخلص له من بعض من مكث معهم أعواما طويلة.

فالصداقة الحقيقية لا تكتسب صلابتها من الأعوام التي أتت عليها، وإنما من الشدائد والمحن التي تعتريها.

فإن كانت حقيقة زادت مع كل محنة قوة، ومع كل شدة صلابة، وإن كانت مزيفة تلاشت فكأنها ما كانت.

وفي صباح يوم من أيام الشتاء البارد كمشاعره تجاه الكثيرين قرر أن يذهب إلى الإسكندرية أسبوعا كاملا كي يريح أعصابه المشدوده برؤيته البحر الذي كان يرى في أمواجه الزرقاء مسكنا لبعض همومه.

قليلون هم من يذهبون إلى الإسكندرية في ذلك الوقت والذي كان في منتصف ديسمبر؛ لأن درجة الحرارة عادة تكون منخفضة بشكل كبير، ولكنه كان يحب الشتاء ببرودته تماما كحبه لليل بخيوطه السوداء.

كان مختلفا عن الكثيرين في حبه للأشياء التي غالبا لا تكون محبوبة عندهم.

ومع ذلك فلم يكن قراره في الذهاب إلى الإسكندرية لأجل الاستجمام والمتعة، ولكنه كان قرارا اضطراريا لا خيار له فيه.

فقد كان يتحتم على منصور أن يذهب إلى محافظة دمياط لأجل استلام بعض الأخشاب المصنعة والمعدة للتصنيع، والتي كان عليه أن يشرف بنفسه على اختيارها وتحميلها في الشاحنات.

ولأن ذلك كان سيستغرق ثلاثة أيام يمكثها منصور في دمياط فقد كان لزاما على خالد أن يمكث هذه الأيام خارج المنزل؛ إذ ليس من اللائق ولا المستساغ أن يجلس وحده مع زوجة أخيه كل هذه المدة.

كان بإمكانه أن يمكث هذه الثلاثة أيام مع أحد صدقائه، ولكنه كان قد ملهم جميعا، أو بالأحرى قد انعدمت ثقته فيهم جميعا فمن دونهم، لذلك فقد كان نادرا ما يلتقي بواحد منهم.

لم يكن له منذ عودته من السفر غير عزلته صديقا يستأنس بجلوسه معه.

حين تأتيك الطعنة من أُقرب الناس إليك فإنه من الصعب عليك بعد ذلك أن تسمح لأحدهم بأن يكون مقربا منك.

كان قد فقد الثقة في جميع المحيطين به، حتى زوجة أخيه لم يكن يثق بها.

منذ واجهها بغياب الثلاثة آلاف واعترفت له بأخذها وهو لا يثق في شيء من كلامها ولا أفعالها.

لم تكن تلك السرقة هي السبب في عدم ثقته فيها، وإنما لكونها قد قالت له بأنها أخذت تلك الأموال من أجل ابن أختها الذي يحتاج إلى عملية سريعة في ساقه تكلفتها أربعة آلاف جنيه، ولم يكن مع أختها غير ألف، واحدة فاضطرت لأخذها من غير علمه.

حينها نزل على رغبتها ولم يخبر منصور بشيء كما طلبت منه.

وبعد أن تحرى عن الأمر ليعرف مدى صحة كلامها تبين له أن ابن أختها صاحب العلة المزعومة في ساقه لا بأس فيه، ولا يشكو من أي شيء لا في ساقه، ولا في غير ساقه.

لم يشأ يومها أن يخبر منصور بأي شيء حتى لا يتسبب في إحداث فتنة في البيت كلهم في غنى عنها.

وأيضا لم يشأ أن يخبر علياء بأنه قد اكتشف كذبها لعلمه بأنها ما دامت قد كذبت عليه في أول الأمر فلن تسير معه إن هو واجهها إلا في المزيد من الكذب الذي بدأته.

عبثا حاول أن يقنع نفسه بأنها ربما تكون قد احتاجت تلك الأموال التي سرقتها في شيء لها، أو لأحد من أهلها، ولا تريد أن يعرف منصور بالأمر.

ولكنه كان لا يزال في ريبة منها.

انتهى من ترتيب حقيبته التي سيأخذها معه في رحلته إلى الإسكندرية، وجلس ينتظر منصور حتى ينتهي هو الآخر من إعداد حقيبة صغيرة سيأخذها معه.

كانا قد اتفقا على أن يذهبا معا حيث كان طريقهما واحدا في بدايته، وما هي إلا دقائق بعد أن خرجا معا من المنزل وكل منهما يحمل معه حقيبته حتى ورد خالد اتصالا هاتفيا من سعيد.

تردد قليلا في أن يجيبه أو لا، ثم قام بإجابته قائلا له:

ـ السلام عليكم.

لم يرد عليه سعيد بشيء سوى البكاء.

أجابه:

ـ ما بك يا سعيد، هل أنت بخير؟

قال له:

ـ لقد ماتت أمي يا خالد، ماتت منذ ساعة ولا أعرف ماذا أفعل.

ـ لا حول ولا قوة إلا بالله، إنا لله وإنا إليه راجعون، عظم الله أجرك يا سعيد.

ـــ تعرف يا خالد أنه لا يوجد لي في الدنيا غير أمي وأبي وأختي الصغيرة، أبي طريح الفراش كما تعرف، وأنا عاجز بساقي الواحدة، أرجوك يا خالد تعال وكن بجانبي.

أحتاج إليك كثيرا، أرجوك تعال وساعدني في أن أدفن أمي.

كانت هذه الكلمات الممتزجة ببكاء سعيد كفيلة بأن ترجع به إلى ذلك اليوم الذي فقد فيه أمه وما كان يعانيه من حزن على فراقها لا يزال يجد كثيرا منه في صدره حتى هذه اللحظات.

لم يكن خالد قد نسي ما فعله به سعيد بأمر من محمود، ولا تلك الطعنة التي طعنه بها في ظهره قد برئت بعد، ولكن لأنه كان يعرف أن الموت لا شماتة فيه، وأن الأخوة والصداقة التي كانت بينهما تقتضي منه أن يقوم بنجدته، فقد تناسى غدره به وقرر أن يذهب إليه.

استأذن منصور في أن يذهب إلى سعيد بعد أن أخبره بأن والدته قد ماتت، وأن عليه أن يقف بجانبه حتى يدفنها، ثم اعتذر منه عن عدم مرافقته في الطريق كما اتفقا معا.

ذهب إلى بيت سعيد مباشرة وهو يحمل معه حقيبته التي كان قد وضع فيها ما يلزمه في رحلته، كان البيت يشبه كثيرا بيتهم يوم أن فقد أمه.

والده جالس على سريرها الذي رقدت عليه جثة هامدة لا حراك فيها تماما كما كان يجلس هو بجوار أمه في مثل ذلك المشهد المؤلم.

وأخته الصغيرة ذات الخمسة عشر عاما تبكي بكاء شديدا هو أشبه بالصراخ منه بالبكاء كذلك الذي كانت تبكيه زينب على أمها في مثل ذلك المشهد، وسعيد يبكي ولا يعرف كيف يتصرف، ولا كيف يهدّئ أخته.

لم يؤثر في خالد أي شيء كتلك الباكية الصغيرة على أمها.

ها هي قد انضمت إلى معسكر اليتامى في وقت هي أحوج ما تكون فيه إلى أمها.

لم يستطع إلا أن يشاركهم حزنهم، فتساقطت من عينيه بعض الدموع التي حاول عبثا أن يواريها عنهم حتى لا يفتضح بها.

كان يعلم أن عليه أن يتولى زمام الأمور كلها، إذ هو الوحيد المؤهل لذلك، فقام من فوره بالاتصال بذلك الرجل الذي يشرف على تغسيل الموتى، والذي اتصل به يوم ماتت أمه، طلب منه أن يرسل له مغسلة موتى، وأن يأتي معها حتى يساعدهم في شراء الكفن، ودفن الفقيدة، بعد أن قام بإعطائه العنوان.

وقبيل أذان الظهر كانوا قد انتهوا من تغسيلها وتكفينها وهم يستمعون إلى سورة البقرة بصوت الشيخ المنشاوي، وعقب صلاة الظهر مباشرة صلوا عليها صلاة الجنازة داخل الجامع الأزهر، ثم ذهبوا بها إلى المقابر من أجل التعجيل بدفنها.

لم يكن خالد يستغرب ما يفعله القدر به، حيث كانت هذه عادته معه، فعندما أراد الذهاب إلى الاسكندرية للراحة والسكينة وجد نفسه داخل المقابر يشيع جنازة!

انتهوا من دفن والدة سعيد في جو مفعم بالحزن الصادق في صدر سعيد ووالده والمتكلف من بعض معارفه وأصدقائه الذين شهدوا الدفن.

ما إن رجعوا إلى المترل حتى ظل خالد يواسي فيهم جميعا، ويجتهد في أن يخفف عنهم.

وعندما أذن لصلاة العصر لم يذهب للصلاة في المسجد، ولكنه قال لهم سنصلي هنا جميعا، وسنجتهد في الدعاء لها، لعل الله أن يرحمها.

فهي لن تنتفع منكم الآن بحزن أو بكاء، ولكنها تريد فقط بعض الدعوات الصادقة.

ثم قام بالصلاة بهم إماما حيث وقفوا خلفه صفين، الصف الأول كان به سعيد ووالده وكانا يصليان وهما يجلسان على كرسيين، فلم تكن صحة والده تعينه على الصلاة واقفا، وخاصة في ذلك اليوم المشبع بالحزن، ولم تكن ساق سعيد التي سبقته إلى الآخرة لتسمح له بأن يفعل ذلك.

وأما الصف الثاني فلم يكن فيه غير أخته الصغيرة، وكانت هي الوحيدة التي تصلي قائمة.

وبعد الصلاة نزل خالد واشترى لهم بعض الطعام الشهي، ثم أجبرهم جميعا على أن يأكلوا معه، بعد أن أخبرهم بأنه يتضور جوعا، وأنه لن يأكل أي شيء ماداموا لن يشاركوه الأكل.

كان سعيد يشعر بضآلته وحقارته شيئا فشيئا أمام كل ما يفعله خالد.

وأكثر ما كان يجعله يتحسر على ذلك الذي فعله معه قديما هو أن محمود لم يكلف نفسه بأن يحضر الجنازة للصلاة عليها وتشييعها بعد كل الذي فعله لأجله، بل ولا حتى فكر في الاتصال به من أجل مواساته.

وقبل أن يهم خالد بالانصراف كي يتركهم يرتاحون بعد يوم مترع بالحزن والفقد ظل سعيد يعتذر منه على ما بدر منه في حقه قبل ذلك، ثم هم بأن يقبل يده وهو يطلب منه المسامحة، ولكن خالد انتزعها منه انتزاعا وهو يقول له:

ـــ أستغفرُ الله.. لقد سامحتك يا سعيد من قبل أن تطلب مني المسامحة، فكلنا بشر، وكلنا نصيب ونخطئ.

ـــ لكنك لا يمكن أن تكون بشرا يا خالد، لا يوجد في هذا الزمان من هو مثلك.

ـــ أستغفر الله، بل أنا بشر، ولي أخطاء كثيرة لا يعلمها إلا الله، ويوجد الكثيرين ممن هم أفضل مني.

ثم أخذ حقيبته وتوجه بها إلى بيتهم ليجلب بعض المال الذي يحتاجه في سفره إلى الاسكندرية.

كان معه الكثير من المال الذي كان كفيلا بأن يجعله يقيم هناك شهرا كاملا لو شاء، ولكنه كان قد أنفق كل تلك الأموال على احتياجات دفن والدة سعيد، حتى لم يتبق معه غير بعض الجنيهات القليلة.

كان يشعر بالراحة النفسية لكون سعيد أخبره بالأمر، كان يعلم أنهم لا يملكون تلك الأموال التي كانت تلزمهم لأجل تجهيز الفقيدة، والتي على الراجح كانوا سيضطرون لاقتراضها.

****

ما إن وصل إلى البيت مع أذان العشاء حتى تفاجأ بشخص يخرج منه، ظن للحظات أنه لص أو سارق، ولكن هيئته لم تكن كهيئة اللصوص، ومع ذلك فقد هم بأن يمسك به ولكنه أفلت من بين يديه.

أسرع إلى البيت كي يطمئن على أولاد أخيه وعلى زوجته فتفاجأ بزوجة أخيه خلف الباب وهي ترتدي قميص نوم يظهر من جسدها أكثر مما يستر.

كان القميص قصيرا ولا يكاد يصل إلى ركبتيها، وبه فتحات من أماكن شتى كأنه يستنشق عبق الشهوة من كل فتحاته بالتناوب، وأما لونه الأحمر فبقدر ما كان يزيدها إثارة وإغراء بقدر ما كان يزيده غيظا وحقدا.

لم يكن يعلم أيهما تفاجأ بالأمر وصعق به أكثر من الآخر، هو أم هي!

لم تستطع قدماه أن تحملاه من هول ما رآه، وأما هي فقد أسرعت إلى غرفتها في سرعة البرق كي تتخذ منها ساترا لجسد يُظهر جوعه في منتهى الوقاحة.

جلس على كنبة الصالة مشدوها، لم يكن عنده أدنى شك في أن زوجة أخيه خائنة.

وإلا فكيف يفسر خروج ذلك الشخص من البيت في ذلك الوقت ثم هروبه من بين يديه كاللصوص.

وكيف يفسر ارتداءها لقميص نوم يحمل في تطريزه ولونه كل هذه الكمية الكبيرة من الإثارة والذي لا ترتديه المرأة غالبا إلا لتطفئ رغبة مشتعلة!

نادى عليها وهو لا يكاد يصدق عينيه وقد رأتا ذلك الموقف الذي لم يكن يتوقع أن تتحفه الأيام بمثله أبدا.

خرجت إليه بعد أن ارتدت ثيابا تستر ذلك الجسد الذي لم يكن يتوقع أن يكون لغير أخيه فيه أدنى حظ أو نصيب.

سألها قائلا وكأنه يريد أي حيلة يكذب بها ما رآه:

ــ من هذا الشخص الذي كان هنا في المترل وماذا كان يفعل في البيت أثناء غيابي أنا ومنصور؟

ردت عليه بثبات وهدوء لا تقوى على مثله إلا داهية من النساء:

ــ عن أي شخص تتحدث يا خالد؟ لم يكن هنا أي أحد باستثنائي أنا والأولاد اللذين ناموا منذ قليل.

رد عليها وقد علا صوته في حنق:

ــ لا تحتالي يا علياء، فقد رأيت الشخص بعيني وهو يخرج من البيت، ورأيتك أنت بتلك الثياب القذرة.

هيا أجيبي من هذا الشخص؟

ـــ إن استطعت أن تثبت أن أحدا قد كان هنا فسأجيبك.

ـــ أعاد عليها سؤاله مرة أخرى وقد ازداد به الغضب، فأجابته بمنتهى الوقاحة التي لم يكن يتوقع أن تجيبه بها:

ـــ وما شأنك أنت؟

ـــ وما شأني؟ حسنا لا شأن لي، فالشأن سيكون شأن أخي منصور، ويمكنك أن تتوقعي ما قد يقوم بفعله عندما يعلم مني بالذي حدث في غيابه.

ـــ لن يفعل شيئا، لأنه وباختصار لن يصدقك.

ـــ بل سيصدقني، لأنه يعلم أنه لا نفع يعود علي من وراء الكذب، كما أنني سأخبره بالثلاثة آلاف جنيه التي سرقتها من غرفتي منذ فترة.

لقد عرفت الآن لمن سرقت تلك الأموال التي زعمت أنها من أجل ابن أختك، لقد تحققت أن ابن أختك ليس فيه أي علة، إذن فقد كانت من أجل ذلك الفاجر الذي كان هنا منذ قليل.

لم تجد بدا من أن تعترف له بمسكنة مصطنعة، وانكسار كاذب تحاول أن تستجلب من خلالهما عطفه، فلعله أن يستر عليها، فقالت له:

ـــ سأخبرك بكل شيء بمنتهى الصراحة، هذا الشاب الذي كان هنا هو شقيق زوج أختي، وقد ظل يلاحقني فترة طويلة حتى أغراني بأن أنام معه، كان هذا منذ فترة، ثم ندمت على ذلك الأمر وأنا أحسب أنها غلطة مضت ولن تتكرر أبدا، ولكني تفاجأت بعد ذلك بأنه قد صورني أثناء نومه معي.

ثم أخذ يبتزني، وبعدها طلب مني تلك الأموال التي سرقتها في مقابل أن يتخلص من الفديو الذي سجله لي ولا يفضحني، وبعد أن حصل على المال إذ به يطالبني بأن ينام معي مرة أخرى قبل أن يتخلص من الفديو على أن تكون هذه هي المرة الأخيرة التي يتعرض لي فيها.

رفضت ذلك رفضا مطلقا، ثم ظللت أتوسل إليه أن يتركني وشأني، ولكنه هددني بأن يفضحني عند أختي وعند منصور، وأن يقوم بنشر الفديو بين أصدقائه.

وعندما سافرت أنت ومنصور اليوم رأيت أن هذه فرصة كي أنفذ له رغبته تلك حتى أتخلص منه ومن الرعب الذي سببه لي.

ثم قالت له ودموع التماسيح تتساقط من عينيها باحترافية ممثلة:

ـــ أرجوك يا خالد لا تخبر منصور بشيء، فقد أجبرت ذلك الوقح على التخلص من الفديو الذي كان يبتزني به، وتأكدت من أنه لا يوجد معه نسخة أخرى منه، وأعدك بأن هذا لن يتكرر مرة أخرى.

لا أطلب منك أن تخبره من أجلي أنا، ولكن من أجل الأولاد، فلا ذنب لهم في غلطتي.

بداخله كان يعلم أنها كاذبة في أكثر الذي ترويه، إذ ليس من المعقول أن يقوم شخص بتصوير امرأة ينام معها من المرة الأولى، وإنما يحدث ذلك بعد أن يتعرف بشكل جيد على كل جزء في جسدها، من خلال اتصاله به مرات.

عبثا حاول أن يصدقها وأن يتعاطف معها، ولكنه عجز عن ذلك، فرد عليها متجاهلا تلك الدموع الكاذبة التي سكبتها:

ـــ بل سأخبره ليعرف أنه تزوج من غادرة، وليتأكد من أن أمي حينما كانت تحذره منك دوما كانت على حق.

وفي أقل من دقيقة كانت قد جففت دموعها، ثم نظرت إليه نظرات إثارة وفي عينيها لمعانا تتعمد به إشعال رغبته وهي تقول له:

ـــ ما رأيك الآن أن أدفع لك ثمنا غاليا في مقابل أن لا تخبر منصور بشيء؟

لم يرد عليها بشيء أكثر من نظرات الازدراء التي لم يكن يملك سواها.

استمرت في كلامها قائلة:

ـــ سأسلم لك نفسي الآن لتفعل بي ما تشاء، أنا وأنت هنا وحدنا، ومنصور لن يرجع إلا بعد ثلاثة أيام، سأعتبرك زوجي خلال هذه الأيام الثلاثة.

أعدك أن تجد في الأمر متعة لم تكن لتتخيلها.

جرى الدم في عروقه، ثم اتسعت عيناه في غضب أفزعها، وفي أقل من لمح البصر صفعها على وجهها صفعة أسالت الدم من وجهها.

ما كان منها إلا أن هرولت إلى المطبخ، ثم أقبلت وهي تحمل سكينا، فقالت له وهي تحمل السكين في يدها:

ــ إذن فلم تترك لي خيارا يا خالد إلا أن أقتلك، ولن يلوم أي أحد امرأة قتلت شقيق زوجها لأنه أراد أن يهتك عرضها في غياب زوجها.

لا تجبرني على فعل ذلك يا خالد.

قال لها وهو يحدق فيها بعينيه اللتين امتلأتا حقدا وغضبا:

ــ لا أستغرب ذلك من فاجرة مثلك، ها أنا أقف أمامك، هيا جربي أن تفعلي.

وما هو إلا لمح البصر أو أقل من ذلك حتى رفعت السكين إلى الأعلى وهمت بأن تطعنه في صدره، وفي خفة لاعب كاراتيه استطاع أن يتفادى طعنتها ثم استدار من خلفها ليخلص السكين من بين يديها، وبمنتهى القوة والحقد قام بطعنها عدة طعنات في بطنها وصدرها وهو يقول لها:

ــ أنا الذي سأغسل عار أخي بنفسي أيتها الفاجرة، لا تستحقي أن يضيع منصور مستقبله لأجلك داخل أسوار السجن، أما أنا فلم يعد لي من مستقبل كي أخاف عليه.

سالت الدماء منها بتدفق أطفأ بعض أحقاد قلبه عليها، لم يندم للحظة واحدة أنه قام بقتلها.

كان يتذكر وهي تلفظ آخر أنفاسها كل ما رآه منها من يوم دخولها ذلك البيت.

فتذكر أنها هي التي فرقت يوما من الأيام بينه وبين أخيه، وأنها هي التي كانت تعامل أخته دائما باحتقار وازدراء متعمد، وربما كانت أحد أسباب موتها أيضا كما كانت أحد أسباب موت أمه.

ولم يكن بحاجة إلى أن يتذكر أنها كانت السبب الرئيس في الفرقة التي حدثت بينه وبين محمود والتي على إثرها قرر الانتقام منه بسلبه حبيبته، لأنه لم يكن ينسى ذلك لحظة واحدة منذ أن علم به.

كان الغضب قد أعمى بصره وقتها عن كل شيء عدا ما لحقه من ورائها.

بادر بإغلاق باب الغرفة التي ينام فيها أبناء منصور حتى لا يشاهدوا أمهم وهي تسبيح في بحور من الدماء.

وما هي إلا دقائق حتى أخرج هاتفه واتصل بأخيه منصور.

قبل أن يبدأه خالد بالكلام بادره منصور بقوله:

أين أنت يا خالد، هل ذهبت إلى الاسكندرية أم لا تزال عند سعيد؟

لم يرد عليه بغير قوله له:

ــ سامحني يا منصور.

ــ علام أسامحك يا خالد!

ــ لقد قتلت زوجتك.

ضحك منصور ضحكة مصطنعة يداري بها ضجره من كلامه وهو يقول له:

ــ مزاحك سخيف يا خالد، رجاء توقف عنه.

ــ ولكني لا أمزح يا منصور، فقد قتلت علياء منذ دقائق، وهي الآن غارقة في دمائها.

بدا الغضب على صوت منصور وهو يقول له:

ــ ما هذه الوقاحة يا خالد، قلت لك توقف عن هذا المزاح السخيف!

ــ قلت لك لا أمزح، ارجع الآن يا أخي من أجل أولادك، فلم يعد لهم الآن في الدنيا بعد الله غيرك.

ولا تتصل بالشرطة، فقد كفيتك هذا الأمر وقمت بالاتصال بهم، وهم في طريقهم الآن إلى بيتنا.

أغلق معه الهاتف وهو لا يعرف إذا ما كان سيعود لأجل أولاده،أم أنه ما زال معتقدا بأنه يمزح معه ذلك المزاح السخيف الذي يتحدث عنه.

لم تمض سوى بعض الدقائق القليلة حتى أقبلت الشرطة، وقامت بالقبض عليه بناء على اتصاله بهم، وإخبارهم بأن هناك جريمة قتل، وأنه هو القاتل نفسه.

وفي وسط زحام الناس المتدافعة لأجل معرفة الذي حدث تم وضع الحديد في يديه ثم دفعوه بمنتهى القوة والعنف داخل عربة الشرطة التي انطلقت به إلى حيث لم يكن يتوقع يوما من الأيام أن يذهب.

****

أكثر من عام مضى عليه داخل السجن، ولكنه كان في عينيه دهورا وأعواما لا تحصى كثرة.

استحال وجهه إلى كتلة من الحزن، حتى كأنه لم يعرف الابتسام يوما من الأيام.

كان لايزال يعيش على ذكرى تلك المرة اليتيمة التي زاره فيها منصور في أول عهده بالسجن.

يومها سمحوا له بأن يجلس معه وحده حيث لم يكن قد حكم عليه بالإعدام بعد.

أول ما جلس معه منصور أخذا يتبادلا معا بعض النظرات المختلسة، كانت نظرات منصور كلها نظرات حيرة وتعجب، خلافا لنظرات خالد التي كانت عبارة عن نظرات يطلب فيها من أخيه العفو والسماح.

سأله منصور بعد قليل من الصمت وكثير من النظرات التي تحمل في متنها العديد من علامات الاستفهام المفتقرة إلى الأجوبة:

ــ لماذا قتلت زوجتي يا خالد؟

كان بإمكان خالد أن يقطع صمته ليسترسل في حدث طويل معه لو أنه سأله أي سؤال غير هذا السؤال.

نكَّس طرفه إلى الأرض دون أن يرد عليه بكلمة واحدة.

كرر منصور السؤال، فكرر خالد صمته.

كان عنده الكثير من الإجابات التي كان من شأنها أن تخفف من حدة منصور، وتزيل علامات الاستفهام الي كان يراها مرسومة داخل عينيه اللامعتين بالكره والحقد.

كان يريد أن يبرئ نفسه أمام أخيه، ولكنه لم يرد أبدا أن يشوه في نظره صورة زوجته وأم أولاده، ولا أن يجعله يفجع في عرضه، وقد فجع في أخيه المسجون وزوجته المقتولة.

قطع منصور الصمت السائد على اللقاء ليكرر عليه سؤاله للمرة الثالثة وقد فقد السيطرة على أعصابه:

ــ أجبني أيها المجرم لماذا قتلت زوجتي؟

ظلت كلمة مجرم تتردد في أذنه، وكأنها مطرقة يُضرب بها على رأسه، لم تكن تلك هي أول مرة يسمع فيها من ينعته بالمجرم، فقد سمعها عدة مرات من لحظة تم القبض عليه، ولكنه لم يكن ليتوقع أبدا أن يكون ناعته بها هو أخيه.

خرج عن صمته ليرد عليه:

ــ قتلتها لأنها لم تكن تستحق غير الموت.

ــ وماذا فعلت لك ليكون هذا هو جزاؤها؟ ألم تكن قد أخبرتني بأنك سامحت كل من تآمروا عليك؟ لماذا تركتهم جميعا وعاقبتها هي.

هل ما فعلته معك بشأن صديقك الذي غدر بك كان يستحق قتلها!

ألم تفكر في أخيك كيف يعيش بين الناس وقد قتلت زوجته على يد أخيه!

ألم تفكر في مصير أبنائي كيف يكون بعد أن فقدوا أمهم على يد مجرم هو في الحقيقة شقيق والدهم!

وماذا أقول لهم إذا كبروا وسألوني عن سبب قتلها ومن الذي قتلها!

أراد أن يقول له قد قتلتها من أجلك، واحتفظت بصمتي إلى الآن من أجل أبنائك حتى لا يكتشفوا يوما من الأيام بأن أمهم كانت كالعاهرات.

ولكنه لم يقل له أي شيء سوى قوله:

ــ أتمنى أن تسامحني يا أخي، أنا لا يعنيني الآن غير مسامحتك.

ــ لا يمكنني أن أسامحك ما حييت، لأول مرة في حياتي أخجل من نسبتك إلي ونسبتي إليك.

كنت أفتخر بك قديما، والآن وقد غدرت بي، وقتلت زوجتي، فقد أصبحت كخنجر مغروس في ظهري.

لا تطلب السماح مني، لأني لا أقدر عليه، ولكن اطلبه من الله، فلعله أن يعفو عنك.

ثم قال له وقد هم بالانصراف:

ـــ لقد كنت أتمنى أن أجد عندك الجواب الذي يحملني على مسامحتك، أما وإني قد عدمت عندك ذلك الجواب فهذه هي آخر مرة سآتي فيها إلى زيارتك، فمن الآن وحتى آخر ساعة في حياتي لست بأخي.

وصدق منصور فيما قال، فلم يأت لزيارته بعد تلك المرة قط، ولا كان يحضر جلسات محاكمته التي تمت في عجلة.

حتى في عيدي الفطر والأضحى اللذين مرا عليه وهو في السجن لم يفكر منصور في زيارته، بل ولا غير منصور.

لم يزره سوى ذلك الشخص الذي لم يتوقع ولو للحظة واحدة أن يكون من زائريه، ولم يكن هذا الشخص غير فاتن.

حين علم بزيارتها له في السجن لم يكد يصدق الأمر، عبثا حاول أن لا يخرج إليها، ولكنه في النهاية لم يجد أمامه غير أن يقابلها وقد تكبدت مشقة الحضور.

لم تستطع أن تخفي الحزن الذي بدا عليها حينما رأته في تلك البذلة الزرقاء الرثة، أخذت تتعجب من وجهه الذي ذهبت منه أكثر الملامح التي كانت تحبها فيه بعد أن اسود بشاربه ولحيته.

خرجت عن صمت لم يستمر لأكثر من دقيقة لتسأله وهي تتحاشى النظر إلى عينيه:

ـــ كيف حالك يا خالد؟

لم يجبها بشيء، فقط أخذ ينظر إليها وهو يتأمل ثيابها السوداء التي كانت تشبه في لونها الذي جمع بين الحزن والهيبة حظه العاثر الذي كان يلاحقه حيثما ذهب.

لأول مرة يراها في ذلك الثوب، كانت تفضل تلك الألوان الزاهية التي تشجع على الحياة، لذلك فقد كان الأسود من الألوان المحظورا عندها.

لم يكن يعرف إذا ما كان محمود قد استطاع أن يغير لها نظرتها إلى الألوان، أم أنها هي التي اختارته عن عمد كي يتناسب مع لقائها برجل ميت، أو في عداد الأموات.

لم يجبها بشيء، فقط رماها ببعض النظرات المغلفة بالحقد عليها.

حاولت الهرب من تلك النظرات، فأعادت عليه السؤال مرة أخرى بعد أن حرفته قليلا:

ــ هل أنت بخير؟

خرج عن صمته ليجيبها بما هو أشد عليها من صمته:

ــ وكأن الأمر يعنيكِ في شيء!

ثم تابع فباغتها بسؤال مفاجئ:

ــ ما الذي أتى بك؟

ــ جئت لأطمئن عليك.

ــ حقا!

ـــ ولماذا أحمل نفسي كل هذه المشقة التي رأيتها برأيك أنت؟

ـــ لا أدري، ربما من أجل أن تستمتعي برؤيتي وأنا أعاني في السجن كل أنواع الشقاء.

لم تتمالك عينيها فبكت وهي تقول له:

ـــ خالد، أنا لست سيئة كما تظن.

ـــ معك حق، فأنت على الراجح أسوأ بكثير مما أظن.

تجاهلت كلماته الحادة، ثم قالت له بعد قليل من الصمت الذي كان كفيلا بتجفيف دموعها:

ـــ هل تعلم أنني طلبت الطلاق من محمود؟

برغم دهشته مما قالته إلا أنه قال لها:

ـــ لا أعلم،ولا يهمني ذلك في شيء.

ـــ ولكني طلبته لأجلك أنت.

ـــ مازلت تجيدين التمثيل إذن!

ـــ كلا يا خالد، فهذه هي الحقيقة، منذ تزوجت من محمود ونحن نتشاجر بشكل يومي تقريبا.

لقد اعترف لي بكل ما فعله معك، وأخبرني بأنه لم يتزوجني إلا من أجل أن ينتقم منك.

ـــ وما الذي يدفعه لأن يخبرك بهذا؟

ـــ دفعه إلى هذا اعترافي له بأني أحبك، أحبك أنت.

صمت قليلا ثم نظر إليها نظرات ازدراء وهو يقول لها:

ـــ ولكنك ما أحببتني قط، لو أحببتني لكان الموت أحب إليك من أن تكوني مع غيري.

أليست هذه هي كلماتك السخيفة التي لم تكوني تملين من تكرارها!

تنهد تنهيدة طويلة كتلك الأيام التي قضاها في السجن، ثم تابع فقال لها:

ـــ لم تكوني يوما تلك الفاصلة التي أستأنف بعدها حياتي، ولكنكِ كنتِ قوسين حصرت بينهما، قوسين ألمح خلفهما نقطة النهاية تتربص بي.

ـــ وأنا ما أحببت غيرك يوما من الأيام، فأنا لم أعرف الحب إلا على يديك الحانيتين.

ـــ لو أحببتني لما نقضتِ عهدك، لما كنتِ عونا لهم على ذبحي.

لا أصعب من أن تنتهي قصة حبك الوردية بنقطة سوداء تسحق جميع الجمل التي سبقتها، حينها تعرف أن قصتك لم تكن وردية، فقط كنت مصابا بعمى الألوان.

ـــ أرجوك توقف عن هذه الكلمات يا خالد، فأنت تذبحني بها، أقسم أني ما أحببت غيرك،حتى جنيني الذي في أحشائي الآن إنما هو ابنك أنت، لأنني لم أكن أنام مع غيرك. كنت أتخيلك معي في كل وقت.

ـــ هل أنتِ حامل؟

ـــ نعم، حامل في خالد، هكذا سأسميه إن شاء الله.

ـــ ما أجبتني.. ما الذي حملك على هذه الزيارة؟ لست ساذجا لأصدق بأنكِ ما جئتِ إلا للاطمئنان علي.

ـــ جئت لأخبرك بأنني سأنتظرك حتى تخرج إلي، مهما طال سجنك فسأنتظرك يا خالد.

ضحك بصوت عال أصابها بالدهشة ثم قال لها:

ـــ لم تطيقي انتظاري عاما واحدا، فهل ستطيقينه الآن أعواما لا يعلم عددها ما يكون غير الله!

ـــ سأنتظرك يا خالد، أعدك أن أكون في انتظارك، لن أسمح لأحد كائنا ما كان أن يثنيني عن عزمي هذه المرة، فإما أن أكون لك أو لا أكون لأحد.

ابتسمت والدموع تتراقص داخل عينيها وهي تقول له:

ـــ سننتظرك أنا وخالد الصغير.

ـــ ولكني أقول لك لا تنتظريني، فعلى الراجح لن أخرج من هنا إلا وأنا محمول على الأعناق، وحتى إن نجوت من المشنقة وخرجت حيا فأبدا لن أكون لكِ، كوني على يقين من هذا.

لم أعد أصلح للحب بعد أن تخضبت بالدماء يدي.

لي رجاء أخير عندكِ، لا تسمي ابنك خالد، أخشى أن يكون عاثر الحظ مثلي إن هو حمل اسمي.

كانت هذه هي آخر كلماته لها في تلك الزيارة العابرة التي كانت أشبه بالحلم أو الخيال.

****

لم يكن حكم الإعدام الذي أصدرته المحكمة عليه خبرا مفزعا له، بل كان يعرف أن المحكمة لن تحكم عليه بغيره وقد اعترف على نفسه بارتكابه الجريمة منذ اللحظة الأولى.

كان قد فقد كل أمل له في الحياة، ومع مرور الأيام كانت الدنيا تسود في عينيه أكثر فأكثر حتى لم يعد يبصر أمامه شيئا غير السواد.

آثر أن يفارق الدنيا وسر قتله لزوجة أخيه يرقد مكفنا داخل صدره الذي حوله إلى قبر لذلك السر.

كان يعلم أن كلامه إن تكلم لن يجدي أي نفع، إذ لا يوجد عليه أي دليل.

فقط كان سيجعل منصور يعيش محطما، وربما أخذه شكه إلى التشكيك في نسبة أبنائه إليه، أو ربما لم يفعل منصور أي شيء غير أن يكذبه، ويتهمه بالافتراء على زوجته ليظهر نفسه في شكل أفضل، ويلبسها زيا لا تستحقه.

كان خالد يتابع تذكر كل تلك الأحداث التي شهدها من أول مولده وحتى قتله لعلياء ودخوله السجن ثم الحكم عليه بالإعدام بعد أن صلى الركعتين اللتين أسند بعدهما ظهره للحائط ليغوص في أعماق الذاكرة.

كان يتمنى أن ينادي على المأمور الذي دخل عليه الزنزانة وهو يبكي ليقول له أنه قد أفنى في كتابة روايته (داخل أسوار المدرسة) عامين من عمره، فهل تتفضل علي وتشرف على طباعتها وسأتكفل بكامل نفقاتها.

ولكنه آثر أن يرحل عن الدنيا في صمت دون أن يحدث أي ضجيج، ليموت وكأنه ما ولد.

كما أنه لم يعد يملك أي شيء، ولا حتى تلك الأموال التي تغرب في سبيلها.

بعد أن قام بقتل علياء لم ينسَ أن يكتب رسالة لمنصور، طلب منه في رسالته أن يسامحه بعد أن أرشده إلى المكان الذي وضع فيه الأموال، ثم وضع الرسالة تحت الوسادة التي ينام عليها.

مضى الوقت دون أن يشعر بمضيه وهو يتذكر كل تلك الأحداث، كانت الشمعة التي أشعلها قبل أن يشرع في الإبحار عبر ذاكرته قد انطفأت، أو بالأحرى قد قضت أجلها من غير أن ينتبه لها كما سيقضي هو الآخر أجله مثلها.

هو أيضا سيقضي أجله بعد قليل مثلها وأيضا من دون أن ينتبه له أي أحد.

أعجبه وآلمه في نفس ذات اللحظة أن حياته تشابهت في بدايتها مع حياة أمه وتشابهت في نهايتها مع حياة والده.

بدأ حياته يتيما كأمه، وها هو سيموت مشنوقا كأبيه، وما بين مولده وموته قد تألم مثلهما تماما وربما أكثر منهما.

انتهت رحلته عبر الذاكرة، ولا يزال أمامه متسع من الوقت، فأخذ يتفكر في إعدامه الذي سيتحقق في الصباح الباكر.

ظل يطوف مع الكثير من الأسئلة حول ذلك الصباح المروع، هل سيظل محتفظا بثباته حتى آخر لحظة له في الحياة، أم أنه سيجبن ويضعف كما هو شأن كل من يقدمون على ما هو مقدم عليه، وهل ذلك الصباح الذي سيكون ختام حياته هو نهاية آلامه أم أن الأسوأ لم يأتِ بعد.

لم تكن عنده أي فكرة عن الطريقة التي سيطبق بها حكم الإعدام عليه غير تلك التي كان يراها في أفلام السينما.

كان يعرف أنهم يقدمون الشخص إلى غرفة الإعدام ويتقدم (عشماوي) إلى المشنقة فيضعها حول عنقه بعد أن يسأله:

نفسك في إيه قبل ما تموت؟

لم يكن يعرف إذا ما كان سيسأله هذا السؤال أو لا، وفي حالة إذا ما سأله فماذا يقول له، وبماذا يجيبه؟ وهل يقدر فعلا هذا الرجل على أن يحقق له أمانيه في هذه الساعة وهو الذي عجز عن تحقيقها لنفسه وقد مر عليه في سعيه نحوها ستة وعشرون عاما!

أم أن هذا السؤال يطرح ولا يقصد به حقيقته مثل كثير من كلمات النفاق التي تمجها الأفواه في كل وقت خداعا وزورا.

هل يخبره بأنه من كثرة ما خابت أمانيه لم يعد يتمنى أي شيء غير أن يتوقف عن التمني، لأنه لم يعد قادرا على تحمل المزيد من الخيبات، أم يعلمه بأنه كان يتمنى أن يحذف من ذاكرته أشياء كثيرة، ولكنها أبت عليه ذلك، ثم يتوسل إليه أن يضع حبل المشنقة حول ذاكرته، لا حول عنقه؛ ليتخلص منها ومن ذكرياته معا في آن واحد.

كانت مشكلته الحقيقية مع ذاكرته، لذلك لم يكن يعنيه شيئا أكثر من أن يتأكد من أنه سيتخلص منها.

كان كأنه يخشى أن تظل ذكرياته معه حتى بعد أن يتراقص جسده على حبل المشنقة، فيشقى بها في الآخرة، كما شقي بها في الدنيا.

لم يكن يعرف ماذا سيكون مصير هذه البذلة الحمراء التي أجبروه على ارتدائها عقب الحكم عليه بالإعدام.

هل ستكون نهايتها معه بالموت شنقا، أم أنها ستكون لبائس آخر من بعده يقوم بارتدائها، ثم يسلمها إلى بائس آخر بعد أن تسلمه هي إلى المشنقة.

تساءل في نفسه عن سر الموت شنقا بالتحديد،لماذا لا يتخيرون طريقة أخرى غير الشنق، بل لماذا لا يجعلون أمر الموت بيد صاحب الشأن فيتخير هو الطريقة التي يحب أن يموت بها، لعله أن يجد فيها أي لذة وسط كل تلك الأهوال التي تحيط بذلك الموت من كل جانب، بدل أن يلزموه بطريقة بعينها.

أليس كل ما يعنيهم في الأمر هو أن يتم طرده من مسرحية الحياة، إذن فماذا يضيرهم في أن يموت بالطريقة التي تروق له.

وفي محاولة منه لجلب الاستمتاع الفكري، والتفنن في إيجاد أي لذة في الموت الذي سيقدم عليه أخذ يتفكر في أفضل طريقة يمكنه أن يموت بها، وكأنهم سيسندون إليه اختيار ما شاء!

لم يدرِ أي طريقة يجدر به أن يموت بها وهو الذي يحب أن يتشبه بالأبطال حتى في موته، أخذ يسترجع كيف مات بعض المشاهير ليتأسى بواحد منهم.

لم يكن يدري ماذا يختار إن هم خيروه، هل يودع روحه على حبال المشنقة ويلفظ عليها آخر أنفاسه كما حدث مع عمر المختار في ليبيا، وسيد قطب في مصر، وصدام حسين في العراق، فيتشبه بهم في الموت، بعد أن عجز عن التشبه بهم في الحياة، أم يختار أن يموت مفجرا بقنبلة كما مات الشيخ المجاهد أحمد ياسين في فلسطين، حتى يجعل الموت يحاصر ذاكرته من جميع الاتجاهات، فإن هي فرت من مكانها إلى مكان آخر وجدته مفجرا، فلا تجد خيارا إلا أن تخضع لعظمة الموت، وسطوة القنبلة.

ربما استطاع بهذه الطريقة أن يثأر لنفسه منها، كثيرا ما كان يتمنى أن يفجر ذاكرته، ها هو الآن يمكنه تحقيق ذلك الانتقام، لكن ما ذنب جسده في أن يناله من ذلك العقاب الذي سيتزله بها!

ربما كانت جريمته أنه كان مأوى لها وهي التي استعصت عليه، وشقت له عصا الطاعة والانقياد.

أم يموت رميا بالرصاص متشبها بهتلر أشهر شخصيات ألمانيا، وأشهر قائد في التاريخ الحديث.

لكن هل تراهم يجودون عليه بتلك الرصاصة وهم الذين ضنوا عليه بالحياة!

وفجأة إذ بباب الزنزانة يفتح، ويدخل عليه السجان ليقول له:

ـ هيا يا خالد، الآن سيطبق عليك حكم الإعدام.

*** تمت بحمد الله ***